

سلسلة

وَلَكِنْ شَيْءٌ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ

3

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي

الْيَقِينِ

سلسلة «ولكن شيءٌ وَقَرَّ في قلبه»

الكتاب الثالث

ليطمئن قلبى

اليقين

تأليف وتوزيع مدارج
هذا الكتاب وقف لله تعالى

الفهرس

إهداء	8
مقدمة	9
الباب الأول: أن يستقر الإيمان في القلب	12
1 — ولكن ليطمئن قلبي	13
2 — آيات سمعها جبير	17
3 — حين قال حن ظلة: نافق حن ظلة	21
4 — أن تعلم، وأن ترى	25
5 — خاطر تكرهه وسؤال تريد فهمه	29
6 — يقيين وعافية	33
7 — ما الذي سألت عنه أم حارثة؟	37
8 — حين استدار المصلون	41
الباب الثاني: حين يشد الأمر	45
9 — إن معي ربي سيهدين	46
10 — أم تسعى بين الصفا والمروة	50
11 — حزن يعقوب ورجاؤه	57
12 — من قدر الله إلى قدر الله	61
13 — الوعد والوقت الذي نختاره له	65
14 — دعاء أم سلمة	75
15 — فإن الله حي لا يموت	79
16 — ما رآه ابن القيم في شريحه	84
الباب الثالث: أن تعرف من تؤمن به	89

90.....	17 — وربطنا على قلوبها
94.....	18 — حسبنا الله ونعم الوكيل
99.....	19 — شكوى سمعها الله
103.....	20 — أرحم من هذه بولدها
106.....	21 — ما لم تحط به خبراً
111.....	22 — شهادة لم يستطع إنكارها
119.....	23 — أنت الحق ووعدك الحق
124.....	24 — عمل لا يراه كثيرون من الناس
128.....	الباب الرابع: حين يصير الإيمان عملاً
129.....	25 — مستيقناً بها قلبه
135.....	26 — حين جرت في سكك المدينة
140.....	27 — الصدق الذي أنجى كعباً
151.....	28 — ألا تحبون أن يغفر الله لكم
154.....	29 — ذلك مال رابح
159.....	30 — أمانة على شاطئ البحر
164.....	31 — حين تكسب القضية وتخسر الحق
169.....	32 — كلمات لغلام
174.....	الباب الخامس: قلوب تثبت على الحق
175.....	33 — ولكنكم تستعجلون
179.....	34 — والله خير وأبقى
184.....	35 — رب ابن لي عندك بيتاً
188.....	36 — فتية آمنوا بربهم
193.....	37 — رب الغلام

199.....	38 — الإحسان وراء باب مغلق
205.....	39 — نداء في الظلمات
208.....	40 — وأن ت أرحم الراحمين
212.....	الباب السادس: في مجالس الصادقين
213.....	41 — حين تذكروا مصعباً
217.....	42 — لم أكن في صلاة
222.....	43 — رجل كان باراً بأمه
227.....	44 — عمّن تأخذ قلبك؟
231.....	45 — البر الذي له طريق
235.....	46 — كلمة لا تنقص العالم
239.....	47 — ليس القصد أن أغلبك
243.....	48 — أعطوني من كتاب الله
250.....	الباب السابع: اليقين في العبادة واليوم العادي
251.....	49 — عمل كان يرجوه بلال
254.....	50 — نداء خفي ورجاء كبير
258.....	51 — وتعلم ولا أعلم
263.....	52 — أتقاكم له
267.....	53 — يا ليتني قبلت الرخصة
271.....	54 — فأعط كل ذي حق حقه
274.....	55 — وما أدراك أنها رقية؟
278.....	56 — لم ين فرد الأغنياء بالطريق
282.....	الباب الثامن: حين تخت برك الدنيا
283.....	57 — صاحب الحديقة

288.....	58 — بعدما تغيّرت الحال
293.....	59 — بركة في نخل جابر
297.....	60 — حتى اللقمة
301.....	61 — كي يراه الناس
306.....	62 — لقد فعلت يا رسول الله
310.....	63 — مال لا يشرب صاحبه
315.....	64 — كأنك غريب
320.....	الباب التاسع: إلى الحياة التي لا تزول
321.....	65 — أعلم أن الله على كل شيء قدير
325.....	66 — وإنني لأرجو له الخير
328.....	67 — ليس بينه وبينه ترجمان
332.....	68 — نصف صاع لم يضع
337.....	69 — رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين
341.....	70 — أغلى من حمر النعم
345.....	71 — حتى يأتيك اليقين
349.....	72 — ثبت قلبي على دينك
353.....	تدريب اليقين ومتابعتة
386.....	خاتمة
390.....	فهرس الآيات
393.....	فهرس الأحاديث والأخبار
398.....	فهرس الآثار وأقوال العلماء
399.....	فهرس المعاني والموضوعات

إهداء

إليك، يا من تؤمن بالله، وتسأله أن يزيّد قلبك يقيناً، وأن يعينك حين تخاف، ويهديك حين لا تعرف أيّ الطرق تسلك.

إليك، وأنت تنظر فرجاً، أو تحمل سؤالاً، أو تحاول أن تثبت على طاعةٍ شقّت على نفسك. وإليك في أيام العافية أيضاً، حين تريد ألا تشغلك النعمة عن ربك، وألا يكون إقبالك عليه مقصوراً على ساعات الشدة.

نهديك هذا الكتاب بمحبة. نحن وإياك نحتاج إلى هداية الله وعونه، ونرجو أن يجعل ما نؤمن به حاضراً في قلوبنا، ظاهراً في صدقنا وأمانتنا وحسن عبادتنا.

وحين تسأل الله الطمأنينة، اذكرنا بدعوة؛ لنا ولوالدينا، ولكل من أعان على وصول هذه الصفحات إليك. نسأله أن يغفر لنا ولك، وأن يرزقنا يقيناً يقربنا منه، وقلباً يحسن الرجاء فيه، وعملاً نلقاه به وهو راض عنا.

هذا الكتاب وقفٌ لله تعالى

تأليف وتوزيع مدارج

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، له ما في السماوات وما في الأرض، وإليه ترجع الأمور. نحمده على ما علمنا، ونسأله الهدى في ما جهلنا، والاثبات على ما عرفنا من الحق. ونصلي ونسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قد تعرف الجواب، ثم تجد أن قلبك ما زال يحتاج إلى ما يثبتته. تؤمن أن الرزق بيد الله، وقلبك الغد. وتعلم أن الله يسمع دعائك، ويطول عليك الانتظار. وتوقن أنك راجع إليه، ثم تشغلك أيام متتابة حتى يضعف حضور الآخرة في قراراتك. لا تحتاج في كل مرة إلى معلومة لم تسمعها؛ قد تحتاج إلى أن تفهم ما تعلمه فهمًا أعمق، وأن تعود إليه، وأن تعمل به حين تدعوك نفسك إلى غييره.

ومن هنا نقترح من سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى، وهو السؤال الذي نقرأ آيته كاملة في أول الكتاب. كان مؤمنًا، وطلب زيادة الطمأنينة. وفي هذا ما يعلمنا أن المؤمن يسأل ربه الزيادة، ولا يرى ما عنده من الإيمان سببًا للاستغناء عن هدايته.^١

اليقين ليس كلمة نقولها لنبدو أقوياء. وليس خبرًا عن المستقبل نملك به أن نحدد متى تنتهي الشدة، أو كيف تجيء الإجابة. إن ما يتعلق أولاً بالله وبما أخبر به: أن وعده

١. البقرة: ٢٦٠. وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، عند هذه الآية؛ في طلب إبراهيم عليه السلام الآن تقال من علم اليقين إلى عين اليقين، مع ثبوت أصل إيمانه.

حق، وأن لقاءه حق، وأنه لا يظلم أحداً. وقد نجهل ما سيقع لنا غداً، ولا يقدح جهلنا بهذا في صدق ما نؤمن به. من المهم أن نفرّق بين الأمرين؛ لئلا نجعل أمنيةً في أنفسنا وعداً لم يعدنا الله به، ثم نحزن كأن الوعد قد تخلف.

ولا يطلب منك اليقين أن تصبح إنساناً لا يحزن ولا يخاف. يستطيع القلب أن يتألم وهو يرجو ربّه، وأن يخشى الضرر وهو يفعل الصواب، وأن يجهل وجه الحكمة في حادثة وهو يعلم أن الله حكيم. ليست قوة الإيمان جفاءً في المشاعر، ولا إنكاراً لما نجده في نفوسنا.

وحاجتنا إلى اليقين لا تبدأ يوم المصيبة وحده. نحتاج إليه حين نرى ما لا يسهل أخذه ولا يحل لنا، وحين نقدر على ظلم إنسان لا يستطيع أن يدفع الظلم عن نفسه، وحين يمدح الناس عملاً نعلم نحن أنه لم يكن صادقاً. عندئذٍ يظهر الفرق بين أن نذكر الحساب في حديثنا، وأن نؤمن به إيماناً يمنحنا من تجاوز حدود الله. قد يكون أصدق ما يدل على ما في القلب أمانةً رُدت، أو حقاً أدّى، أو ذنباً ترك في خلوة.

ونحتاج إليه كذلك ونحن نبنّي حياتنا. ندرس، ونتعلم، ونستشير، ونسعى في الرزق، ونعالج الخطأ. لا تصبح الأسباب عدواً للتوكل لأنها ظاهرة أماننا؛ وإن ما يفسد الأمر حين ننسى أن نفعها بيد الله، أو حين نعطلها ثم نسمّي تقصيرنا ثقةً به. لقد جمع الصالحون بين التعلق بالله والعمل بما يقدرون عليه، ولم يجعلوا العجز مقاماً يتنافسون فيه.^٢

نرجو طمأنينةً تعيننا على الطاعة، لا راحةً نتخذها عذرًا لتترك
الواجب. ونطلب علمًا يقربنا من الله، لا جدلاً ننشغل فيه
بإثبات أنفسنا. وبين ما نعلمه وما نعمل به مجال واسع
للإصلاح؛ فيه تبدأ خطوات صغيرة، لكنها صادقة: آية ن فهمها،
ودعاء نحضره بقلوبنا، وحق نردّه، وسؤال نسأله من يحسن
الجواب، وقرار نختار فيه ما يرضي الله على ما يوافق هوانا.
اللهم زدنا إيماناً و يقيناً، وارزقنا علماً نافعاً وعملاً صالحاً، ولا
تكلنا إلى أنفسنا. واجعل رجاءنا فيك عوناً لنا على طاعتك،
وثقتنا بوعدك قوةً على الصبر، وذكرك حياةً لقلوبنا.

٢. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع والأربعين: حديث عمر في توكل الطير. موضع
الاستشهاد ببيان أن التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدّر الله بها المقدورات.

الباب الأول: أن يستقر الإيمان في القلب

ولكن ليطمئن قلبى

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطمئنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.^٣

كان السؤال عن كيفية الإحياء، مع التصريح بالإيمان. فلا نحمل الموقف ما ليس فيه، ولا نجعل طلاب زيادة الطمأنينة نفيًا لما استقر في القلب من التصديق. والمقصود أن نعرف قدرة الله على الإحياء، وأن نتدبر ما أعطاه خليمه من الدليل؛ لا أن نشرغل بتعيين أنواع الطيور أو عدد الجبال.

من السهل أن تمر العين على الآية، ثم تبحث عن أمر غريب لم تذكره. لكن موضع النفع أقرب: عبدٌ مؤمن يسأل ربّه، ورب كريم يعلمه. ليس في السؤال انتقاص من إيمان إبراهيم، ولا في حاجته إلى الزيادة ما يستدعي أن نخجل من حاجتنا نحن. فالمعانيّة تزيد طمأنينة المؤمن بما علمه وصدق به.^٣

وقال رسول الله ﷺ:

٣. البقرة: ٢٦٠. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية.

٣. البقرة: ٢٦٠. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية.

«نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: {رَبِّ ارْنِي كَيْفَ
تُحْيِي الْمَوْتَى} قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ
قُلُوبِي»^٤

لا يدل الحديث على إثبات الشك لإبراهيم؛ فقد صرح الخليل
بإيمانه في الآية، وطلب زيادة الطمأنينة. نقرأ الحديث مع
هذا الجواب الصريح، ونحفظ من زلة الخليل، ونعرف أن السؤال
قد يكون لزيادة اليقين، لا لغياب أصل الإيمان.

وللسؤال الصادق أدبٌ نحتاجه. أن نعرف ما الذي نريد فهمه، وألا
نجعل ألفاظنا أوسع من حاجتنا. قد يقول إنسان: لا أفهم
الحكمة من أمر، ثم يتحول كلامه من حيث لا يشعر إلى اتهام
كل ما يؤمن به. وقد يخجل آخر من سؤال نافع، في ظل يحمل
فهماً مضطرباً سنوات. ليس الصواب أن نغلق باب السؤال، ولا
أن نجعل كل خاطر حكماً على الدين؛ الصواب أن نسأل بعلم، وأن
نميز بين ما نجهله نحن وما لا حقيقة له.

حين يتعلم المرء مسألة، قد يصدق بها إجمالاً، ثم يسمع دليلاً،
ثم يفهم كيف يدل عليها، فتزداد رسوخاً في نفسه. لم يكن
كل ما عنده قبل ذلك باطلاً. كذلك نحتاج في إيماننا إلى
التعلم والتدبر والتذكر. نقرأ الآية نفسها مرات، لكننا
نكتشف أننا كنا نحفظ ألفاظها ولا نقف عند معناها، أو
نعرف معناها ولا نمنحه موضعاً من عملنا.

٤. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى»، رقم
٤٥٣٧؛ عن أبي هريرة. وينظر تفسير ابن كثير للبقرة: ٢٦٠.

تأمل مثلاً إيمانك بأن الله يعلم السر. هذه حقيقة تعرفها. فإذا هممت بكلمة تؤذي إنساناً في غيبته، ثم تذكرتها فتركت الكلمة، فقد انتفع عملك بما علمه قلبك. وليس هذا تعريفاً لليقين كله، لكنه أثر قريبن فهمه: المعرفة لم تبق معلومةً بعيدة عن الاختيار. ومن هنا لا يصح أن يكون طالب زيادة الإيمان طالباً لمشاعر جميلة فقط؛ نرجو أن يزيده علمنا وصدقنا وطاعتنا معاً.

وقد يخلط على النفس شيء آخر. ترى ما أكرم الله به نبياً، فتشترط لنفسك أية حسية خاصة حتى تطمئن. وقصة إبراهيم ليست وعداً لكل قارئ أن يرى ما رأى، ولا تكليفاً له أن ينتظر خارقاً. أكرم الله أن بيأه بما شاء، وأقام لنا من دلائل الوحي وآيات الخلق ما نهتدي به. والمطلوب منا أن نطالب الحق من أبوابه، لا أن نضع شروطاً من عندنا لقبوله.

وليس معنى ذلك أن يكف الإنسان عن النظر في خلق الله أو أن يستغني عن البرهان. بل ينظر ويتعلم ويزداد فهماً، مع معرفة الفرق بين دليل يقوم عليه الإيمان، وتجربة خاصة يتمنى حصولها. قد يقرأ المرء جواباً علمياً فلا يفهمه من أول مرة؛ يحتاج إلى من يقرب به له، لا إلى من يعيره بسؤاله. وقد يتبين له أن ما ظنه تعارضاً إنما نشأ من نقل ناقص أو معنى لم يحرره.

وفي سؤال إبراهيم ما يردنا أيضاً إلى الله. لا نملك قلوبنا بحيث نصلحها بقوة الإرادة وحدها. نتعلم ونتدبر، ونسأله الهداية والاثبات. ليست الدعوة إلى العلم بديلاً عن الدعاء، ولا

الدعاء بديلاً عن فهم ما أنزل الله. كلاهما باب خير، يجتمعان حين يعرف الإنسان حاجته، ولا يرى نفسه مستغنياً عن ربه.

قد يكون سؤالك اليوم صغيراً في نظر غيورك، لكنه يشغلك. اكتبه بعبارة محددة، وابحث له عن جواب عند من عُرف بالعلم والأمانة. لا تشتت نفسك بين عشرات المقاطع المتعارضة قبل أن تفهم أصل المسألة. ثم لا تجعل المعرفة آخر الطريق. اسأل: ما العمل الذي يتغير في حياتي إذا فهمت هذا حقاً؟ فإن العلم الذي يستقر في القلب يطلاب أثره في الحياة.

وإذا عدت إلى سؤال إبراهيم عن إحياء الموتى، فلا تجعل الطمأنينة عنواناً عاماً للأمنياتك فقط. تذكر العبد المؤمن الذي سأل، والعلم الذي ازداد به إيمانه، والرب العزيز الحكيم الذي بيده الحياة والموت. واسأله زيادةً تعرف بها الحق، وتثبت عليها حين يخالفها الهوى، وتجد أثرها في طاعة هادية لا تحتاج إلى أن يراها أحد.

آيات سمعها جبير

قال جبير بن مطعم رضي الله عنه:

«سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: {أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيِّطِرُونَ} كَادَ قَلْبِي أَنْ يَظِيرَ».

خرج جبير من تلك القراءة بكلمات بقيت تنقل أثرها إلى من بعده. كانت الآيات تسأل عن أصل وجود الإنسان، وعن خلق السماوات والأرض، وعن دعوى أن يكون للمخلوق سلطان مستقل لا يفتقر فيه إلى ربه. وربما اعتاد المرء ما حوله حتى نسي أن يسأل عن خالقه؛ فتأتى الآية لتعيده إلى حقيقته وجوده وحاجته.

لسنا نحن الذين أوجدنا أنفسنا. لم نختر أن نولد، ولم نخلق الأرض التي نعيش عليها، ولا السماء التي نراها. وهذه ليست ملاحظة لوقت التأمل وحده؛ إنها بداية معرفة الإنسان بقدره:

٥. صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الطور، رقم ٤٨٥٤؛ عن جبير بن مطعم. وعقب الخبر قال سفيان: «فأما أنا فإنما سمعت الزهري يحدث عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه: سمعت النبي ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ. لم أسمع زادا الذي قالوا لي».

هو مخلوق، لا ربٌّ لنفسه ولا مالك مستقل لكل ما في يده. والقرآن لا يطلب منه أن يغلق عقله، بل يوقظه إلى السؤال الذي قد يغفل عنه في ازدحام التفاصيل.

تقيم هذه الآيات الحجة على أن للناس خالقاً؛ فلم يوجدوا من غير موجد، ولم يوجدوا أنفسهم. ثم ينتقل السؤال إلى السماوات والأرض؛ فلا يملكون أن ينسبوا خلقهما إلى أنفسهم. وما يأتي بعد ذلك من السؤال عن خزائن الله وسيطرتهم يقطع دعاوى الغنى والسلطان التي لا حقيقة لها.^٦

وفي الموقف أمران ينبغي نبغي ألا ن فصل أحدهما عن الآخر: معنى تخاطب به الآيات العقل، وأثر ذكره السامع في قلبه. لا نخ تزل القصة في انفعال حتى ننسى الحجة، ولا نقرأ الحجة كأنها كلمات لا صلة لها بالخشوع والافتقار. يتعلم القلب حين يفهم، وقد يتحرك حين تنكشف له حقيقة كان يمر بها ولا يقف عندها.

لكننا لا نملك أن نطالب كل قارئ بالأثر الوجداني لنفسه. لا يلزم أن يقول كل من فهم الآيات: كاد قلبي أن يطير، ولا أن يقيس صدق إيمانه بدمعة نزلت أو لم تنزل. تختلف أحوال الناس وطرائق انتفاعهم. قد يخرج أحدهم بسؤال جديد يبحث عنه، ويخرج آخر بتوبة، ويكشف ثلث عن كلمة كان يقولها استخفافاً. العبرة أن يعرف الحق ويحب بله، وأن يزداد بذلك عبوديةً لله.

٦. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الطور: ٣٥-٣٧.

وربما كان من أكبر ما يحجبنا عن معاني القرآن ظننا أننا نعرفها كلها. نسمع بداية الآية، فننتوقع بقيتها، ثم لا نصغي. المعرفة باللفظ نعمة، لكنها لا تعني أننا استوفينا المعنى. في الآيات التي سمعها جبير دعوة إلى أن نتوقف قليلاً: من خلقني؟ ولمن أنا؟ وبأي حق أعيش كأنني لا أسأل عن عمل، ولا أحتاج إلى هداية؟

ليس المقصود أن نكرر السؤال عن وجود الخالق ونحن مؤمنون به، ثم لا نجاوز السؤال إلى أثر الجواب. حين تعلم أنك مخلوق لله، يتغير معنى الملك في نفسك. المال الذي بين يديك لا يبيح لك كل طريق في كسبه وإنفاقه، والقوة لا تعطيك حق الظلم، والذكاء لا يجعلك فوق النصيحة. من عرف ربّه عرف أن عليه عبودية، وأنه لا يكفيه أن يعجب بدليل الخلق ثم يعي ش معرضاً عن أمر الخالق.

وقد تكون بعيدياً عن المجادلات الكبيرة، لكن لهذا المعنى موضعاً في يومك. حين تنجح في عمل، تفرح وتشكر، ولا تتصرف كأن الفضل كله منقطع إليك. وحين تعجز، تعرف أن عجزك لا يعني أن كل باب قد أغلق. وحين يخطئ من تحب، لا تجعله أكبر من الحق الذي أخطأ فيه. معرفة الله تعين الإنسان على أن يضع الأشياء في مواضعها، فلا يرفع بشراً إلى منزلة لا تليق إلا بربّه.

ومن الإنصاف مع أنفسنا أن نعرف أين نطلب الجواب. ليس كل من أتقن الكلام في مسألة قادراً على شرح أصول الإيمان، كما أن حسن العبارة لا يغني عن الدليل. إذا عرض لك إشكال حقيقي

في هذه الآيات أو غيرها، فلا تكتفِ برّد قصير يُسكت السؤال لحظة ثم يعيده. اطلب بياناً تفهمه، وامنح التعلم حقه من الوقت. لا تحتاج إلى أن تنصرف في مجلس قبل أن تعرف ما تقول.

ولا تجعل التلاوة امتحاناً دائماً لمشاعرك. افتح المصحف لتسمع ما يخبرك به الله، لا لتفتش بعد كل آية: هل تأثرت كما تأثر فلان؟ قد يشغلك هذا التفتيش عن المعنى نفسه. اقرأ على مهل، وافهم الكلمات التي لا تعرفها، وارجع إلى تفسيري موثوق. ثم انظر إلى الجواب الذي تفتضيه الآيات من حياتك. رب السماوات والأرض هو ربك، وعبادته ليست فكرة تؤجلها إلى وقت الفراغ.

كان جبير سامعاً لآيات تتلى، فنقل إلينا خبر ما وقع في قلبه. ونحن نملك أن نصغي إليها اليوم، وإن اختلفت أحوالنا. ويقترب منا موقفه كلما سألنا بصدق: هل ما زلت أسمع للقرآن أن يعلمني، أم اعتدت أن أسمع ألفاظه دون أن أراجع نفسي؟ قد يبدأ إصلاح كثير من الغفلة بإنصات صادق لآية نعرفها منذ زمن.

حين قال حن ظلة: نافق حن ظلة

قال حن ظلة الأسدي رضي الله عنه:

«لَقِيَ نِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْ ظَلَّةُ؟ قَالَ قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْ ظَلَّةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَى عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّرِيعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَإِنْ طَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْ ظَلَّةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَى عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّرِيعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدَوُّمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْ ظَلَّةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».^٧

كم نحتاج إلى هذا الفهم حين نخرج من صلاة خامسة أو مجلس علم، ثم نعود إلى طعام الأطفال وأساءة العمل وشؤون البيت. قد نقسو على أنفسنا فنقول: لم يكن ما وجدناه صادقاً، وإلا

لبقى كما هو. وقد نسير في الطرف الآخر فنقول: ساعة وساعة، ثم نبرر بها معصية نعلم تحريمها. والحديث لا يدل على هذا ولا ذاك. هناك فرق بين الاشتغال بالمباح وبين تعمده مخالفة الله، وبين تفاوت حضور القلب وبين انعدام الإيمان. والخاصة لا تخبرنا أن كل ما يجده الإنسان في قلبه سواء. إنها تعلمنا ألا نسمي الأشياء بغير أسمائها، وأن نسأل حين نجهل. حنظلة لم يطمئن نفسه بعبارة من عنده، بل عرض الأمر على النبي ﷺ. وأبو بكر، مع منزلته، شاركه طالب البيان. ليست كل خشية حكمًا صحيحًا، ولا كل طمأنة علمًا. قد يحتاج الخائف إلى تصحيح الفهم قبل أن يحتاج إلى مزيد من لوم النفس. ليس التصديق بحقيقة كاستحضارها في كل موقف. قد يغيب عن انتباه الإنسان ما يؤمن به، فإذا تذكره عاد إلى عمله أثر العلم. لذلك نحتاج إلى تكرار التذكير، ولا نستغني بمعرفة سابقة عن القرآن والذكر ومحاسبة النفس. وليس كل فتور خروجًا من الإيمان، ولا كل انفعال عابر كمالًا فيه.^٧ أنت تعرف أن الموت حق، لكن خبر وفاة إنسان قريب قد يجعلك تنتبه إلى وقتك وحقوق غيرك. وتعلم أن الله يسمعك، لكن حضور هذا المعنى في دعاء صادق ليس كمروره على لسانك وأنت مشغول. ليست الحقيقة قد صارت صحيحة الآن

٧. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدني، رقم ٢٧٥٠؛ عن حنظلة الأسدي، وكان من كتاب رسول الله ﷺ. عافسنا: اشتغلنا وخاطنا. والضيقات: المعايش.

٨. ينظر ابن تيمية، مجموع الفتاوى، كتاب الإيمان الكبير، فصل «زيادة الإيمان يعرف من وجوه»، الوجه السابع، ٢٣٥/٧-٢٣٦.

وكانت غير صحيحة أمس؛ الذي تغير هو حضورها في نفسك. ومن أراد زيادة يقينه اعتنى بهذا الحضور، من غير أن يطالب نفسه بعاطفة واحدة في جميع الساعات.

وللذكر صور لا تنفصل عن الحياة. حين تحضر الصلاة فتترك ما تستطيع تأجيله، فأنت توجب ما تؤمن به. وحين تجلس مع أهلك وتنوي الإحسان إليهم، لا تصبح ساعاتك خارج العبودية لأنك لست في مسجد. وحين تتوقف عند حق الإنسان قبل أن تتصرف في ماله، فقد حضر الحساب في قرارك. لا نحصر حياة القلب في لحظة التأثر، ثم نحكم على بقية الأعمال بأنها انقطاع عن الله.

لكن الانشغال المباح قد يتسع حتى يبتلع ما لا ينبغي بغي أن يبتلعه. تبدأ ساعات العمل بقدر الحاجة، ثم لا يبقى للصلاة إلا آخر الوقت، ولا لقراءة القرآن موضع، ولا لرد حق مؤجل عزيمة. هنا نحتاج إلى مراجعة، لا إلى استعمال حديث حنظلة غطاء لكل غفلة. الاعتدال لا يمحو الحدود؛ بل يساعدنا على أداء الواجب من غير تكلف ما لم يوجبه الله.

وربما كان نفع القصة في صحبتك أيضاً. عندما يفتح لك إنسان قلبه ويقول: ضعفت، لا تسارع إلى تخويفه من نفسه قبل أن تفهم مراده. أسأله برفق: ما الذي تغير؟ أي عمل تركت؟ وما الذي أقلقك؟ ليس لتفتيش سريرته، ولكن لتعيّنه على تسمية حاجته. أبو بكر لم يجعل مصارحة حنظلة سبباً للاحتقار، بل سار معه إلى من يعلمهما. في هذه الصحبة علم ورحمة.

يمكنك أن تحفظ لنفسك أوقاتاً معتادة تعود فيها إلى القرآن والذكر، دون أن تجعل عدداً لم يرد في الشرع عبادة لازمة. المهم أن يكون لك رجوع لا تؤجله إلى أن تقسو النفس. وتستطيع أن تصل المعرفة بعمل محدد: آية في الصدق تعقبها كلمة صادقة، وآية في الأمانة يعقبها أداء حق. كلما ضاق الفارق بين ما تعلم وما تعمل، صار التذكير أنفع من مجرد البحث عن تأثير عابر.

انتهى سؤال حنظلة ببيان، لا بحكم قياس على قلبه. وهذه رحمة نتعلمها ولا نستغني بها عن المجاهدة. نعترب بأن أحوالنا تتفاوت، ونحفظ فرائضنا، ونجدد الذكر، ونسأل الله الثبات. ليس مطلوباً أن يكون البيت نسخة من مجلس الموعظة في كل شعور، ولكن نرجو أن يظهر ما تعلمناه في المجلس في رحمتنا داخل البيت، وصدقنا خارجه، واستقامتنا حين لا يراقبنا أحد من الناس.

أن تعلم، وأن ترى

لن تصور مثلاً قريباً: يخبرك إنسان تثق به أن في موضع تعرفه ماءً، فتصدّقه. ثم تصل إليه فتري الماء بعينك، ثم تشرب منه. لم يكن الخبر باطلاً قبل أن تصل؛ لكن معرفتك بالماء ازدادت حين رأيته، ثم حين ذقته. هكذا قد تختلف وجوه المعرفة مع بقاء أصل التصديق.

قال الله تعالى:

{كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۖ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} ٩.

وقال سبحانه:

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} ١٠.

تقرّب هذه الألفاظ الفرق بين العلم الثابت، والمعينة، والمباشرة. وليست ألقاباً تنافس على وصف أنفسنا بها؛ فما أعظم المسافة بين أن يصف المرء من زلته، وأن ينفذ بما علمه في عبادة ربّه وأداء الحقوق ٩.

٩. التكاثر: ٨-٥. وينظر ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مسألة علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ٦٤٥/١٠-٦٤٦. مثال الماء في المتن تقرّيب تعليمي، لا خبر تاريخي ولا نص من قول عن المؤلف.

١٠. الواقعة: ٩٥. وينظر ابن القيم، مدارج السالكين، من زلة اليقين، بيان يقين الخبر ويقين الدلالة.

ولهذا نعود إلى طالب إبراهيم عليه السلام أن يرى إحياء الموتى. كان خبر الله حقاً عنده قبل أن يرى، ثم طالب مشاهدةً تزداد بها الطمأنينة. لا يلزم من فضل المعايينة أن تكون المعرفة السابقة شرّاً، كما لا يلزم أن كل ما نؤمن به يجوز أن نشترط رؤيته الآن. الحياة الدنيا دار إيّمان بالغيب، وليس كل غائب عن أعيننا غائباً عن العلم الصحيح.

ولفظ الغيب نفسه قد يوقع في لبس. ليس الإيّمان بالغيب إيّماناً بكل ما لا نراه، ولا قبولاً لكل قصة عجيبة. إنما نؤمن بما أخبر الله به ورسوله، وتقوم المعرفة على صدق المصدر ودلالاته. أما خبر مجهول يرويّه شخص عن حلمه، أو دعوى أنه يعلم ما سيجري لك، فليس لها حكم الوحي لأنها تتحدث عن أمر خفي. اليقين لا يلغي التثبت؛ بل يحتاج إلى علم يحفظه من الوهم.

خبر الله حق، ودلائل الوحي تزيد المؤمن فهماً ورسوخاً. لا يصبح النظر في الدليل قليلاً النفع لأنك مصدّق من قبل؛ فقد تعرف جواباً ثم تفهم وجهه على نحو أعمق. أما شدة التمسك بفكرة وحدها فلا تكفي دليلاً على صحتها، مهما كان صاحبها واثق النبرة.^٩

والأمر قريب من حياتنا أكثر مما نظن. قد تظن أنك تعرف إنساناً لأنك سمعت عنه كثيراً، ثم تكتشف أن جميع ما سمعته يعود إلى خبر واحد غير ثابت. الكثرة هنا لم تصنع

٩. التكاثر: ٥-٨. وينظر ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مسألة علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ٦٤٥/١٠-٦٤٦. مثال الماء في المتن تقريب تعليمي، لا خبر تاريخي ولا نص من قول عن المؤلف.

علماً جديداً. وكذلك بعض العبارات الدينية التي تتكرر في الصور والمقاطع؛ لا تصبح حديثاً صحيحاً لمجرد الألفة. قلبك أغلى من أن تبنيه على كل كلام مؤثر، ولو أعجبك ما يدعوك إليه.

وفي خبر حنظلة المتقدم وصف لقوة حضور الجنة والنار في القلب عند التذكير بهما. هذا الحضور يعين على الطاعة، ولا يمنح صاحبه علماً بتفاصيل الغيب. نطلب زيادة الإيمان، ونحفظ الفرق بين التأثير بما أخبر به الوحي وبين ادعاء رؤية ما لم نره.^٧

ومن الرحمة بنا أن لا نحول هذه المعاني إلى سباق في وصف الأحوال. لا يحتاج المؤمن إلى أن يثبت لنفسه كل يوم أنه بلغ مرتبة بعينها. يكفي أن يعرف الحق، ويزداد علماً به، ويعمل بمقتضاه، ويسأل الله الهدى والثبات. من شرغلاته تسمية من زلاته ربما غفل عن حق واضح عليه. وكم من عمل يسير في نظرنا أصدق دلالة من حديث طويل عن صفاء القلب.

تستطيع أن ترى موضع الزيادة في أمر محدد. كنت تعلم أن الغيبة محرمة، ثم فهمت أثرها في حقوق الناس، ثم أمسكت لسانك في مجلس كنت تسترسل فيه. ليس هذا كشفاً للغيب، لكنه تعلم وعمل قد ينفع الله به قلبك. وكنت تؤمن

١٠. الواقعة: ٩٥. وينظر ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة اليقين، بيان يقين الخبر ويقين الدلالة.

٧. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالديني، رقم ٢٧٥٠؛ عن حنظلة الأسدي، وكان من كتاب رسول الله ﷺ. عافسنا: اشتغلنا وخالطنا. والضيقات: المعايش.

بالصدقة، ثم صرت تؤديها من غير ان تظار شكر؛ فظهر أثر
إيمانك بالثواب. لا تحتقر هذه المواطن لأنها لا تشبه
الحكايات العجيبة.

وفي خاتمة سورة التكاثر يأتي السؤال عن النعيم بعد ذكر
علم اليقين وعين اليقين. كأن المعنى لا يسمح لنا أن نبقى
عند الألفاظ وننسى موضع الحساب في حياتنا. ما الذي
فعلناه بالنعيم؟ كيف استعملنا الوقت والمال والقوة؟ هذه
أسئلة يمكن أن نجيب عنها بالعمل قبل أن نصير إلى اليوم
الذي لا ينفذ فيه مجرد التمني.

فاطلب الزيادة في يقينك، لكن اطلبها من أبوابها الصحيحة.
لا تنظر تجربة خارقة حتى تطيع، ولا تجعل كل شعور
دليلاً، ولا تيأس لأنك لا تجد ما يصفه غيرك. بين يديك
وحيث تعلمه، وعمل تصدق فيه، وربّ تسأله. وقد يكون خير
ما يزداد في قلبك اليوم أن تصبح حقيقة تعرفها سبباً
لقرار صالح لم تكن تقدر عليه بالأمس.

خاطر تكرهه وسؤال تريده فهمه

جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ «وَقَدْ وَجَدْتُ مُوهً». قَالُوا نَعَمْ. قَالَ «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيْمَانِ».^{١١}

من غيّر هذا البيان قد يظن الإنسان أن مرور الخاطر المكروه يعني أنه اختاره ورضي به. لكن هؤلاء الصحابة استعظموا أن ينطقوا به. في خوفهم من ذلك الخاطر وكراهيتهم له ما يبين الفرق بين أمر يعرض للنفس وبين اعتقاد تقبله وتطمئن إليه. لا نجعل مضمون الوسوسة نفسه إيماناً، ولا نحكم على الإنسان بأنه رضي بكل ما خطر له.^{١٢}

في القصة رفق لا ينبغي أن يضيع بين أيدينا. لم يقابل النبي ﷺ سؤالهم باتهام يجعلهم أشد انفراداً بخوفهم. سمع، وسأل، وبين. ولولا أنهم سألوا ل بقي عندهم معنى يحتاج إلى تصحيح. وليس كل من اضطره القلق إلى السؤال طالب جدل؛ قد يكون حريصاً على دينه، يحتاج إلى علم يضع به ما يجد في موضعه.

١١. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم ١٣٢، من حديث أبي هريرة.

١٢. النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، شرح الحديثين ١٣٢ و ١٣٤؛ في معنى استعظام الوسوسة، ونقله عن المازري الفرق بين الخاطر الطارئ والشبهة المستقرة.

ومع ذلك، فإن السؤال الذي يطالب الفهم ليس هو الخاطر الذي يلح على المرء وهو يكرهه. قد تواجه مسألة لا تفهم دليها، فتحتاج إلى شرح صحيح. وقد تعرف الجواب، لكن السؤال نفسه يعود في صورة متعبة لا تطلب علماً جديداً. لا يصح أن نسمي كل بحث وسواساً فنمنع التعلم، ولا أن نعامل كل خاطر عابر كأنه منازرة يجب أن نبدأها من جديد.

وقال رسول الله ﷺ:

«يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ».^{١٣}

وقال ﷺ:

«لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ».

١٣

١٣. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم ١٣٤؛ عن أبي هريرة.

١٣. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم ١٣٤؛ عن أبي هريرة.

الاستعانة وقطع الاسترسال في الوسوسة لا يغلطان باب التعلم. فمن يحتاج إلى فهم دليل أو إزالة شبهة يسأل من يعلم، ومن يعاوده خاطر مكروه بلا سؤال جديد لا يلزمه أن يعيد المناظرة مع نفسه كل مرة.^{١٢}

قد يفتح إنسان مقطعاً قصيراً، فيجد فيه سؤالاً شديداً النبرة، ثم يظن أن حيرة لحظة قد هدمت كل ما يعرفه. ربما لم يكن السؤال جديداً أصلاً، وربما كان مبنيّاً على نقل غير صحيح. لا تعجل إلى الحكم على نفسك. افهم السؤال كما هو، ثم أسأل من يحسن الجواب. وإذا اتضح لك المعنى، فلا تجعل خوفك اللاحق دليلاً على أن الجواب بطل. ليس كل تغير في الشعور تغيراً في الحجة.

وقد يعيد القلق السؤال بعد أن فهمت جوابه. عودة الخوف وحدها لا تنقض الدليل الذي عرفتته؛ ومع ذلك، إن تعطلات عبادتك أو حيائك من شدة ما تجد، فاطلب عوناً مؤهلاً. لا تجعل طلاب المساعدة حكماً على إيمانك، ولا تجعل هذه الصفحات تشريحاً لحالتك.

أما المسألة العلمية التي تريد فهمها، فأعطها حقها. حدّد السؤال، وميّز أصل النص من كلام من فسّره، واسأل عن وجه الدلالة. لا تجعل صيغة الاعتراض المخيفة تغني عن فحصه، ولا تكتم في المقابل بعبارة مؤثرة لا تجيب عنه. بعض

١٢. النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، شرح الحديثين ١٣٢ و ١٣٤؛ في معنى استعظام الوسوسة، ونقله عن المازري الفرق بين الخاطر الطارئ والشبهة المستقرة.

الحيرة تزول حين نتعلم معنى كلمة، وبعضها يحتاج إلى دراسة أطول. الإقرار بأنك لم تفهم بعد أصدق من ادعاء فهم لا تملكه.

وفي صحبتنا لأهل الأسئمة يظهر شيء من أخلاقنا. إن لجأ إليك شاب أو فتاة فلا تجعل السؤال فرصة لإظهار تفوقك. قد يكون قولك: لا أعلم، لنسأل من يعلم، أرفق وأنفع من جواب واثق غير صحيح. وليس واجباً أن تجيب عن كل شيء، لكن واجب الأمانة ألا تدفع غيرك إلى مزيد من الاضطراب بسبب رغبتك في ألا تبدو جاهلاً.

ولا ننسى أن القلب يحتاج، مع البيان، إلى حياة من العبادة والعمل والعلاقات الصالحة. ليس من النافع أن تتحول الأيام كلها إلى تتبع الاعتراضات، حتى يصير القرآن بعيدياً عن صاحبه، ولا يبق من الدين في يومه إلا الردود. تعلم ما تحتاج إليه، ثم عد إلى الصلاة والإحسان والصدق وبر الوالدين. لا تجعل الجدلي أخذ منك الحياة التي تريد أن تصلحها بالعلم.

لقد حمل أصحاب النبي ﷺ ما أقلقهم إلى من يبينه، فعادوا بعلم يصح الفهم. فخذ من الموقف هذه الرحمة: ما تكرهه ليس بالضرورة ما تعتقده، وما تجله ليس عيباً لمنك من التعلم. سل الله الثبات، واطلب جواباً أميناً، ولا تستسلم لحكم قيس على نفسك لم يدل عليه علم. ربك أعلم بك، وطريق الرجوع إليه لا يغلقه خاطر لم تختره.

يقيّن وعافية

عن أوسط بن إسماعيل البجلي:

أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ، حِينَ قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ - يَقُولُ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِي مَقَامِي هَذَا عَامَ الْأَوَّلِ ثُمَّ بَكَى أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ قَالَ «عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْمَغْفَاةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُوْت أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْمَغْفَاةِ وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا».^{١٤}

تأمل ما اجتمع في هذا المجلس: يقيّن، وعافية، وصدق، وإخوة لا حسد فيها ولا تباغض. لم يكن اليقين معزولاً عن السلوك، ولا كانت الدعوة إليه دعوة إلى أن يتمنى الناس البلاء ليبرهنوا على قوتهم. نسأل الله المغفأة ونحن في سعة، ونشكره عليها، ونستعين بها على طاعته.

قد يسمع الإنسان عن صبر الصالحين، فيظن أن محبته لله لا تصدق حتى يتمنى مشقة عظيمة. لكننا لا نعرف كيف تكون نفوسنا عند ما نتمنى. نطالب العافية، فإذا ابتلينا

١٤. سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم ٣٨٤٩؛ عن أوسط بن إسماعيل، عن أبي بكر. صححه محققو طبعة دار السلام.

سألنا الله الصبر والثبات. والفرق كبير بين الرضا عن الله إذا وقع المقدور، وبين تعريض النفس لما لا يلزمها، أو الدعاء على نفسها بأمر لا تطيقه.

وما أجمل اقتراح اليعقوبين بالعافية في هذا الخبر. اليعقوبين خير للقلب، والعافية نعمة يستعين بها الإنسان على شؤون دينه ودنياه. ليس من الصدق أن نزهد في نعمة الصحة والأمن لأننا نريد أن نبدو أعلى من حاجات البشر. نحتاج إلى ما يعيننا على الصلاة والعمل ورعاية أهلنا، ونسأل الله حفظه. وإذا رأينا صاحب بلاء، رحمنه وأعناه، ولم نحوله إلى مثال نطالبه أن يؤدي أماننا مشهدًا من الصبر.

قَلَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُو بِهِؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ لِأَصْحَابِهِ «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تَبْلُغُنَا بِهِ جَنَّاتِكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تَهْوِنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلَا تَسْلُطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا».^{١٥}

^{١٥} جامع الترمذي، أبواب الدعوات، حديث ٣٥٠٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال أبو عيسى الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

لا ينبغي في الدعاء وقوع المصيبة ولا يعد بأن الألم يزول كله؛ بل يسأل يقيناً يهوّن وقعها، ويحفظ الدين، ويعيد ترتيب الهم على ما هو أعظم وأبقى. لذلك جمع الدعاء بين طلب التخفيف من مصائب الدنيا، والاستعاذة من المصيبة في الدين، وألا تستولي الدنيا على أكبر الهم أو مبلغ العلم.

وعندما يذكر أبو بكر الصدق مع هذا كله، يظهر جانب آخر من قوة الإيمان. قد يكون اختبارنا اليوم أن نقول الحقيقة في أمر صغير نخشى تبعته، لا أن نصبر على بلاء مشهور. نؤمن أن الله يسمع، وأنه يحب الصدق، ثم يأتي موقف نملك فيه أن نخفي خطأنا بالكذب. هنا يحتاج العلم إلى يقين يعمل في اللحظة، لا إلى حديث جميل نلقيه بعد انتهائها. وإذا كنا نسأل الله العافية، فمن الوفاء بهذا السؤال ألا نفرط في أسباب الحفظ التي نقدر عليها. نراعي حقوق الأبدان، ونتجنب الظلم والخصومات التي نمنعها بلا حاجة، ونطلب العلم قبل أن نخوض فيما لا نعرفه. ليس في الدعاء تفويض لأهوائنا أن تعبث بما وهبنا الله، ثم ننظر سلامة لا نبذل لها ما نستطيع.

والعافية أوسع في نفوسنا من أن نحصرها في سلامة البدن. نسأل الله أن يعافينا من فتنة تصرفنا عن الحق، ومن ظلم نوقعه بغيرنا، ومن حسد يفسد علينا نعمة عند أخواننا. ما أكثر من يحسن وصف الشدة الخارجية، ولا ينتبه إلى مرض في قصده أو لسانه. لذلك نحتاج إلى الدعاء ونحن في سعة، لا بعد أن تتجمع علينا أسباب الضيق وحدها.

وقد يفرح القلب بعبارة اليقيني، ثم يتخيل أنه لا يعود بعدها إلى الضعف. لكن أبا بكر يعلم الناس أن يسألوا؛ والعبء يبقى محتاجاً مهما تعلّم. نحن لا نستخرج من أنفسنا طمأنينة مستقلة عن الله. نطلب فضله، ونذكر نعمته، ونصلح ما نقدر عليه. وإذا غلبتنا أنفسنا في يوم، لم نترك الدعاء حياءً من تقصيرنا؛ بل نرجو أن يكون الرجوع أول الإصلاح.

خذ هذا الدعاء إلى وقت هادئ من يومك. لا يلزم أن تنتظر أزمة حتى تسأل الله اليقيني والعافية. واذكر من تعرف ممن أثق لهم البلاء؛ لعل دعائك لهم يعلمك شكر ما أنت فيه، ويبعدك عن مقارنة قاسية بين أحوال الناس. فمن عوفي لا يعلم كل ما يمر به المبتلى، ومن ابتلي ليس محروماً من رحمة الله لأن طريقه مختلف عن طريق غيره.

وتذكر أن الخير الذي نرجوه بعد اليقيني ليس مظهرًا نتفاخر به. من عوفي فليحمد الله، ومن وجد في نفسه قوة على الصدق فليسأله دوامها. لا نملك أن نقيس قلوب الناس من رخاء حياتهم أو شدتها. وقد تختفي أعمال عظيمة في بيوت لا يعرفها أحد، كما قد يخفي المظهر الجميل تقصيرًا يعلمه صاحبه. حاجتنا إلى إصلاح أنفسنا أولى من الانشغال بتوزيع المنازل على الآخرين.

قد تثبت قدمك وتدمع عينك، ولا تناقض بينهما. نسأل الله عفوًا يمحو الذنب، وعافية تعين على الطاعة، ويقينا لا يجعل مصيبات الدنيا أكبر من إيماننا بملقائه.

ما الذي سألت عنه أم حارثة؟

أَصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ فَقَالَ «وَيْحَكَ أَوْهَبِلَتْ أَوْجَنَّةً وَاحِدَةً هِيَ إِنَّهَا جَنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ».^{١٦}

كانت البشارة جواباً عن الأمر الذي جاءت تسأل عنه. لم تعدها باسترداد ما فقدته في الدنيا، بل كشفت لها ما لا تعرفه عن مصير ولدها. وهناك موضع العزاء: أن الحياة لا تنتهي بانقضاء ما نراه، وأن خبر الله ورسوله أصدق من حسابنا الضيق للخسارة.

في سؤالها حضور واضح للأخرة. لم تقل إن الفقد لا يؤولم إن كان ولدها في الجنة؛ قالت إنها تصبر وتحتسب. وبين العبارتين فرق. الصبر يحتاج إلى شيء يصبر عليه الإنسان، والاحتساب رجاء أجر من الله، لا ادعاء أن الأمومة قد صارت بلا حزن. لا تجعل قوة إيمانها سبباً لأن تطلب من كل أم فقدت ولدها أن تخفي دموعها.

١٦. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، رقم ٣٩٨٢؛ عن أنس. لفظ هذه الرواية «في جنة الفردوس». «ويحك»: كلمة ترحم؛ و«أوهبِلَتْ»: أذهب عقلك من شدة الجزع؟ والبشارة بحادثة خاصة بمن ورد فيه النص.

ونحن نؤمن بالجنة، لكننا قد نعيش زمنًا طويلاً لا تدخل فيه هذه الحقيقة في حساباتنا إلا قليلاً. ن فكر في الخسارة بحسب ما نراه الآن، وننسى أن الحياة الدنيا ليست كل الحياة. فإذا قرأنا هذا الموقف، لم يكن المقصود أن نعجل للناس بشهادات لم يثبتها الوحي، بل أن يزداد فينا الإيمان بما أعده الله لعباده، وأن يبقى رجاء الآخرة حاضرًا في ساعة لا تكفيها أسباب الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^{١٧}

الإيمان بالآخرة ليس فكرة عن زمن بعيد لا علاقة له بيومنا. إننا نتوقع لقاءً وحساباً وجزاءً. نعلم أن الخير لا ينتهي أثره بانتهاء عمر صاحبه، وأن حقاً ضاع في الدنيا لا يخرج عن علم الله وعدله. هذه المعاني تعين على الصبر، وتدعو إلى العمل معاً.

ولو جعلنا الإيمان بالجنة تعزيةً عند الموت وحده، فأتينا أكثر أثره في الحياة. الذي يرجو ما عند الله يستطيع أن يترك نفعاً محرماً، وأن يصبر على طاعة شاقة، وأن يحفظ أمانةً لا يشكره صاحبها عليها. لا نفعل ذلك لأننا نعرف أنفسنا

١٧. البقرة: ٤. وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، عند قوله تعالى: «وبالآخرة هم يوقنون»، في التصديق بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان.

منزلةً في الجنة، بل لأننا نصدق وعد الله ونرجو رحمته.
الرجاء يدفع إلى العمل، وليس وثيقة تمنح الإنسان الأمان مهما
صنع.

ومن أدب هذا الباب أن نميّز الخبر الخاص من الرجاء العام. حارثة
شهد له النبي ﷺ. أما من لم يرد في شأنه نص، فنرجو
للمحسن، وندعو للميت، ولا ندّعي علم مصيره تفصيلاً. لا
نحتاج إلى هذا الادعاء لنواسي أهل الفقيده. الدعاء الصادق
والرفق والحضور معهم أصدق من جملة نجزم فيها بما لم نعلم.
وربما احتاج صاحب المصيبة إلى من يسمعه أكثر مما يحتاج
إلى كلام كثير. اجلس معه، وأعنه على شأن عجز عنه، وادع له
ولمن فقد. لا تجعل القصة ميّزاً تَحاسبه به على دموعه؛ دع
ما فيها من رحمة يزيده رحمتك به.

ويحتاج القارئ الصحيح المعافى إلى القصة أيضاً. إذا كنت
تُرجو الجنة لمن تحب، فلا تكن محبتك عوناً له على ما
يقربه منها. لا تكتفِ بأن تتمنى له الراحة في الدنيا، ثم
تسهّل عليه ما يفسد دينه كي يبقى راضياً عنك. النصيحة
الرفيعة، والقدوة الصادقة، والدعاء في الغيب، معانٍ من المحبة
لا تظهر كلها في الهدايا والكلمات.

قد لا تكون أمامك مصيبة اليوم، لكن أمامك وقت تستطيع أن
تستعمله في خير. من اليقين بالآخرة ألا تؤجل كل عمل
نافع إلى عمر لا تملك ضمانه. ابدأ بما تعرف وجوبه، وأدِّ ما

عليك من الحقوق، ثم اجعل لك من الإحسان ما تستطيع. لا يلزم أن يرى الناس أثرًا كبيدًا حتى يكون العمل نافعا؛ الله يعلم، ونحن نرجو ما عنده.

وحيث تصف الجنة لأهلك أو لأولادك، التزم بما جاء في النص، ولا تخترع تفاصيل لتجعل الخبر أمتع. ما أخبر الله به أعظم من خيالننا. علمهم أن الرجاء فيها يجتمع مع طاعته ورحمته، وأننا نسأله دخولها والنجاة من النار. الكلام عن الآخرة يزداد جمالا بصدقه، لا بما نضيقه إليه من غير علم.

لقد دلّ سؤال أم حارثة على الأمر الذي كانت تطلب أن تطمئن إليه. ولعلنا نسأل أن فسننا بعده: ما الموضع الذي تحتله الآخرة في همومنا اليوم؟ لا نريد أن ننسى الدنيا، ولكن ألا نجعلها نهاية النظر. نحب أهلنا، ونخاف فراقهم، ونسأل الله أن يجمعنا بهم في رحمته، ثم نعمل في أعمارنا القصيرة بما نرجو نفعه في الحياة التي لا تنتهي.

حين استدار المصلون

بَيَّنَا النَّاسَ بِقُبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنًا، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ.^{١٨}

المشهد قصير، لكنه يكشف معنى لا تكشفه كثرة الكلام وحدها. قوم يفعلون ما كانوا مأمورين به، ثم يبلغهم ما غيّر الحكم، فيستجيبون. ليس وفاءهم للأمر الأول سبباً لرفض الثاني؛ فالمقصود عبادة الله بما يأمُر، لا التعلق بالصورة التي اعتادت بها النفس. واستق بالهم الأول لم يكن خطأً قبل ورود الناسخ، كما أن استمرارهم عليه بعد العلم ليس هو الوفاء المطلوب.

استداروا، فصار الخبر الذي سمعوه عملاً يؤدونه. كان إيمانهم بصدق الرسول ﷺ متصلاً باستعدادهم لطاعته؛ يعرفون مَنْ يتبعون، ولمن يصلّون، فلا يمتنعهم اعتياد جهة أن يستقبلوا الجهة التي أمروا بها. وما أقرب هذا المعنى من كل مؤمن عرف حقاً ثم احتاج إلى عزيمة يعمل بها بما عرف.

١٨. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة، رقم ٤٠٣، من حديث ابن عمر؛ وفيه استقبل أهل قباء الكعبة في صلاة الصبح حين بلغهم الخبر.

لكن سرعة الاستجابة لا تعني تصديق كل ما يصلنا. جاءهم خبر عن أمر النبي ﷺ في سياق عرفوا فيه صدقه. أما الرسائل المجهولة والعناوين المثيرة، فليست لها هذا الحكم. لا تجمع بين شجاعة الصحابة في العمل وبين تهاوننا في التثبت، ثم تسميها شريئاً واحداً. نتحقق من النص ومعناه، فإذا اتضح لنا ما يلزمنا لم نجعل التحقق اسماً آخر لاتأجيل.

قال الله تعالى:

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا^{١٩}

للمؤمن اختيارات واسعة فيما أباح الله، لكنه لا يجعل هواه حكماً يرد به أمراً صحيحاً فهمه. العقل يتعلم الدليل ويفهمه، والقلب يقبل الحق ولا يستكبر عليه. وحين يظهر أثر ذلك في العمل تصير المعرفة هداية في الطريق. وقد تبدأ استجابتك برسالة قصيرة: تبين لك أن المعلومة التي أرسلتها إلى مجموعة العائلة غير صحيحة، فتعود إلى المجموعة بنفسها وتصححها. لا يكفي أن تعرف الخطأ في نفسك ويظل أثره عند الآخرين. ومن ردّ خبراً غير ثابت اليوم درب نفسه على أن يكون الحق أحب إليها من الحرج العابر.

١٩. الأحزاب: ٣٦. الاستشهاد بأصل قبول المؤمن أمر الله ورسوله. أما تنزيل الحكم على واقعة بعينها فيفتقر إلى معرفة ثبوت النص ومعناه وحال الواقعة.

ومن أصعب ما يعطل الرجوع خوفاً من رأي الناس. نقول: ماذا سيقل إذا غيرت رأيي؟ كيف أعتزف بعد كل هذا الكلام؟ لكن الحق لا يصح باطلاً لأن الاعتزاف به يخرجننا، كما أن الخطأ لا يصير صواباً لأننا دافعنا عنه زمناً. إذا تبين لك الحجة، فاجعل رضا الله أعظم من الحاجة إلى حفظ صورة لا تخطئ في أعين غيورك.

والرجوع لا يحتاج دأماً إلى إعلان. بعض الحقوق يمكن أن تردّها بهدوء، وبعض الأخبار يلزم تصحيحها عند من أبلغتهم بها، وبعض الأخطاء تحتاج إلى اعتذار. المقصود أن يصلح ما أفسدته بقدر استطاعتك، لا أن تصنع من التصحيح مناسبة جديدة للحديث عن نفسك. قد يكون العمل الذي لا يصفق له أحد أصدق عندك من بيان طويل عن غيورك. ولا يلزم من هذه القصة أن تستعجل إصدار حكم في مسألة لم تفهمها. هناك فرق بين العناد بعد البيان، وبين التوقف حتى تعرف. من الأمانة أن تقول: لم يتضح لي الدليل، وأن تسأل من يعلم. لكن راقب نفسك برفق: هل أطلب مزيداً من الفهم حقاً، أم أكرر الأسئلة لأن الجواب الصحيح يخالف ما أحب؟ لا يجيب عن هذا السؤال إنسان آخر نيابةً عنك.

ويزداد اليقين حين يتكرر هذا الصدق في المواطن الصغيرة. لا تتخيل أن بناء القلب من فصل عن طريقة تعاملك مع خطأ عادي. كلمة تعتذر عنها، وأمانة تؤديها، ونصيحة تقبلها،

أعمال تربيّ فيك أن الحق أحب إليك من الان تصار للنفس.
وإذا جاء موقف أشد، وجدت في حياتك السابقة تدريباً على
الرجوع، لا مجرد معرفة نظرية بجماله.

وقد يكون لك أثر في غيرك حين يراك ترجع من غير مرارة
ولا اتهام للناس. يتعلم ولدك أن الاعتراف لا يهدم قدر
الإنسان، ويتعلم زميلك أن النقاش لا يجلب أن ينتهى
بخسومة. لا تجعل هذا الأثر مقصودك الذي تعمل لأجله بدل
رضا الله، لكن احمده إن جعل صدقك سبباً لخيري تعلمه غيرك.
استدار أهل قباء لأن الأمر الذي بلغهم كان أحب إليهم من الجهة
التي ألفوها. ونحن لا ننتظرت غييراً قبلة في حياتنا،
لكننا نحتاج إلى قلب لا يمنعه الاعتياذ من الطاعة. فإذا علمت
ما يرضي الله، فاسأله القوة عليه، ثم ابدأ. معرفة الطريق
نعمة، وأداؤها لا يكتمل بكثرة وصفها، بل بخطوة صادقة
فيها.

الباب الثاني: حين يشهد الأمر

إِن مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ

قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي إِنَّكَ مَتَّبِعُونَ ۖ ﴿١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۖ ﴿٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايَ طُونَ ۖ ﴿٤﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ۖ ﴿٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿٦﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۖ ﴿٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴿٨﴾ فَأَتَتْهُمْ مُّشْرِقِينَ ۖ ﴿٩﴾ فَلَمَّا تَرَأَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّ لِمُدْرِكُونَ ۖ ﴿١٠﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۖ ﴿١١﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ ﴿١٢﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ۖ ﴿١٣﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿١٤﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ۖ ﴿١٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ ﴿١٧﴾﴾^{٢٠}

كان الخطر قريباً، لكن علم موسى بربّه وأمره لم ينجح في الانتيجة التي خافها أصحابه. أمره الله بالسير، ثم هداه إلى الفعل الذي يؤديه. واثق بربه، ممتثل لأمره؛ لا غافل عن الخطر ولا مستغنى عن الهداية.^{٢٠}

٢٠. الشعراء: ٥٢-٦٨. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الشعراء: ٦٢. النص القرآني هو أصل المshed.

غير أن الموقف يبدأ قبل ان شرقاق البحر. لو حصرنا اليقين في الفرح بعد النجاة، لفاتنا موضعه الأشد أثراً: قول موسى حين كان أصحابه يرون الإدراك قريباً. كان يعلم ربّه، ويصدق أمره، ويثق به. ثم فعل ما أمر به. اجتمع في المشهد قول القلب واللسان وعمل الجوارح؛ لا أمنية عاطلة، ولا حركة تستغني عن هداية الله.

وقد نقرأ القصة فنبحث لأنفسنا عن بحرين شرق، مع أن ما يلزمنا اليوم قد يكون أمراً أبسط: صدقاً في أزمة، أو صبراً على طاعة، أو رجوعاً إلى صاحب حق. المعجزة خاصة بنبي الله في موقفه، وليست طريقة نطالب أن تتكرر بأعيانها في حياتنا. الذي يبقى لنا هو معرفة قدرة الله، وصدق خبره، ولزوم أمره، وألا نحكم على رحمته بقدر ما نعرف نحن من أسباب.

هناك فرق بين أن تقول: لا أعرف مخرجاً، وأن تقول: لا مخرج عند الله. الأولى وصف لعلمك، والثانية دعوى تتجاوز ما تملك. قد تضيق الأسباب التي تراها، ولا تكون قد أحطت بما يستطيع غيرك أن يعينك به، فضلاً عن علم الله وتدبيره. لذلك نستعين به، ونبحث، ونستشير، ولا نجعل جهلنا آخر الطريق.

لكن الرجاء الصحيح لا يبيح لنا أن نعيّن نتيجةً لا دليل عليها. من ابتلي بمرض لا نعهده باسم اليقين بشفاء في يوم نحدده، ومن فقد عزيزاً لا نخبره أنه سيجد العوض

٢٠. الشعراء: ٥٢-٦٨. ويظهر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الشعراء: ٦٢. النص القرآني هو أصل المشهد.

بالصورة التي نتخيلها. نسأل الله الفرج والعافية، ونوقن
بقدرته ورحمته وعدله، ونجهل ما اختص بعلمه من
تفاصيل أقدارنا. بهذا يبقى رجائنا متعلقاً بالله، لا
بشرط وضعناه نحن ثم سميناه وعده.

ولعل هذه الدقة نفسها أرفق بالقلب. حين تتعلق بالله لا
يلزمك أن تدافع عن توقع فشل، أو أن تفسر لكل الناس
سبب تأخر ما تمنيت. تقول: دعوت ربّي وما زلت أرجوه،
وأفعل ما أقدر عليه. أعلم أنه يسمعني، ولا أعلم جميع ما
سيأتي. هذا صدق يريحك من ادعاء علم لا تملكه، ويبقي لك
باب الدعاء والعمل مفتوحاً.

وفي قول أصحاب موسى ما يذكّرنا بأثر الخوف في الكلام. قد
يبلغ الإنسان من الضيق أن يصف أسوأ الاحتمالات كأنه قد
وقع، ثم يبنّي عليه قراراته كلها. الرفق به ليس في
السخريّة من خوفه، بل في مساعدته على رؤية ما غاب عنه.
اسأله: ما الذي نعلمه حقاً؟ وما الذي نتوقعه؟ وما الخطوة النافعة
الآن؟ قد يكون فصل الحقيقة عن التوقع بداية قرار أحسن.

ولا نحكم من جملة قائلها أصحاب موسى على سرائرهم جميعاً، لكن
نتعلم من جواب نبيهم كيف يعيد المؤمن نظره إلى ربّه.
ليست الشدة وقتاً صالحاً لي جرب كل واحد قسوته على الآخر.
كلمة صادقة تعين على الثبات، ودعاء يجمع القلوب، وعمل
منظم يؤدي ما يمكن أدائه، أنفع من تبادل اللوم في اللحظة
التي يحتاج الناس فيها إلى التعاون.

وربما كانت حياتك مستقرة حين تقرأ هذا الفصل. لا تؤجل معرفة ربك إلى يوم الخوف. تعرّف إلى معاني أسمائه في الرخاء، وتعلّم ما أخبر به عن قدرته ورحمته، واعتد أن ترجع إليه في حاجاتك الصغيرة. الذي لا يذكر الله إلا حين تضيق به الأسباب يحرم نفسه خيراً كثيراً في أيام السعة. العبودية حياة، وليست إجراءً نلجأ إليه عند انقطاع الوسائل. ثبات موسى وامثاله يردّنا إلى سؤال قريب: ما الحق الذي يلزمنا الآن، ولو لم أعرف كيف ينتهي الطريق؟ نسأل الله أن يهدينا إليه في أشدّ ساعاتنا، وأن يعيننا على العمل به، وألاّ يجعل خوفنا يحملنا على معصيته أو اليأس من رحمته.

أُمُّ تَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرَّةِ

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النَّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتَعْفِي أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ، وَبَابُ نَهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ أَبِي تٍ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَدَّةِ يَوْمٍ إِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جَرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مِنْ طَلْقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ إِذَا لَا يُضِيْعُنَا.

ثُمَّ رَجَعَتْ، فَإِنْ طَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ أَبِي تٍ، ثُمَّ دَعَا بِهِؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} حَتَّى بَلَغَ {يَشْكُرُونَ}.

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ - فَإِنْ طَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا،

فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَّ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنْ، الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَّ رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعَى الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَّ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «فَذَلِكَ سَعَى النَّاسِ بَيْنَهُمَا» - . فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَه. تَرِيدَنَ فَسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيُّضًا، فَقَالَتْ قَدْ أَسَمَّعْتُ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ.

فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ - أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهَوَى فُورٌ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «يَرْحِمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» - . قَالَ فَشَرَبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ لَا تَخَافُوا الضَّرِيْعَةَ، فَإِنَّهَا هُنَا بَيْتُ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ، وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ.

وَكَانَ الْبَيْتُ مَرَّتَ فَبَعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ، حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ - أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ - مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقٍ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِفًا عَائِفًا. فَقَالُوا إِنْ هَذَا الطَّائِفُ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهِذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَارْجَعُوا

فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ
فَقَالُوا أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ فَقَالَتْ نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ
لَكُمْ فِي الْمَاءِ. قَالُوا نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ،
وَهِيَ تَحِبُّ الْإِنْسَ» فَنَزَلُوا وَأُرْسِلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ
حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبِيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَرَبَ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ
الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَرَبَ، فَلَمَّا أَدْرَكَ
زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ، بَعْدَ
مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكِتَهُ، فَلَمَّ يَجِدُ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ
امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عِيَشٍ هُمْ
وَهَيئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِبَشَرٍ، نَحْنُ فِي ضَرْقٍ وَشَرِدَةٍ.
فَشَكَّتْ إِلَيْهِ. قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيهِ السَّلَامَ،
وَقُولِي لَهُ يَغِيْرُ عَتَبَةَ بِأَبِيهِ. فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، كَانَهُ أَنْسَ
شَرِيئًا، فَقَالَ هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ، جَاءَنَا شَرِيخٌ كَذَا
وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عِيَشُنَا
فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ فِي جَهْدٍ وَشَرِدَةٍ.

قَالَ فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ قَالَتْ نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ
السَّلَامَ، وَيَقُولُ غِيْرُ عَتَبَةَ بِأَبِيكَ. قَالَ ذَاكَ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي
أَنْ أَفَارِقَكَ الْحَقِي بِأَهْلِكَ. فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى،
فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمَّ
يَجِدُهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ. فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي
لَنَا. قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عِيَشِهِمْ، وَهَيئَتِهِمْ. فَقَالَتْ
نَحْنُ بِبَخِيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ مَا طَعَامُكُمْ قَالَتْ

اللَّحْمُ. قَالَ فَمَا شَرَّابُكُمْ قَالَتِ الْمَاءُ. فَقَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي
اللَّحْمِ وَالْمَاءِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ
لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ فَهَمَّا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَغْيٍ مَكَّةَ إِلَّا
لَمْ يُوَافِقَاهُ.

قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِّيهِ يَثْبُتُ
عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ
نَعَمْ أَتَانَا شَرِيخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتَ عَلَيَّهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ
فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ.
قَالَ فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ،
وَيَأْمُرُكَ أَنْ تَثْبُتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ
الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ. ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ
بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ
زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ
بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ فَاصْنَعِ
مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ وَتُعِينُنِي قَالَ وَأُعِينُكَ. قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ
أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا.

وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا
 الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ،
 وَابْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهِذَا الْحَجَرُ
 فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يَنْوِلُهُ
 الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ}. قَالَ فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهُمَا
 يَقُولَانِ {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.^{٢١}

في سعي أم إسماعيل يلتقي اليقين والرحمة والعمل. ثقتها
 بالله لم تجعلها تجلس عن طاب النجدة، ولا ألغت خوف الأم على
 ولدها. لم تجد أحداً عند الصعود الأول، فعادت إلى البحث؛ والجهد
 الذي لم تظهر نتيجته فوراً لم يكن عندها سبباً لترك ما
 تستطيع.

السعي لا يقطع الاعتماد على الله؛ تستطيع أن تعمل بقلب
 مفتقر إليه، وأن تعلم أن السبب الذي تبذله لا ينفذ
 استقلاً عنه. ترسل طاب العمل، وتتعلم ما ينبغي نصك،
 وتستشير من يعرف الطريق، ولا تجعل نجاح خطوة أو
 تعثرها حكماً على قربك من ربك.^{٢٢}

٢١. صحيح البخاري، كتاب الأحاديث الأنبياء، باب «يزفون: النسلان في المشي»، رقم ٣٣٦٤؛ عن ابن عباس. «المنطق»: ما يشد في الوسط؛ «لتعفي»: لتخفي؛ «غوات»: إغاثة؛ «طائرًا عائفاً»: يدور على الماء؛ «جرياً»: رسولاً. وما ورد في شأن زوجة إسماعيل واقعة بعينها، لا قاعدة للإزام الابن بطلاق زوجته لمجرد شكوى المعيشة.

٢٢. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع والأربعين؛ في حقيقة التوكل والأخذ بالأسباب، واستشهاد به خروج الطير في طلب الرزق.

وقد يكون السبب الذي تقدر عليه أصغر من أن يلفت أحدًا:
اتصالًا تسأل فيه عن خدمة يحتاجها كبير في بيتك، أو
ترتبًا يعين طالبًا على مواصلة دراسته، أو اعتذارًا تبدأ
به إصلاح قطيعة. لا تحتقر هذا الجهد لأنك لا ترى آخره. افعل
الممكن المشروع، ثم تعلم من أثره وعدّل ما يحتاج إلى
تعديل.

وفي القصة أمر لنبيّ، فلا نجعلها إنزًا لنا أن نترك من تلزمنا
رعايتهم في خطر. الثقة بالله تعيننا على أداء الأمانة، ولا
تسقطها عنا.

ونحتاج إلى هذا الفهم داخل بيوتنا. من يطلب العلاج لولده لا
ينبغي أن يلام كأن محبته سبب ضعف يقينه. ومن يقلق
على أهله يحتاج إلى رفق وتوجيه، لا إلى كلام ينكر عليه
طبيعة الرحمة. نستطيع أن نعلّمه الدعاء، وأن نعيّنه على الأخذ
بما ينفع، وأن نذكره بالله من غير أن نتهم قلبه لأن وجهه
يحمل أثر التعب.

والقصة تمضي من سعي أمّ لولدها إلى سعي الأب والابن في
بناء البيت، ومع العمل سؤال القبول. ليست الطمأنينة
انتظارًا صامتًا لكل ما نرجو؛ فيها بذل جهد، وفيها افتقار
إلى الله بعد بذله. فلا يشغلك عدّ ما صنعت عن سؤاله أن
ينفعك به ويقبله منك.

لعل نصيبك اليوم خطوة لا تحسنها في أول مرة. جرّبها على
بصيرة، واطلب العون إذا احتجت، ولا تجعل تعثرَكَ حكماً
بانقطاع الخير. نسأل الله قلباً يثق به، وعزيمة تؤدي
السبب، ورحمة لا تترك محتاجاً نستطيع أن نعينه.

حزن يعقوب ورجاؤه

قال الله تعالى:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۚ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۖ﴾ ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ
كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ وَاللَّهُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. ٢٣

وفيما جرى بعد ذلك من أمر أخي يوسف قال سبحانه:

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا
أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ
فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ
اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۖ﴾ ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا
أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَافِظِينَ ۖ﴾ ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي
أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ﴾ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ
أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ
وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۖ﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ

تَفَتَّ أَتَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ
 ○ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ○ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا
 تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْكَافِرُونَ. ٢٤

في هذه الآيات حزن نبي صابر، ورجاؤه في ربّه، وشكواه
 إليه. لا نحذف الحزن من معنى الصبر، ولا نجعل الدمع حكماً على
 الإيمان. عرف يعقوب إلى من يوجّه شكواه، وبقي الرجاء
 حاضرًا مع طول الفقد.

ثم جاء الأمر بالبحث عن يوسف وأخيه. لم يكن الرجاء بديلاً
 عن السعي، ولا كان السعي ادعاءً لعلم الغيب؛ بل أداءً لما يقدر
 عليه، مع النهي عن اليأس من رحمة الله وفرجه. ٢٥

والشكوى إلى الله ليست مثل الشكوى منه. أن تقول: يا رب،
 ضاق صدري وأحتاج إلى عونك، غير أن تتهم حكمه أو تقطع
 الرجاء فيه. الدعاء يفتح للقلب باب الافتقار؛ لا يلزمك أن
 تخفي عن ربك ما يعلمه، ولا أن تستعمل كلمات لا تشبه
 حالك. تستطيع أن تسأله الصبر والفرج والهداية، وأن
 تعترف بضعفك من غير أن تستسلم له.

٢٤. يوسف: ٨٠-٨٧. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير يوسف: ٨٦؛ في رجاء الخير
 من الله.

٢٥. يوسف: ٨٧. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية؛ في طلب الخبر والرجاء وعدم
 اليأس من رحمة الله وفرجه.

ولا يمنع هذا أن تخبر إنساناً أميئاً بحاجتك ليعينك. لا
نجعل توجهه يعقوب إلى الله ذريعةً لمنع المبتلى من طلب
النصيحة أو المساندة. القصد أن يكون الاعتماد على الله، وألاً
يتحول الكلام إلى تسخط على قضاائه. أما طلب مساعدة
نافعة، وإخبار من يستطيع أن يؤدي خدمة أو يخفف مشقة،
فليس في القصة ما يوجب إغلاق بابها.

قد تكون في انتظار لا يعرف الناس ثقله عليك. يظنون
أنك نسيت، أو يطالبونك أن تنسى لأن الوقت طال. ليس
عليك أن تشرح لكل أحد ما في قلبك. لكن لا تجعل الانتظار
يأخذ منك جميع ما بقي في يدك من الخير. أدِّ حق أهلك، وارجع
إلى صلاتك، وخذ من الأسباب ما تستطيع. الرجاء لا يعني
تعليق الحياة كلها إلى أن يقع أمر واحد تتمناه.

وفي أمر يعقوب أبناءه بالتحسس مع نهيمهم عن اليأس
توازن مهم. ليس المطلوب أن يكرر الإنسان السبب نفسه بلا
علم إلى ما لا نهاية، ولكن ألا يقعد قبل أن يسأل ويتبين ما
يمكن فعله. ربما احتاج إلى معلومة، أو طريق آخر، أو عون من
صاحب خبرة. فإذا انتهت استطاعته في شيء، بقيت له
عبادته ودعاؤه، وبقيت أعمال خيرة أخرى لا ينبغي أن
تنقطع.

وعند مواصلة غيرك، لعل أنفع ما تستحضره من القصة أن
الإيمان لا يبيح لك استعجال دموع الناس. لا تقارن مصيبتك
بمصيبة غيره لتمنعه من الألم، ولا تتخذ رغبته في

الحديث دليلاً على ضعف الصبر. ذكره بالله برفق، واحفظ سره، وأعنه على ما ينفعه. بعض الكلام الصحيح يفسد أثره حين يقال بقسوة أو في وقت لا يهتم له صاحبه.

وقد يكون رجاؤك هادئاً لا يسمعه أحد: دعاء في خلوة، وعمل صغير في يوم ثقیل، وامتناع عن كلمة تسخط. لست محتاجاً إلى أن تعلن للناس أنك تعرف موعد الفرج. صدق الرجاء في حسن الالتجاء إلى الله، والعمل بما تستطيع، لا في قوة الإعلان عما سيحدث.

لا نستحي من ألم الفقد، ولا نرضى أن يقيودنا الألم إلى اليأس. نسأل الله رجاءً يبقی مع الصبر، وعملاً نافعاً يبقی مع الانتظار، وثقةً به لا تقوم على شرط نضعه لرحمته.

من قدر الله إلى قدر الله

عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرِغَ لَقِيَهُ أُمْرَاءُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوُبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ عُمَرُ ادْعُ إِلَيَّ الْمُهَاجِرِينَ الْأُولَى. فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوُبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفُوا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا نَرَى أَنْ تَقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوُبَاءِ. فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ ادْعُوا إِلَيَّ الْأَنْصَارَ. فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ ادْعُ إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشِيخَةٍ قَدِيرٍ شَيْءٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ.

فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، فَقَالُوا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، وَلَا تَقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوُبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ، إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأُصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَفِرَارًا مِنْ قَدْرِ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيَّرْتُ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ إِلَى قَدْرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُذُوتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ،

وَالْأُخْرَى جَذْبَةً، أَلَيْسَ إِنَّ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ،
وَأَنَّ رَعَيْتَ الْجَذْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ قَالَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
بُنْ عَوْفٍ، وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ إِنَّ عِنْدِي
فِي هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ
بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا
تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ».

قَالَ فَحَمِدَ اللَّهُ عَمْرُتُمْ أَنْ صَرَفَ.^{٢٦}

في هذا الموقف علمٌ نحتاجه كلما خلطنا إلى ما بالقدرة بترك
التفكير. عمر يعلم أن الأجل بيد الله، ومع ذلك يسأل
ويستشير ويختر. لم يقل لمن أخبره عن الوباء: إن ذكرك
للخطري نافي الثقة. ولم يرفض قول عبد الرحمن لأنه لم
يسمعه من قبل. كان طلاب الصواب أحب إليه من الحفاظ على
قرار اتخذ قبل ظهور العلم.

ومعنى القدر هنا ليس ذريعة إلى أن نرفع مسؤوليتنا عن
أفعالنا. نحن نؤمن أن شئاً لا يقع خارج علم الله ومشريئته،
ونؤمن كذلك أنه أمر ونهى، وأعطى الإنسان قدرةً يختار بها
في حدود استطاعته. فلا يصح أن يحتج امرؤ بالقدرة ليظلم
غيره، أو ليهمل حقاً كُلف أدائه. الاحتجاج الذي يسلب العمل معناه
ليس ما صنعه عمر في هذا الموقف.

٢٦. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم ٥٧٢٩؛ عن ابن عباس. «سرغ»: موضع
في طريق الشام؛ «مصبح على ظهر»: راجع راكباً؛ «عدوتان»: جان بان. حكم الطاعون يؤخذ في صورته
المبينة في الحديث؛ وتفاصيل غيظه من الأوبئة يرجع فيها إلى أهل الاختصاص وأهل العلم.

تأخذ بالأسباب المأذون بها، ولا تجعل النوائج ملكاً لك. قد تصلح خلاً في مركبة قبل السفر، أو تؤجل رحلة حتى يزول خطرهما، وأنت تعلم أن الحفظ بيد الله. التوكل يجمع افتقار القلب والعمل الممكن؛ فلا يطلب منك أن تهمل ما ينبغي فعله لتثبت به قوة إيمانك.^{٢٢}

وحيث نحتاج إلى معرفة ما ينبغي فعله في شأن صحتنا، نرجع إلى أهل الاختصاص، ونسأل أهل العلم عما يشركل من أحكامه. الاستفادة من خبرتهم لا تعني جبناً في الدين، والسؤال عن الخطر لا ينافي الثقة بالله. المسؤول عن أسرة أو جماعة لا يملك أن يجعل سلامتهم ساحة لإثبات شجاعته. قد يكون الرجوع في موقف هو الأمانة، كما قد يكون المضي في موقف آخر هو الواجب؛ والعلم هو الذي يبين الفرق.

وفي القصة أدب المشورة. سأل عمر أكثر من طائفة، وسمع اختلافهم، ولم يحل قدره بينه وبين أن يتعلم. بعضنا يطلب المشورة وفي نفسه أنه لا يقبل إلا من يوافق. فإذا خالفه الناصح، اتهمه بالتشاؤم أو ضعف اليقين. لكن اليقين بالله لا يجعل رأينا معصوماً، ولا يحول التجربة المحدودة إلى علم بكل ما سيقع.

وتزداد الأمانة حين يكون معك من يتأثر بقرارك. قد تنفق مالك في مخاطرة تعرفها، لكن لا يحق لك أن تخفي حقيقتها عن أئمتك على ماله. وقد تختار ما يناسب ظروفك، لكن لا

٢٢. ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع والأربعين؛ في حقيقة التوكل والأخذ بالأسباب، واستشهاد به بخروج الطير في طلب الرزق.

تفرضه على أهلك قبل أن تفهم ما يوقعه عليهم. من الإيمان بالحساب أن تتذكر أنك لا تُسأل عن حسن نيّتك فقط، بل عن صدقك وعدلك وما بذلته من جهد لمعرفة الصواب.

والرجوع بعد البيان لا ينتقص من قيمة المرء. لم يمنع عمر أن يكون قد خرج في سفر أن يصرّف حين ترجع له ذلك. نحن أحياناً نستمر في أمر خطأ لأننا بذلنا فيه وقتاً أو أعلنّاه للناس. لكن ما مضى لا يصلحه الإصرار. يمكنك أن تتوقف ما تبين ضرره، وتتعلم مما وقع، وتبدأ من جديد. لا تحتاج إلى ادعاء أن كل اختيارات سابق كان صحيحاً حتى تحفظ احترامك لنفسك.

«نفر من قدر الله إلى قدر الله» ليست عبارة تعطل الحذر، بل تضعه في مكانه الصحيح. تسعى وأنت عبد، وتستشير وأنت محتاج، وتتعلم وأنت تعلم أن فوق علمك علماً. فإذا جاءك الحق من غيرك، فاقبله، واحمد الله كما حمده عمر حين بلغه الحديث. لعل يقيناً نافعاً يبدأ هنا: ألا نخاصم ما ينفعننا بحجة الثقة بربنا.

الوعد والوقت الذي نختاره له

عن المسور بن مخرمة ومروان، يصدّق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالوا:

خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين فوالله ما شرع بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فإن طلق يركض نذيرا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليها من هاهنا بركت به راحته، فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمهما من كنانته،

ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينا هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح

رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياها الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب، وأضررت بهم، فإن شاءوا مادتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر: فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفن الله أمره»، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول،

قال: فإن طلق حتى أتى قريشا، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفاهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: أستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتمكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشداً، اقبلوها ودعوني آتية، قالوا: آتته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: نحوا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد رأيت إن استأصلت أمر قومك،

هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى،
 فإنني والله لأرى وجوها، وإنني لأرى أوشابا من الناس خليقا أن
 يفرّوا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق: امصص ببظر
 اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر،
 قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك
 بها لأجبتك، قال: وجعل يكلّم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ
 بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ،
 ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحي
 النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخري يدك عن
 لحي رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا:
 المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر، ألسنت أسعى في غدرتك؟
 وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم، وأخذ
 أموالهم،

ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما
 المال فلست منه في شيء، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب
 النبي ﷺ بعينيّه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ
 نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده،
 وإذا أمرهم ابعدوا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على
 وضوءه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه
 النظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم،
 والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى،
 والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم
 أصحاب محمد ﷺ محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في

كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابْتَدَرُوا
أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم
خفضوا أصواتهم عنده،

وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة
رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتية،
فقالوا: آتية، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال
رسول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن،
فابعدوها له فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما
رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن
البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت
وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم
يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتية، فقالوا:
آتية، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: هذا مكرز، وهو رجل
فاجر، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء
سهيل بن عمرو، قال معمر: فأخبرني أيوب، عن عكرمة أنه
لما جاء سهيل بن عمرو،

قال النبي ﷺ: لقد سهل لكم من أمركم قال معمر: قال الزهري
في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب
بيني وبينكم كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال
النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما الرحمن،
فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت
تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتب بها إلا بسم الله الرحمن
الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم ثم قال: هذا ما

قاضي عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: والله إنني لرسول الله، وإن كذبتُموني،

اكتب محمد بن عبد الله - قال الزهري: وذلك لقوله: لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها - فقال له النبي ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردده إلي، فقال النبي ﷺ: إننا لم نقض الكتاب بعد،

قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا، قال النبي ﷺ: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابا شديدا في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيته نبي الله ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله حقا، قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا

على الباطل، قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري، قلت: أوليس كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتكم أننا نأتيه العام، قال: قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به،

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به، - قال الزهري: قال عمر -: فعملت لذلك أعمالا، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس،

فقاالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك، أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فانحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقاتل بعضهم غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: {يا

أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن {
 [[المتحنة: 10]] حتى يبلغ بعصم الكوافر فطلق عمر
 يومئذ امرأتين، كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما
 معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع
 النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش
 وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت
 لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجاه به حتى بلغا ذا الحليفة،
 فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين:
 والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيذا، فاستله الآخر،
 فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت،
 فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه
 حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد
 يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا فلما
 انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإنني لمقتول،
 فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله
 نذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجانني الله منهم، قال النبي
 ﷺ: ويل أمه مسعر حرب، لو كان له أحد فلما سمع ذلك عرف أنه
 سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وين فلات
 منهم أبو جندل بن سهيل، فلاحق بأبي بصير،
 فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي
 بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون
 ببعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم
 وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تنأشده بالله

والرحم، لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم} [[الفتح: 24]] حتى بلغ {الحمية حمية الجاهلية} [[الفتح: 26]] وكانت حميتهم أنهم لم يقرروا أنه نبي الله، ولم يقرروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين النبي ﷺ^{٢٧}

وفي حياتنا فرق بين وعد ثابت، وبين رجاء مشروع، وبين توقع شخصي. وعد الله حق؛ نؤمن به على ما ورد. ونرجو رزقاً أو شفاءً أو صلاحاً لأهلنا، ونسأله ذلك. وقد نتوقع حصوله في زمن نراه قريباً. الخلل أن نمحو الحدود بين هذه الأمور، فنقول إن الله وعدنا بتلك النتيجة في ذلك التاريخ، مع أنه لم يرد في الوحي ما يثبت هذا التحديد.

قد تترك باباً محرماً وأنت ترجو بدئلاً، ثم تطول مدة البحث. لا تجعل انتظار البديل يردك إلى ما عرفت تحريمه. راجع مهارتك وطريقة سعيك، واطلب عوناً مباحاً، وأبق رجاءك في الله واسعاً. لا ينجس القلب الصدق خطأ لأن طريقه شقّ عليك.

وليست المقصود أن نبرر إخفاقات البشر بنسبتها إلى حكمة لا نعلمها. قد يخطئ مسؤول أو يتخذ إنسان قراراً غير سليم، فلا نقول لمن يسأله: اقبل كما قبل الصحابة في الحديبية.

٢٧. صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتاب الشروط، رقما ٢٧٣١-٢٧٣٢؛ عن المسور بن مخرمة ومروان. «قترة الجيوش»: غباره؛ «ثمد»: ماء قلبي؛ «عيبه نصح»: موضع أمانة؛ «أوشاباً»: أخلاطاً؛ «يرسف»: يمشي مقيّداً؛ «سيف البحر»: ساحله. الحوادث في سياق عهد بعينيه، فلا تعمم منها أحكام على غير صورتها.

النبي ﷺ رسول يتبع الوحي، وغيره ليس له هذه المنزلة.
نأخذ من الموقف الثقة بالوحي وأدب فهمه، ولا نجعله حصانةً
تمنع مساءلة إنسان عن ظلمه أو تقصيره.

وفي مشورة أم سلمة فعل واضح أعان على تجاوز ثقل
الموقف. قد تنفع من حولك حين تبدأ أنت بما يحتاجون
أن يفعلوه: تصلح خطأك أمامهم، أو تفني بوعدهم، أو
تقوم إلى واجب حان وقته. يستند الكلام حينئذ إلى عمل
يرونه.

وأنت تستطيع أن تفعل شريئاً قريئاً حين يخلو الواقع
عن انتظارك. أسأل نفسك: ما الذي وعد الله به فعلاً؟ وما الذي
كنت أرجوه أنا؟ وما الواجب الذي ما زال في يدي الآن؟ هذه
الأسئلة لا تزيل الحزن فوراً، لكنها تمنع الحزن أن يبنى حكماً
خاطئاً على خبر الله. وتعيد لك جزءاً من العمل الذي تضيع
طاقته أحياناً في اعتراض لا يعرف على ماذا يعترض.

وإذا كنت تواسي غيرك، فلا تنسب إلى الوحي مواعيد جديدة.
قل له إن الله رحيم وإن الدعاء باب خير، وشاركه البحث عما
ينفع. لا تقل: سيحدث كذا حتماً هذا الشهر، ثم تتركه إذا لم
يحدث في حيرة أشد. الصدق في المواساة ليس جفافاً؛ هو
رحمة تحمي القلب من التعلق بما لم يثبت.

لم يجعل الرسول ﷺ الوعد مقيداً بالعام الذي ان تظره عمر. هنا
سؤال نحمله معنا: هل خاب خبر ثابت، أم خاب توقيت
اخترناه نحن؟ نحفظ للوحي صدقه، ونتواضع في
توقعاتنا، ونسأل الله الخير حيث كان، ثم نؤدي حق اليوم
الذي بين أيدينا.

دعاء أم سلمة

قالت أم سلمة رضي الله عنها:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تَصِيْبُهُ مُصِيبَةٌ فِي قَوْلٍ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا». قَالَتْ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ فَقُلْتُ إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ. فَقَالَ «أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَغْنِيَهَا عَنْهَا وَادْعُو اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ بِبَالِغِي رَةٍ».^{٢٨}

كانت أم سلمة تعرف فضل زوجها، ولم تجد في علمها المحدود صورة لمن يكون خيرًا منه. ومع ذلك دعت بما تعلمته. لم تنتظر أن ترى المستقبل حتى تسأل الله الخير؛ جعلت رجاءها فيه أوسع من قدرتها على تصوره.

وما أكثر ما نضيق الخير بقدر ما عرفناه. نأف شخصًا أو موضوعًا أو عملاً، ثم لا نستطيع أن نتخيل حياةً حسنة من غيظه. المحبة هنا لا تلام في نفسها، لكن تصورنا

٢٨. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم ٩١٨؛ رواية إسماعيل بن جعفر عن سعد بن سعيد، عن عمر بن كثير، عن ابن سفيان، عن أم سلمة.

للمستقبل يبقَى محدودًا. ليس عجزنا عن تخيل وجه آخر دليلاً على أن رحمة الله قد انتهت. قد يكون القلب محتاجاً إلى وقت وصبر وعون، وهو لا يعرف بعد ما ييسره الله له.

لكن الوفاء للنص يقتضي أن نترك معنى الخير لله، وألاً نحوله إلى وعد بتكرار زواج أم سلمة لكل أرملة، أو تعويض كل وظيفة بمثلها في مدة نختارها. نصدق الحديث كما جاء، ونرجو الخير الذي وعد به، ولا نحدد من عندنا نوعه وتوقيته. ما وقع لأُم سلمة خبر عن فضل الله عليها، وليس جدولاً واحداً لحياة جميع من يقول الدعاء.

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

٢٩

يتذكر القلب أنه عبد، وأن من يحبهم عبده لله كذلك، وأن الحياة التي بين أيدينا ليست ملكاً دائماً نمنع عنه الموت. هذا التذكر لا ينتقص من محبتنا؛ نحب، ونرعى، ونحزن عند الفقد، ونرجع في ألمنا إلى ربنا، ونسأله الأجر والخير. وفي قولنا: «اللهم أجرني» اعتراف بأن المصيبة موضع طلب أجر، لا مناسبة للحكم على الله أو اليأس منه. قد نعجز عن الكلام الطويل، فتسعفنا الكلمات القليلة. وليس لازماً أن نجد عند

٢٩. البقرة: ١٥٦. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية.

قولها راحةً تامةً في الحال حتى تكون نافعة. ندعو ونحن
ضعفاء، ونرجو قبول الدعاء، ونستعين بالله على ما يتكرر
من الحزن بعد ذلك.

إذا واسيت مبتلىً فذكره بالدعاء برفق، وأعنه على ما
يحتاجه. قد تثقل عليه في تلك الساعة وجبة يعدها أو
معاملة ينهيها، فتكون خدمتك أبلغ في المواساة من انتظار
كلمات الطمأنينة منه. لا تعرف ما يقول في خلوته، ولا يلزمه
أن يشرح لك طريقتة في الصبر.

وتعلمنا أم سلمة أن المحبة الصادقة لمن مضى لا تمنع قبول
خيريأتي بعده. لا يلزم أن تنقص مكانة أبي سلمة حتى
تفرح بما أخلف الله عليها. وفي حياتنا قد نظلم أنفسنا
حين نظن أن الوفاء لافقد يفتضي إغلاق كل باب بعده.
يحفظ الإنسان ذكر من أحب، ويدعو له، ويؤدي ما عليه من
الحقوق، ثم يستقبل ما أباح الله له من الحياة من غير شعور
بأنه خان محبته.

وقد تكون مصيبتك غير فقد إنسان: خسارة، أو تعثرًا، أو
أذى. لا تنقل تفاصيل القصة إلى نفسك على أنها نسخة
مطابقة، لكن تعلم الدعاء ومعناه. رجاءك للأجر لا يمنحك أن
تصلح خطأ تسبب في الضرر، وطلابك الخلف لا يعفي من ردّ
حقوق للناس. القلب ياتجئ، والإنسان يؤدي ما يستطيع، فلا
تصبح المواساة بدىً لا عن المسؤولية.

قالت أم سلمة الدعاء حين لم تكن ترى جواب سؤالها: من خير من أبي سلمة؟ ونحن قد ندعو وفي نفوسنا أسئلة لم نجد لها جواباً. لا نحتاج إلى أن نعرف المستقبل حتى نسأل من يعلمه. نسأله أن يأجرنا، وأن يخلف علينا خيرًا، وأن يحفظ ديننا في الحزن، وألا يجعل ما فقدناه يحجب عنا رحمة التي ما زلنا نرجوها.

فإن الله حي لا يموت

روت عائشة رضي الله عنها:

أَنَّ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ
بِالشَّنَجِ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمَّ يَكْلِمُ النَّاسَ حَتَّى
دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُغْشَى بِثَوْبٍ
حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى. ثُمَّ
قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا
الْمَوْتُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مَتَّهَا. قَالَ الزُّهْرِيُّ وَحَدَّثَنِي
أَبُو سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ، خَرَجَ وَعُمَرُ
يَكْلِمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ.
فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَّا بَعْدُ مَنْ
كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ،

قَالَ اللَّهُ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} إِلَى
قَوْلِهِ {الشَّاكِرِينَ} وَقَالَ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ
هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ
فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا. فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ

الْمُسَيَّبَ أَنَّ عُمَرَ قَالَ وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا
فَعَقَرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ
حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ.^{٣٠}

وقال الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ
قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ
فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.^{٣٠}

جمع أبو بكر المحبة إلى العلم: قبل وبكى، ثم تلا الآية وأعلن
الحقيقية. لم يكن إقباله على الحق جفاءً، ولم تجعل محبته
للنبي ﷺ قلبه ينكر ما أخبر به الله عن موت رسوله. كان
الوفاء أن يبقى الناس على عبادة الله واتباع ما جاء به
رسوله.

هذه من زلة نحتاج أن نفهمها بهدوء. حزننا على أهل الفضل
حق إنساني، ومحبتنا لهم مما يحملنا على الانتفاع بعلمهم
والدعاء لهم. لكن الإيمان بالله لا يقيم على بقاء بشر. يموت

٣٠. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، الأحاديث ٤٤٥٢-٤٤٥٤؛ عن عائشة
وابن عباس وعمر، بسياقها المتتابع في الأصل. «فتيهم»: قصد؛ «حبرة»: ثوب مخطط؛
«فَعَقَرْتُ»: دهشت وضعفت رجلاي. آل عمران: ١٤٤.

٣٠. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، الأحاديث ٤٤٥٢-٤٤٥٤؛ عن عائشة
وابن عباس وعمر، بسياقها المتتابع في الأصل. «فتيهم»: قصد؛ «حبرة»: ثوب مخطط؛
«فَعَقَرْتُ»: دهشت وضعفت رجلاي. آل عمران: ١٤٤.

الوالد الذي علّم، والشريخ الذي نصح، والصديق الذي أعان، ويبقى الله حيًّا لا يموت. وما كان من الحق لا يبطل لأن من دلّنا عليه قد غاب.

وقال سبحانه:

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ
بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا}.^{٣١}

كل من نستعين به من الخلق محدود القوة والعمر، قد يعجز وقد يغيّب، أما ربنا فله الحياة الكاملة. نشكر الناس على خيرهم ونحبهم له، ونعرف أنهم لا يملكون كل ما نرجوه. يبقى القلب مفتقراً إلى الله حين يحضرون وحين يغيّبون.

وقد يدخل الخلط من باب دقيّق. ينتفع إنسان بداعية أو معلّم، فيصير كل ما يقول حقاً في نظره، ثم إذا رأى منه خطأ اضطرب كأن أصل الدين قد تغيّر. الخير الذي انتفع به لا يبيح الغلو في صاحبه، والخطأ الذي يظهر منه لا يبطل ما ثبت بدليّله. نتعلم الحق، ونعرف قدر البشر، ونقبل التصحيح، فلا يرتفع شخص فوق المراجعة، ولا يصبح سقوطه سبباً لتترك عبادة الله.

وفي كلام أبي بكر درس آخر: قد يعرف الإنسان آيةً ثم يغيّب عنه موضعها عند الحدث. ليس هذا سبباً للاحتقار، وإنما سبب لحاجتنا إلى بعضنا. يذكرك أخوك بما نسيت، وتذكره

بما تعلمت. العلم الذي حفظته في السعة قد يكون أعظم ما تقدمه للإنسان في الشدة، إذا قُلبت به رحمة وفي موضعه، لا رغبة في إظهار أنك أكثر ثباتاً منه.

ويحتاج من يتولى مواصلة الناس إلى علم وأدب. لا نحمل القلوب ما لم ينزل الله به سلطاناً، ولا نضع نهايةً للحنن بعبرة آمرة. نقول الحق، وندعو بالصبر، ونعين على ما يلزم. أبو بكر لم يحتاج أن ينكر محبته أو دموعه حتى يذكر الأمة. وكذلك يستطيع الإنسان أن يكون متألماً، ثم يؤدي واجباً عظيمًا، ويكون نفعه أصدق لأنه يعرف معنى ما يحمله الآخرون. من رحمة الله أن تكون لك علاقة به لا تنقطع بانقطاع رفقة معينة أو مكان معين. إن اعتدت الصلاة مع من يعينك فذلك خير، لكن تعلم أن تحفظها إذا سافرت وحدك. وإن كنت تقرأ القرآن مع مجلس، فليكن لك نصيب حين يغيب المجلس. لا نقصد الاستغناء عن الصحبة الصالحة، بل أن تؤدي الصحبة وظيفتها في تقربك من الله، لا أن تصبح هي وحدها ما يحفظ دينك.

والتدبر في أيام السعة زاد لأيام الشدة. اقرأ لتفهم، واسأل عما يشكل، وأبق للقرآن نصيباً من يومك. نرجو أن يثبتنا الله بما تعلمنا حين يشتد وقع الخبر، وأن ييسر لنا من ذكرنا إن غفلنا.

لا يزول ألم الفقد لأننا عرفنا هذه المعاني، لكن يثبت لنا ما لا يزيله الفقد. الله حي لا يموت، والقرآن هدى، والصلاة ما زالت واجبة، والرحمة بالناس ما زالت خيرًا. يستطيع الحزن أن

يرافق بعض أيامنًا، دون أن يأخذها كلها من عبادة الله. لا نملك أعمار من نحب، لكننا نملك بإذن الله أن نفي بما بقي علينا من حقوق.

قبل أبو بكر رسول الله ﷺ وبكى، ثم أعاد الناس إلى كتاب الله. في هذا الجمع جمال الإيمان الذي نطلبه: قلب يحب ولا يغلو، ويحزن ولا يكذب، ويضعف في استعين، ويعرف أن ربه باق وإن غاب كل من حوله. نسأل الله أن يرزقنا هذا الصدق، وأن يثبتنا بالقول الثابت، وأن يجعل محبتنا لأهل الخير عوناً على اتباع الحق الذي أحببناهم لأجله.

ما رآه ابن القيم في شريحه

قال ابن القيم:

وسمعت شريح الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستانني في صدري، إن رحمت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقت لي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى. والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: { فضررب بي نهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب } وعلم الله ما رأيت أحداً أطيّب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيّب الناس عيشاً، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلباً، وأسرههم نفساً، تلوح نضرة النعيم

على وجهه . وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون
وضاقت بنا الأرض أتيناها ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه
فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة وبقياً
وطمأنينة . فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقاءه ،
وفتح لهم أبوابها في دار العمل ،

فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبتها ما استفرغ قواهم
لطلبها والمسابقة إليها .^{٣٢}

والذي يلفت القلب في هذه الشهادة أن العلم لم يبق كلاماً
جميلاً عن الصبر. رآه ابن القيم في حياة صاحبه، ثم
انتفع به حين احتاج إليه. هناك فرق بين أن تسمع رجلاً
يشرح الثقة بالله، وبين أن تجد عنده ثباتاً وصدقاً في
حال تكشف حقيقته ما يقول. لا تعطي التجربة صاحبها
عصمة، لكنها قد تجعل لكلامه أثراً تعرفه من صدقه في العمل.
ومع ذلك، فمصدر الطمأنينة الذي يشير إليه الخبر ليس قوة
شخص مستقلة عن الله. كان ابن تيمية يدعو ربّه أن يعينه
على ذكره وشكره وعبادته. هذه حاجة العبد التي لا تزول
ببلوغه من العلم ما بلغ. والشريخ الناصح يرد الناس إلى الله،
ولا يطلب أن يبقوا متعلقين به كأن الخير لا يأتيهم إلا من
بابه.

٣٢. ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، بتحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، ص ٤٨، ضمن
الفائدة الرابعة والثلاثين. خبر تلميذ عن شيوخه، لا حديث نبوي؛ و«جنة الدنيا» هنا نعيم
الإيمان والذكر.

حين يرسخ علم العبد بربه وبصدق خبره، ي قوى اعتماده عليه. ويحتاج هذا العلم إلى تعلم وعمل، فلا نقيسه بارتفاع النبرة أو قوة التأثير في السامعين. وقد يمر المؤمن بالخوف فيستعين بربه؛ حاجته إلى التثبيت لا تخرجه من الإيمان.^{٣٣}

وما أخرجنا إلى صحبة تعين على هذا. قد يدخل الإنسان مجلساً فيخرج أشد سخطاً ويأساً، وقد يجالس من يذكره بما يعلم من الخير، ويعينه على عمل ممكن. ليست الصحبة النافعة وعداً بأن كل الأمور سهلة، وإن ما صدق ورحمة ونظر إلى ما يصلح. من يهون عليك الظلم لتستريح لحظة لا يعين يقيئك، ومن يقطع رجاءك باسم الصراحة لا يؤدي حق النصيحة كذلك.

ربما لم يكن في حياتك عالم تجالسه كما جالس ابن القيم شريكه، لكن أبواب الانتفاع لا تنحصر في صورة واحدة. تقرأ علماً موثوقاً، وتساءل من تعرف أمانته، وتصاب من يذكرك بالحق، وتبتعد عن مجلس تتعلم فيه احتقار الناس أو الجرأة على حقوقهم. العبرة بما يعينك على معرفة الله وطاعته، لا بشهرة من تجالسه أو كثرة من يحضر معه.

وفي البيت يستطيع أحدنا أن يكون عوناً بهذا المعنى. لا تحتاج إلى موعظة طويلة كلما خاف ولدك أو تعب شريك حياتك. قد يسمع منك اعترافاً صادقاً بأن الأمر صعب، ثم يرى أنك لا تكذب ولا تظلم، وأنت تطالب الحل وتدعو الله.

٣٣. ينظر ابن القيم، مدارج السالكين، من زلة اليقين، ٢/٣٧٥؛ في صلة اليقين بالثواب.

يتعلم من فعلك أن الثقة بالله لا تعني تجاهل المشكلة، بل أن نتعامل معها بصدق من غير أن نتركها تفسد ديننا وأخلاقنا.

ولا نقرأ خبر السجن لنهونَ ظلمًا يجب دفعه، أو لنطالب من كل مظلوم أن يشكر من آذاه. الذي نراه هو قدرة الإيمان، بفضل الله، على أن يحفظ للعبد خيرًا في قلبه رغم الأذى. ويبقى الظلم ظلمًا، ويظل دفعه بالحق والإعانة على رفعه من الخير. قوة المظلوم لا تعطي الظالم حقًا في ما صنع، ولا تجعل طالب الإنصاف نقصًا في التوكل.

وقد تجد في نفسك تقصيرًا حين تقرأ عن ثبات غيرك. ابدأ بما تقدر عليه، ولا تحول المقارنة إلى احتقار لنفسك: تعلم معنى تحتاجه، وأدِّ واجبًا تؤخره، واختتر رفقة تعينك. لا يلزم أن تبلغ في يوم ما بناه غيرك في عمر.

كان ابن القيم يصف ما رآه، ثم يدلنا خبره على سؤال يتعلق بحياتنا: إلى من نذهب حين يشترد خوفنا؟ وما الذي نسمعه؟ ومن الذي نعيّنه نحن إذا ضاقت لعل كلمة صادقة، أو علمًا نفهمه، أو صحبة لا تتركنا وحدنا، يكون مما يسره الله لعودة القلب إلى رجائه. ونرجو أن نصير بدورنا سبب خير، لأن الناس يرون فينا القوة، بل لأن الله يحب الصدق والرحمة والإحسان.

فإللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. واجعل علمنا
نافعًا لقلوبنا، ويقيّننا عوناً على العمل، وصحبتنا رحمةً
بمن حولنا. ولا تجعلنا ممن يّحسن وصف الطريق ثم يغفل
عن خطوته فيه.

الباب الثالث: أن تعرف من تؤمن به

وربطنا على قلوبها

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ
 طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَنَرِيذُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي
 الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ
 ۝ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ
 فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْنَا
 وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَآلَتْ قِطْعَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ
 عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝
 وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِئِذَا تَقَاتَلُوهُ عَسَىٰ أَنْ
 يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ
 أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۗ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ
 قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتِ لَأُخْتِيهِ قُصِيهِ ۖ
 فَابْصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ
 الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ
 لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
 تَحْزَنَ ۚ وَاتَّعَلَّمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ٣٤

بين الخوف الأول والفرح بالعودة وقائع تتتابع، لا تملك الأم أن تجمع أسبابها بيدها. لا تملك ما يقوله آل فرعون حين يجدون الطفل، ولا ما يقع في نفس امرأته، ولا امتناعه عن المراضع، ولا قبولهم عرض أخته. ومع ذلك فقد كان عليها عمل تؤديه: ترضع، وتمتثل، وتحفظ سرّها، وترسل من يتقصى الخبر. لم تكن قدرتها شاملة، ولم تكن معدومة. ومن الصدق أن يعرف الإنسان ما يقدر عليه، فلا يتركه، وما لا يقدر عليه، فلا يدعي السيطرة عليه.

الذي وعد أم موسى يعلم حيث استقر ولدها، ويعلم ما في قلبها، وقادر على ردّه. لم تكن الغيبة عن عينها غيبة عن علمه. رأت أول الوعد واقعاً برده إليها، والله قادر على تمام ما وعد به من إرساله. لم تكن معرفة تفاصيل الطريق شرطاً لصدق الوعد.^{٣٤}

قد يكون قريب لك بعيداً عنك، ولا تعرف جميع ما يليقاه. تتمنى أن تكون حاضراً في كل موضع، وأن تدفع عنه كل ألم، ثم تكتشف حدودك. تستطيع أن تتصل، وتستوثق، وتعين، وتطلب من أهل الخبرة ما ينفعه. وتستطيع قبل ذلك ومعه أن تدعو الله له. معرفتك بأن الله يعلم ما غاب عنك لا تلغي واجبك، لكنها تمنعك أن تتعامل مع غيابك كأنه انقطاع لكل رعاية وكل سبب خير.

٣٤. القصة: ٤-١٣. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآيتين ٧ و١٣؛ في الإلهام لأُم موسى وصدق الوعد برده وإرساله.

٣٤. القصة: ٤-١٣. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآيتين ٧ و١٣؛ في الإلهام لأُم موسى وصدق الوعد برده وإرساله.

ولا يجعل أحد خاطراً في نفسه بمنزلة هذا الأمر الذي قصه القرآن. لا نعرض طفلاً للخطر رجاء أن تتكرر معجزة، ولا نسمي قراراً متهوراً إلهاماً. نثق بالله ونحفظ ما حملنا من حقوق؛ فمن رعاية الأمانة أن نمنع خطراً نستطيع منعه.

وتأمل حاجة الأم إلى تثبيت القلب. قد يكون أكثر ما ينفعل في شدة تمر بها أن تقول: يا رب، ثبتني وأعني على الصواب. ربما كنت تظن أنك ستواجه الأمر بقوة كبيرة، فإذا وقع وجدت ضعفاً لم تتوقعه. لا تضاف إلى مصيبتك لوماً يقول إن احتياجك إلى العون عيب. القوة التي نرجوها فضل من الله، وليست شهادة نحملها ثم لا نعود بعدها إلى السؤال.

وقد تكون أنت من يعين قلباً خائفاً. ابحث عن فعل يشربه في نفعه تقصّي الأخت للخبر: معلومة صحيحة تأتي بها، أو مشوار تؤديه، أو أمر تتابعه بدل تكرار كلام لا يبدل شريئاً. لا تعد بما لا تملك، ولكن لا تكف أيضاً بأن تقول للمبتلى: توكل، ثم تتركه وحده مع واجبات لا يستطيع حملها. الكلمة الصالحة تزداد صدقاً حين تسندها خدمة مقدور عليها.

وفي حال الرخاء تعلّم أن ترى حدود علمك دون انزعاج دائم منها. لن تحيط بتفاصيل حياة من تحب، ولن تمنع عنه كل اختيارات خاطئ، ولن تعرف كل ما يأتي به الغد. يمكنك أن

تحسن التربيّة، وتصدق النصيحة، وتستودع الله ما
استودعك. ليس الاستيذاء لفظاً يعفي من الرعاية، وإنّما دعاء
يحبها ويضع القلب في موضع العبودية.

ربط الله على قلب أم موسى قبل أن ترى ولدها راجعاً. وهذا
موضع عظيم للرجاء: نسأله قوةً على الطاعة ونحن في انتظار
ما نرجوه، لا بعد زوال الشدة فقط. نحتاج إلى لسان لا يكذب
حين يخاف، ويد لا تظلم حين تضيق، وقلب لا يأس لأن
طريق الفرج لم يتضح له. فما أرحمنا بأنفسنا حين نطالب
منه هذا كله، ونؤذي ما في قدرتنا، ونترك ما استأثر بعلمه
إلى علمه وحكمته.

حسبنا الله ونعم الوكيل

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿١﴾
 إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا
 عَاكِفُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٣﴾ قَالَ لَقَدْ
 كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا
 بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذِكْمٍ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦﴾ وَتَاللَّهِ
 لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا
 كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا
 إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ
 إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠﴾ قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
 يَشْهَدُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢﴾
 قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿١٣﴾
 فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنْ كُنْمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ
 نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ
 أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْنَا يَا نَارُ
 كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢١﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا
 فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ ﴿٢٢﴾^{٣٥}

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ
 أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا {إِنَّ النَّاسَ قَدْ
 جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
 الْوَكِيلُ} ^{٣٥}

لم تكن النار قوةً مستقلة عن أمر الله. نتعلم من نجاة إبراهيم
 قدرته سبحانه، ونتعلم من اعتماد إبراهيم عليه إلى من
 يرجع القلوب حين يشهد الخطر. لا نختار لأنفسنا البلاء،
 ولكن نسأل الله الثبات إذا نزل بنا ما نكره.

ومن لفظ «حسبنا» نتعلم أن القلوب يرجو كفاية الله، ومن
 «الوكيل» نتعلم تفويض الأمر إليه والاعتماد عليه. قد يقول
 الإنسان هذه الكلمة وهو يتخذ سبباً مباحاً لدفع الظلم، أو وهو

٣٥. الأنبياء: ٥١-٧٠؛ وآل عمران: ١٧٣-١٧٥. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب {إن الناس قد جمعوا
 لكم}- الآية، رقم ٤٥٦٣؛ عن ابن عباس. نجاة إبراهيم من النار معجزة، وليست وعدًا بتكرار صورتها لكل
 مبتلى.

٣٥. الأنبياء: ٥١-٧٠؛ وآل عمران: ١٧٣-١٧٥. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب {إن الناس قد جمعوا
 لكم}- الآية، رقم ٤٥٦٣؛ عن ابن عباس. نجاة إبراهيم من النار معجزة، وليست وعدًا بتكرار صورتها لكل
 مبتلى.

يخرج من خصومة لا يستطيع إنهاءها في الحال. لا يلزمه أن يتظاهر بأنه يملك الحل كله؛ يكفي أنه يعرف من يسأل، وأن يحفظ نفسه من تجاوز الحق في طلب حقه.

وقال الله تعالى:

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ٣٥
 فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ آلِهِمْ وَفَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَآتَاهُمُ الْغُلَّةَ الْكَبِيرَةَ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ٣٦
 {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّرِيعَةُ الَّتِي كُنْتُمْ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ}.

أراد المخوفون أن يضعف المؤمنون، فازدادوا إيماناً واعتماذاً على ربهم. لم يصبخ الخطر أكبر من طاعة الله في قلوبهم، ولم يملك تخويف الناس أن يصرفهم عن اتباع رضوانه.

ليس كل خلاف صغير في حياتنا كهذه المواقف العظيمة، ولكننا نبتلى بنصيب يناسب أحوالنا. قد تطلب منك شهادة لا تتوافق الحقيقة، ويقال لك إن رفضها سيغضب صاحب نفوذ. وقد تدعى إلى غش يسير في الظاهر، وتُخوف

٣٥. الأنبياء: ٥١-٧٠؛ وآل عمران: ١٧٣-١٧٥. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب {إن الناس قد جمعوا لكم}- الآية، رقم ٤٥٦٣؛ عن ابن عباس. نجات إبراهيم من النار معجزة، وليست وعداً بتكرار صورتها لكل مبتلى.

بفقد من فعة. هنا تحتاج إلى أن تزن ما تخافه بما تعرفه عن ربك وحسابك. لا يصح الباطل حقاً لأن له أن صاراً، ولا يصير الكذب مأمون العاقبة لأن القائلين به كثيرون. والثقة بالله ليست تهوؤاً في مواجهة الناس. من الحكمة أن تختار العبارة الرفيعة، وأن تستعين بمن يقدر على دفع الأذى، وأن تحمي من معك، وألا تدخل معركة لا يلزمك دخولها. لكن الحكمة شريء، وتغري الحق إرضاءً للخوف شيء آخر. قد يسكت المرء عن جدال لا ثمرة له، وهو ثابت على ما يعلم، وقد يرفع صوته كثيراً وهو يفرط في أمانة ظاهرة. لا نقيس اثبات بضجيج الخصومة.

علمك بأن الله لا يخفى عليه ما تلقى يعينك على صدق الاتجاء إليه، وعلمك أنه نهى عن الظلم يمنعك من استباحته وأن تطلب النجاة منه. فليصحب اعتماذك عليه عمل يرضيه، ولا تجعل ذكر التوكل زينةً لتصرف تعلم أنه يخالف أمره.^{٣٣}

وربما قلت «حسبنا الله» ثم واصلت ساعات طويلة تتخيل ردود الناس، وتعيد الموقف حتى لا يبقَى في يومك غيـره. قد لا تستطيع أن تمنع الخاطر الأول، لكن تستطيع أن تعود إلى عمل نافع. دَوِّن الحق الذي يلزم إثباته، وأدِّ السبب الذي تستطيع، ثم امنح عبادتك وأهلك نصيبهم. تفويض الأمر لا يعني أن تختفي الذكرى من ذهنك فوراً؛ يعني أن لا تجعل ما وقع سيِّداً على ما بقي من يومك.

٣٣. ينظر ابن القيم، مدارج السالكين، من زلة اليقين، ٢/٣٧٥؛ في صلة اليقين بالـتوكل.

ويحتاج هذا الذكر إلى أدب عند استعماله. لا نجعله سلاحاً نرمي به كل من خالف رغبتنا، وكأننا نعلم أننا مظلومون في كل خصومة. ربما كان لغيرنا حق لم ننصفه فيه. قبل أن تستنصر بالله على إنسان، اسأله أن يريك الحق وأن يعينك على أدائه، وراجع ما صدر منك. من ثقة العبد بعبد الله أن يخشى ظلمه هو، لا أن ينتظر العدل من جهة واحدة.

والدعاء على ظالم لا يغني عن نصرة مظلوم نستطيع نصرته. إن رأيت أذى فابذل ما يصلحه بالحق. وقد تكون الكفاية التي يسرها الله لعبد من طريق أناس يعينونه، فلا تحتقر قدرتك على رد خبر باطل أو أداء شهادة صادقة أو تسهيل وصوله إلى حقه. نحن لا نعلم جميع وجوه الفرج، لكننا نعلم أن الإحسان مأمور به.

وحيث تقول «حسبنا الله ونعم الوكيل» فدع أثرها يظهر في موقفك: صدق في الشهادة، ورفق في طلب الحق، وترك للاظلم. لا تعلم كي يأتي الفرج، لكنك تعرف حقاً تؤديه الآن؛ فاستعن بالله عليه.

شكوى سمعها الله

قالت عائشة رضي الله عنها:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى
النَّبِيِّ ﷺ - وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ تَشْكُو زَوْجَهَا وَمَا أَسْمَعُ
مَا تَقُولُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي
زَوْجِهَا}.^{٣٦}

قال الله تعالى:

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى
اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا
الْأَلْيَاءُ وَلَذُنَّ لَهُمْ وَلِيٌّ وَلِيُّهُمْ أَوَّلُوهُمْ يُكْرِئُونَ الْقَوْلَ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
قَالُوا فَتَحَرِيرٌ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ
بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ

^{٣٦} سنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمي، رقم ١٨٨؛ عن عائشة. صححه محققو طبعة دار السلام. المجادلة: ١-٤. الظاهر تشبیه الرجل زوجته بمن تحرم عليه على التأبيد؛ وتفاصيل الوقائع والكفارة يرجع فيها إلى أهل العلم.

شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ^{٣٦} فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا^{٣٧} ذَلِكَ إِنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ^{٣٨} وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ^{٣٩}.

ما خفي على بشر قريبي لم يخف على الله. تؤمن بسمعه كما
أخبر عن نفسه، ويدعوك هذا اليقين إلى صدق الشكوى إليه،
وإلى أمانة الكلام مع من تطلب منه المعونة.

وفي السورة حكم يصح باطلاً ويحفظ حقاً. لا تتغير
حقيقة الزوجة بقول منكري تكلم به الزوج، ولا تترك تبعة
الكلمة بلا حكم. هذه صلة الإيمان بالعدل في البيت: الله
يسمعنا، وقد أمرنا أن نصدق وأن نحفظ حدوده.^{٣٦}

قد نظن أن ما يشغل الإنسان من أمر أسرته أصغر من أن يدعو
به كثيراً. يقول في نفسه: هناك مصائب أكبر، فكيف
أشكو ما عندي؟ لكن حاجتك لا تصبح ممنوعة من الدعاء لأن
غيرك يحمل حاجة أشد. اسأل الله إصلاح بيتك، وهداية
قلبك، والرفق في كلامك، والقدرة على أداء ما عليك. لست
مطالباً أن تجمع آلام العالم في ميزان قبل أن تقول: يا رب،
أعني.

٣٦. سنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم ١٨٨؛ عن عائشة. صححه محققو طبعة
دار السلام. المجادلة: ٤-١. الظهار تشبيه الرجل زوجته بمن تحرم عليه على التأبيد؛ وتفاصيل
الوقائع والكفارة يرجع فيها إلى أهل العلم.

٣٦. سنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم ١٨٨؛ عن عائشة. صححه محققو طبعة
دار السلام. المجادلة: ٤-١. الظهار تشبيه الرجل زوجته بمن تحرم عليه على التأبيد؛ وتفصيل
الوقائع والكفارة يرجع فيها إلى أهل العلم.

وفي مجيء المرأة درس في طلب الحكم. لم تجعل شدة حاجتها دليلاً على صحة كل ما تريده، بل جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأل وتراجع في قضيتها. إذا أشكل عليك حكم يمس حياتك فاسأل من يعرفه، وانقل الواقع بأمانة. لا تخف جزءاً من القصة لتأخذ جواباً يرضيك؛ فالله يسمع الجزء الذي قلته، ويعلم الذي تركته، ولن تصير الحقيقة غير الحقيقة لأن السؤال رُتب بطريقة معينة.

وللقصة أثر في خلوة الدعاء أيضاً. لا يلزم أن ترفع صوتك حتى يكون رجاؤك صادقاً. قد تدعو بكلمات قلبية وأنت تعلم مرادك، وقد تعجز عن ترتيب كلام طويل. الله يسمعك، ولا يحتاج إلى بلاغة تصف بها وجعك. اختر من الدعاء الثابت ما تعرف معناه، واسأله حاجتك بكلام صحيح، ثم أبق في نفسك استعداداً لاتباع ما يظهر لك من الحق، ولو طلب منك إصلاح شيء كنت تظن أنك بريء منه.

ولا تقطع طريق الناس إلى المعونة باسم الصبر. من طلب إصلاحاً أو قضاءً أو مشورةً في ظلم وقع عليه لم يصبح قلبه اليقيني لأنه تكلم. الشكوى إلى الله تجمع مع طلب الحق من باب الم شروع. الذي يضر القلب أن يكون الكلام تسخّطاً لا يرجو إصلاحاً، أو كذباً يطلب به ظمناً آخر. أما الصدق في بيان الحاجة فباب من أبواب رفع الضرر.

ولعل أثر القصة يظهر حين تقوم إلى دعاء كنت تؤجله لأنك لا تحسن صياغته، ثم تسأل الله وتأتي من أسباب الإصلاح ما تستطيع. لا تحتاج حاجتك إلى أن تكون الأكبر في أعين

الناس كي ترفعها إليه. تحتاج إلى صدق في السؤال، وأمانة
في بيان الحال، واستعداد للعمل بما تعلمت. نسأله أن يجعل
إيماننا بسمعه عوناً على صدق الاتجاء وحسن العمل.

أرحم من هذه بولدها

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَابُّ
ثَدْيَيْهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ
فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: أُنْزِلُوا
هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا
تَطْرَحَهُ. فَقَالَ: لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».^{٣٧}

لم يترك الحديث القارئ أمام تعريف مجرد للرحمة؛ ن قل إليه
امرأة تضم طفلاً وتغذيّه، ثم رفع بصر القلب من الرحمة
التي يشاهدها إلى رحمة الله التي لا يشبهه كمالها شيء.
فالمشهد يقرّب المعنى، ولا يجعل صفات الخالق على مثال
صفات المخلوق. رحمة الأم مخلوقة محدودة، ورحمة الله ثابتة له
على ما يليق بجلاله.

واليقين بهذه الرحمة يفتح باب الرجوع إلى الله. لا يهون
الذنوب، ولا يجعل تعثر الأمس حكماً باستحالة التوبة. قال الله
تعالى:

^{٣٧}. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيل له ومعانقته، رقم ٥٩٩٩؛ عن عمر بن الخطاب.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^{٣٨}

قد يكون في حياتك ذنب لا يعرفه الناس، وكلما حاولت الخروج منه عدت. لا تهوّنه، ولا تضف إليه ذنب اليأس. سمّ التقصير باسمه، واقطع ما تقدر عليه من أسبابه، ورد الحق إن تعلّق الذنب بآدمي، واستعن بالله كلما عثرت. لا تنظر أن تصير قويا وحدك ثم تطلب الرحمة؛ إن ما تطلبها لتقوم وتثبت.

وهنا يظهر الفرق بين رجاء ي تمنى، ورجاء يوقن. الأول قد يردد أن الله غفور ثم يبقى بقاء في مكانه. أما الثاني فيصدق الخبر، ولذلك يتحرك: يتوب، ويستغفر، ويصلح ما أفسد، ويعود إذا غلبته نفسه. ليست الحركة ثمناً يشترى به الرحمة، لكنها أثر صدق القلب في طلبها.

وقد يطول البلاء أو تتأخر أمنيّة، فلا يصح أن نجعل ذلك حكماً بأن الرحمة غابت. نحن نعلم ما أثبتته الله عن نفسه، ولا نعلم جميع وجوه تدبيره في حادثة بعينها. قد تكون

٣٨. الزمر: ٥٣-٥٤. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآيتين؛ في التوبة وترك القنوط.

الرحمة في توبة فُتحت، أو شرَّ صُرف، أو بصيرة نمت تحت
الألم؛ وقد يخفى علينا وجهها. اليقين يقف عند العلم، ولا
يخترع تفسيرًا للغيب كي يسكن القلق.

حين يشترط عليك لوم النفس حتى يوهمك أن الباب أُغلق،
فارجع إلى خبر الرحمة والأمر بالإجابة معًا. أنت محتاج إلى
رحمة ربك، مأمور بالرجوع إليه. لا يؤخرك اليأس، ولا
يستدرجك التسويف؛ ابدأ بالإصلاح الذي تعرفه واسأله أن
يثبتك عليه.

أثري بقی

لا تجعل ذنب الأمس حجةً لذنوب اليوم، ولا تجعل سعة الرحمة
حجةً على ترك التوبة. اختر الآن سببًا واحدًا تعرف أنه
يعيدك إلى المعصية، فأغلقه، وأدِّ حقًا واحدًا تخر، وأكثر من
دعاء الله بالمغفرة والثبات. اليقين بالرحمة ليس نهاية
الطريق؛ إنه القوة التي تعيدك إليه.

ما لم تحط به خبراً

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ إِفْتَاهْ لَا أَبْرَحَ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ إِفْتَاهْ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَن سَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ۚ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِزِّنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ فَإِنِ طَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۚ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝ فَإِنِ طَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي فَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٣٨﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ
 بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٣٩﴾
 فَإِنْ طَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ
 يُضَيُّوا هُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ
 قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
 وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٤١﴾
 أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ
 أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٤٢﴾ وَأَمَّا
 الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
 وَكُفْرًا ﴿٤٣﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ
 رُحْمًا ﴿٤٤﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيْمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ
 وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ
 يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ۚ وَمَا
 فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٤٥﴾

لم يَفْعَلْ الخضر ذلك باجتهاد يبيح للناس أن يتبعوا
 ظنونهم في إيذاء غيبرهم؛ أخبر أنه لم يَفْعَلْهُ عن أمره. فلا
 يحتج أحد بالقصة ليعتدي على نفس أو مال ثم يزعم حكمة
 لا يعرفها الناس. ما أخبر به الوحي في هذا اللقاء محفوظ
 بحدوده، وحقوق الناس لا يرفعها ادعاء علم خفي.

٣٩. الكهف: ٦٠-٨٢. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير هذه الآيات؛ وبخاصة الآية ٨٢.
 لا تتضمن القصة إذنًا للناس بالاعتداء اعتداءً على إلهام أو ظن.

كان موسى يطلاب علماً، ويسأل عما يراه من كراً بحسب ما يعلم. وفي انتهاء الرحلة بيان لقصور العلم البشري، لا إلغاء للأمر والنهي. نؤمن بما أخبر الله، ونؤدي ما كلفنا به، ولا ندعي أن وراء كل فعل نستغربه عذراً يبرره.^{٣٩}

وأما ما نتعلمه نحن فهو التواضع لعلم الله. قد نرى جزءاً من حادثة، ثم نتكلم كأننا رأينا أولها وآخرها وجميع ما تترتب عليها. لا نعرف إلا ما ظهر، وقد يفوتنا من الأسباب والنتائج كثير. الاعتراف بهذا لا يمنع الحكم على فعل ظاهر بأنه ظلم أو إحسان؛ لكنه يمنع أن نزع أننا أحطنا بكل تدبير الله فيما وقع.

أحياناً يغلق باب سعينا إليه، فنحتاج إلى وقت حتى نعرف باباً آخر. وقد لا نعرف في الدنيا وجه الخير الذي رجوناه أصلاً. ليست هذه القصة وعداً بأنك ستخبر عند آخر كل أسبوع بسبب كل ما آلمك، ولا أن جميع خسائرك ستتحول أمامك إلى مكاسب محسوسة. إنها تعلمك أن غياب البيان عنك لا يجعل علم الله ناقصاً، وأنك تستطيع أن تطيع ربك دون أن تكون محيظاً بما أحاط به علمه.

وفي طلاب موسى العلم أدب آخر لا ينبغي طغى عليه الانشغال بالأحداث العجيبة. لقد سأل بأدب، واستعان بالله على الصبر، واعتذر عن النسيان، ووفى بما اشترط على نفسه حين جاء الفراق. هذه أفعال واضحة نستطيع

٣٩. الكهف: ٦٠-٨٢. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير هذه الآيات؛ وبخاصة الآية ٨٢. لا تتضمن القصة إذن للناس بالاعتداء اعتداءً على إلهام أو ظن.

الاقتراء بها. قد لا تقع في حياتنا رحلة تشبه رحلاته، لكن يقع كل يوم درس نحتاج فيه إلى الصبر على معلم، أو سؤال ينبغي أن نصوغه بلطف، أو خطأ يلزم أن نعترف به. ولا تعني الثقة بالعالم أن تسقط حقك في الدليل. تتعلم ممن عُرف بعلمه وأمانته، وتسأله عما لم تفهم، وتقبل أن يؤجل تفصيلاً حتى تتم مقدمته. لكنك لا تمنحه علم الغيب، ولا تجعله فوق النص، ولا تطيع أمراً محرماً لأنه وصف نفسه بأنه صاحب معرفة خاصة. اليقين بالله يحمي القلب من الغلو في الخلق، ولا يقوده إليه.

وحيث تشدد عليك مسألة من مسائل القدر، فابدأ بما تعلمه يقيناً: الله لا يظلم، وعلمه كامل، وحكمته بالغة، وأنت عبد محدود العلم. ثم اطأ البنيان فيما يمكن أن تتعلمه، وتوقف عن الجزم فيما لا سبيل لك إلى معرفته. ليس هذا هروباً من السؤال؛ بل ترتيب له حتى لا تطلب من نفسك علماً لم تُعطه، ثم تتخذ عجزها حجة على الحق.

وقد ينفعك هذا الأدب في خصومات الناس أيضاً. يرسل إليك أحدهم مقطعاً، فتظن أنك عرفت صاحبه كله. أو تسمع جملة من زميل، فتحكم على نيته. قبل أن تعاقب أو تنشر أو تقطع، اسأل عما يلزم معرفته. ليست كل واقعة قصة موسى والخضر، لكن في معرفتنا بمحدودية علمنا ما يمنع التسرع. ما أكثر ما يحفظه سؤال منصف من حقوق كانت ستضيع تحت حكم مستعجل.

وتأمل الرحمة المذكورة في شأن التي تيمين. لم يرد في الآية أنهما حضرا ليطابا ببناء الجدار، ومع ذلك سُخِّرَ لهما من يصلحه. نحن نعرف أحياناً من ساعدنا، ويخفى علينا أحياناً كثيرون ممن كانوا سبباً في خير وصل إلينا. فاشكر الله على ما علمت وما لم تعلم، واجعل لك نصيباً من النفع لا ينتظر أن يعرف المنفعة اسمك.

أنتهت الرحلة بببيان، وبقي لنا منها تواضع المتعلم. لسنا مطالبين أن نعرف الحكمة التفصيلية وراء كل فقد قبل أن نصبر؛ نستعين بما علمناه من عدل ربنا ورحمته، ونسأله أن يهدينا في ما خفي علينا.

شهادة لم يستطع إنكارها

أخبر أبو سفيان بن حرب:

أَنَّ هِرْقَلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تَجَارًا بِالشَّامِ - فِي الْمَدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكَفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيَّائِهِ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بَنِي تَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ. ثُمَّ قَالَ إِنْ تَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتِيُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ كَيْفَ نَسَبُهُ فَيَكُمُ قُلْتُ هُوَ فِي نَسَبِ ذُو نَسَبٍ. قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ قُلْتُ لَا.

قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ لَا. قَالَ فَأَشْرَفُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضِعْفَاؤُهُمْ فَقُلْتُ بَلْ ضِعْفَاؤُهُمْ. قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ فَهَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِيَدِينَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ قُلْتُ لَا. قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لَا. قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مَدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ

فِيهَا. قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِي كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ
 الْكَلِمَةِ. قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ فَكَيْفَ كَانَ
 قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ قُلْتُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا
 وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا
 تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتَّزَكُوا مَا يَقُولُ أَبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا
 بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَاةِ.

فَقَالَ لِاتَّزَكُمَا قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ
 ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبٍ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ
 قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ
 هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلِ قَبِيلٍ قَبْلَهُ،
 وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ
 مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ
 كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا،
 فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِي ذَرُّ الْكَذِبِ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى
 اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشَرَّافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعُفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ
 ضَعُفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ
 يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيْمَانِ حَتَّى
 يَتِمَّ،

وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُ أَحَدٌ سَخَطَةً لِيَدِيهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ
 فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيْمَانُ حِينَ تَخْلُطُ بِشَأْنَتِهِ الْقُلُوبُ،
 وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ،
 وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا
 تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ

بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ. فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ
مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ
أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَالَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ
كُنْتُ عَنْدَهُ لَأَعْسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ. ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
الَّذِي بَعَثَ بِهِ دُحْيَةَ إِلَى عَظِيمِ بَصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ
فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى،

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْتَ تَسْلَمَ، يَوْمَ تَبْتَكَ اللَّهُ
أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيَّ إِثْمَ الْأَرِيْسِيِّنَ وَ{يَا
أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {
قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ
كَثُرَ عَنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ
لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمَرَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ
يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى
أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهَرَقْلَ
سُقْفًا عَلَى نَصَارَى الشَّرَّامِ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ
أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ قَدْ
اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ.

قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَاءً يَنْظُرُ فِي النَّجُومِ، فَقَالَ
لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النَّجُومِ مَلِكَ
الْأَخْتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَالُوا لَيْسَ

يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ فَلَا يَهْمُنُكَ شَأْنُهُمْ وَاکْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ
مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ. فَبَيَّنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ
أَتِي هِرْقُلَ بَرَجْلُ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ، يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرْقُلُ قَالَ اذْهَبُوا فَإِنْ ظَرُّوا
أُمُخَّتَتِنُ هُوَ أَمْ لَا. فَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ،
وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ هُمْ يَخْتَتِنُونَ. فَقَالَ هِرْقُلُ هَذَا مَلِكُ
هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرْقُلُ إِلَى صَاحِبِ لَهُ بَرُومِيَّةَ،
وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرْقُلُ إِلَى حِمَصَ،

فَلَمَّ يَرِمُ حِمَصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ
هِرْقُلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرْقُلُ لِعُظَمَاءِ
الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمَصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ
أَطْلَعَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ
يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ، فَحَاصُوا حَيَصَةَ حُمُرِ
الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرْقُلُ
نَفَرَتَهُمْ، وَأَيَّسَ مِنَ الْإِيْمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَى. وَقَالَ إِنِّي قُلْتُ
مَقَالَتِي أَنْ فَا أُخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ.
فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرْقُلَ.^{٤٠}

٤٠. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم ٧؛ عن ابن عباس عن أبي سفيان، ثم خبر ابن الناطور
في سياق الرواية. «إيلياء»: بيت المقدس؛ «دسكرة»: بناء كالقصر. ما ورد عن نظر هرقل في النجوم
حكاية عن فعله، لا إقرار بالتنجيم ولا طريق لإثبات الغيب.

الصدق هنا حقيقة يعرفها الخصم قبل الصديق. لم يجد أبو سفيان في سيرة النبي ﷺ قبل الدعوة كذباً يستند إليه. وحين ننظر في دلائل النبوة، نجمع ما ثبت ونفهم دلالاته، ولا نحتاج أن نزينه بخبر لا أصل له.

ومن هنا نفهم لماذا لا يصح أن تختصر معرفة الرسول ﷺ في مواقف متناثرة تلتقطها العين من غير سياق. نتعلم ما جاء به، ونعرف دلائل صدقه، ونقرأ سيرته الثابتة، ونرى كيف اجتمع أمره بعبادة الله مع الصدق والرحمة والأمانة. ليست النبوة دعوى أخلاق حسنة فحسب، لكن الأخلاق التي ثبتت في حياته جزء من الصورة التي يراها طالب الحق، مع الوحي وآياته وبراهينه.

وفي طريقة السؤال ما يعين على ترتيب النظر. لم يكن السؤال الأول: هل يعجبك هذا الرجل؟ فقد كان إعجاب المخالف أو بغضه معلوم السبب. سأل عن أمور يستطيع أن يشهد لها: هل كذب؟ هل غدر؟ بماذا يأمر؟ الفرق كبير بين وصف الوقائع، وبين ترك الانفعال يختار الجواب كله. ربما اختلنا مع شخص، لكن أمانتنا تختبر في إنصافنا لما نعلم أنه صحيح عنده.

ونحتاج نحن إلى هذه الأمانة حين نقرأ عن الدين أو نسأل عنه. لا يكفي أن يكون المتحدث شديداً الحماس، ولا أن يعرض مقطعاً مؤثراً. نسأل عن صحة الخبر وسياقه، وعن الدليل الذي

قام عليه قوله. وإذا نقل إلينا نصًا، رجعنا إلى أصله ما استطعنا. قد يكون الاعتراض مبنيًا على قصة لم تثبت، في شغل القلب بما لم يقله الرسول ﷺ ولم يفعله.

وقد يقع تقصير من المدافع عن الحق أي ضًا. يريد أن ينصر دينه، فيروي معجزة لا يعرف أصلها، أو ينسب إلى العلماء إجماعًا لم يثبت، أو يخفي سؤالًا حقيقيًا تحت عبارات الثقة. هذا لا يخدم يقين القارئ. الحق لا يحتاج إلى خبر مكذوب يقويه؛ فإذا اكتشف المتلقي الخطأ اهتزت ثقته في الناقل، وربما خلط بين خطئه وبين صحة ما يدعو إليه. الأمانة في الدليل من نصرة الدين.

وقلبك ينتفع بالسيرة حين يقرأها بقصد المعرفة والاتباع، لا بقصد التأثير وحده. تعلم كيف كان النبي ﷺ يحفظ العهد، ثم راجع التزامًا وعدت به. واقرأ صدقه في الحديث، ثم انظر إلى ما تقول لتبرير تأخير أو خطأ. وتذكر أن شهادة المخالف بصدق متصل لم تُبن على كلمة جميلة في يوم واحد، بل على معرفة سبقت الخصومة. من أراد الصدق فليجعله خلقه حين لا تكون عليه عين ناقد.

ليس المطلوب أن تنشر غل بصورة نفسك عند المخالفين، فتعمل من أجل شهادتهم. الله أولى أن يصدق له العبد. لكن الصدق إذا استقام في حياة الإنسان كان له أثري تجاوز ما خطط له. قد يرى ولدك أنك لا تكذب في بيع صغير، في تعلم معنى لم تحسن شرحه طويلاً. وقد يجد زميلك أنك تنصف من اختلعت معه، في فهم أن الحق عندك ليس تابغًا للمصلحة.

ومن أخطر ما يحول بين العلم والعمل تعلق النفس بمكاناتها. قد يتبين للإنسان الصواب، ثم يتردد لأن قبوله يغير علاقة أو عادة أو مجلساً يألّفه. وليس كل مانع من الهدى نقصاً في المعلومات؛ قد يكون بعضه رغبة في ألا يدفع ثمن الرجوع. لذلك يجتمع طلاب العلم مع سؤال الله الهداية، ومع استعداد صادق أن يعمل بما يتبين له، لا أن يبقى نطالب براهين جديدة لنؤخر قراراً فهمناه.

ولا نحكم على سرائر أفراد بعينهم بمجرد هذا التأمّل. إنما يسأل أحدنا نفسه: ما الذي أفعل إذا جاءني الحق على خلاف مصلحتي؟ هل أفرح لأن الله علمني، أم أبحث عن ي قول غيره؟ تظهر الإجابة في اختيارات صغيرة قبل المسائل الكبرى: تصحيح خبر نشرته، أو قبول حق لخصم، أو التراجع عن وصف جائر قلته في غضب. هنا يتهيأ القلب لقبول ما يعلم.

ولئن كان أبو سفيان قد خشي يومئذ أن يؤثر عنه أصحابه كذباً، فنحن أولى بأن نستحضر علم الله حين نتكلم. قد تستطيع أن تخذع من أمامك، لكنك لا تخرج من سماع ربك وعلمه. الإيمان بالرسول الصادق ينبغي أن يثمر أتباعاً يكرهون أن ينصروا أنفسهم بالكذب، ولو كانت الكذبة سمتهم ان تصاراً سرياً في نقاش.

تعرفنا هذه القصة طرياً من طرق اليقين: أن نجمع الدلالة، ونفهمها، وننصفها، ثم نقبل ما دلت عليه. لا نكتفي بأن نقول إن رسول الله ﷺ صادق، بل نطالب أن يظهر إيما ناً

بصدقه في اتباعه. فالكتاب الذي وصل إلى هرقل كان دعوة إلى الإسلام، لا عرضاً للإعجاب وحده. ونحن حين نتصل إلينا سنته نريد أن نستجيب، وأن نصير معرفتنا به محبةً وطلاقةً وصدقاً في الحياة.

أنت الحق ووعدك الحق

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ
أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ
حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ،
وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ،
وَإِلَيْكَ أُنَبَّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفُ عَنِّي مَا
قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ
الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ - ٤١

وأخبر ابن عباس رضي الله عنهما:

أَنَّه، بَاتَ لَيْلَةً عِنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ خَالَتُهُ
فَاضْطَجَعَتْ فِي عَرَضِ الْوَسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلُهُ
فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ
قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
فَجَلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ
الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَرَنِ مُعَلَّقَةٍ، فَتَوَضَّأَ

٤١. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، رقم ١١٢٠؛ عن ابن عباس.

مِنْهَا فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يَصَلِّي. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
 فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُمْتُ إِلَى
 جَنْبِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي الْيُمْنَى،
 يَفْتَلِّهَا، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ
 رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ،
 حَتَّى أَتَاهُ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ خَفِيَّيْنِ، ثُمَّ
 خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ.^{٤٢}

يبدأ الدعاء بحمد الله والثناء عليه، ثم يقرّ بصدق وعده
 ولقائه وقوله. ليست الآخرة احتمالاً نستأنس بذكره إذا
 اتعبتنا الدنيا؛ إنها حق نؤمن به، ولقاء نستعد له. ومن أثر
 هذا الإيمان أن نسأل: ماذا يلزمني اليوم من توبة ووفاء بحق؟
 وقد نكرر هذه الحقائق في كلامنا، ثم يكون أضعف ما
 يحضر منها وقت الاختيار. نصدق الحساب إجمالاً، لكننا
 نتصرف في حقّ يسير كأن لا سؤال بعده. ونعرف أن الجنة
 حق، ثم لا نصبر على ترك لذة محرمة عابرة. من وظيفة
 العبادة أن تعيد هذه المعرفة إلى موضعها الحي. نذكر،
 فننتبه؛ وندعو، فنقر بحاجتنا؛ ونسجد، فيتصل ما
 عرفناه بعمل نتقرب به.

^{٤٢} صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره، رقم ١٨٣؛ عن ابن عباس.
 «شن»: قربة قديمة؛ و«يفتلها»: يدير أذنه.

وتكرار الذكر بفهم يرد العلم إلى حاضر القلب. قد تعرف معنى الحساب ثم تغفل عنه عند الخصومة، فتذكرك الصلاة بمن ستقف بين يديه. اطلب حضور المعنى وأنت تقرأ وتدعو؛ فمعرفة اللفظ بداية يعقبها فهم وعمل.^٨

وفي الدعاء اقتران جميل بين اليقين والاستغفار. من أصدق الناس إيماناً وأعظمهم عبادة يسأل الله المغفرة. فلا نتخيل أن التقدم في طريق القلب يفضي إلى الاستغناء عن التوبة أو رؤية النفس فوق التقصير. كلما عرف العبد ربّه عظم حقه، وكلما تأمل عمله عرف حاجته إلى العفو. واليقين الذي يجعل صاحبه معجباً بنفسه يحتاج إلى مراجعة؛ لقد غاب عنه من معرفة العبودية ما يرده إلى الانكسار المحمود.

والليل ليس شرطاً لأن ترجع إلى هذه المعاني في قلبك، لكنه وقت في السنة لقيام عظيم. لا تحتاج أن تبدأ بما يعجزك فتترك أصل الخير. احفظ فرائضك، ثم خذ من النوافل ما تطيق وتداوم عليه، وتعلم دعاءً صحيحاً تفهمه. وإذا صليت ركعتين، فلا يكن همك أن تؤدي شكلاً سرياً يضاف إلى حساب أعمالك؛ حاول أن تعرف من تناجي، وماذا تسأل، وعلى أي حقيقة تقف.

قد تقول وأنت تدعو إن لقاء الله حق، وفي ذمتك حق تؤجل أدائه. اجعل الدعاء بدايةً لرده. وقد تقول إن وعده حق، وفي قلبك استبطاء لطاعة لم تثر ثمرتها، فجدد الصبر. وقد

٨. ينظر ابن تيمية، مجموع الفتاوى، كتاب الإيمان الكبير، فصل «زيادة الإيمان يعرف من وجوه»، الوجه السابع، ٢٣٥-٢٣٦.

تقول إن الجنة حق، وقد شرغلتك مقارنة حياتك بحياة الناس، فراجع ما هو أبقى. لا نريد أن تكون الصلاة فرصة للهروب من المسؤولية، بل أن تعيدنا إليها بميزان أصدق. وفي الخلوة يهدأ شيء من طلاب التصفيق. لا يسمع الناس جميع ما تقول، ولا يعرفون كم بكيت أو لم تبك، ولا يحصون ما أصلحته في نفسك. قد تكون هذه الخلوة أنفع لك من موقف تتقن وصفه بعد ذلك. لا تحرص أن تحفظ للناس خبر كل عبادة؛ احفظ لقلبك موضعاً يصدق فيه لله، وهو يعلم به وإن لم يذكره أحد.

ولا تجعل نفع القيام مقصوراً على شغور سريع بالراحة. قد تصلي وأنات متعب، وقد تقوم وفي نفسك هم لم يزل، لكنك أديت عبادة وسألت ربك. نرجو أن يفتح الله لقلبك، ولا نضع على العبادة شرطاً أن تمنحنا إحساساً معيناً كل مرة. بعض الثبات أن نعبد الله لأنه يستحق العبادة، لا لأننا وجدنا في كل ركعة أثراً نستطيع وصفه.

وتعليم هذا الدعاء لأهلك يمكن أن يكون باباً للمعنى. لا تحفظه لولدك كما تحفظ قائمة ألفاظ فقط؛ تحدث معه عن صدق وعد الله، وعن الرجوع إليه، وعن قيامة الاستغفار. ثم دعه يرى أن اعتراك بالخطأ ليس صعباً عليك، وأن صلاة الليل لا تجعل كلام النهار قاسياً. القلب الذي يقول: لك أسلمت، يحتاج أن يظهر تسليمه في خفض الجناح للحق حين يأتيه من قريب أو صغير.

والأسماء والصفات التي وردت في الدعاء نلتقياها بالإيمان،
على الوجه اللائق بالله. لا ننسج لها صوراً حسية، ولا نزيد من
عندنا وصفاً نظن أنه أجمل. من كمال الأدب أن نقف حيث
وقف النص، وأن يكون فهمنا له سبيل تعظيم وعبادة. عظمة
الرب ليست مادة لاستعارة نطاردها التأثير، بل حقيقة
تملأ القلب إجلالاً وترده إلى الصدق.

في آخر يومك قد تتجمع أخبار كثيرة: ما ربحت، وما
خسرت، ومن رضي، ومن غضب. ضع هذه الأخبار في حجمها
حين تذكر الحقائق التي لا يغيرها يوم واحد. الله حق، ولقاؤه
حق، ووعدته حق. ثم سل المغفرة لما أخطأت، والعون لما بقي،
وابدأ صباحك بعمل يصلح. بهذا لا يكون يقيئك وصفاً للغد
وحده، بل نوراً من العلم تهتدي به في عمل اليوم.

عمل لا يراه كثير من الناس

روى أبو هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ رَجُلًا، أَسْوَدَ - أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ - كَانَ يَقُومُ الْمَسْجِدَ، فَمَاتَ، فَسَأَلَ
النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ فَقَالُوا مَاتَ. قَالَ أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنُتُمْونِي بِهِ
دُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ. - أَوْ قَالَ قَبْرِهَا - فَأَتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى
عَلَيْهِ.^{٤٣}

ليس في الخبر من نصب رفيع، ولا مال كثير، ولا مجلس علم
يقصده الناس. فيه تنظييف مسجد، وإزالة ما يؤذي المصلين،
واستمرار في خدمة يعرف نفعها من احتاج إلى المكان. ثم جاء
السؤال بعد الغياب، وجاءت صلاة النبي ﷺ على القبر. نتعلم
من الموقف ألا نستخف بعمل نافع لصغر صورته في أعيننا،
ولا بصاحبه لأنه لا يتقدم المجلس.

ما صلة هذا باليقيين؟ أن من يؤمن بعلم الله وجزائه يستطيع
أن يعمل فيما لا يكثر ذكره. إذا كان تقدير الناس شرطاً
لاستمرارنا، تركزنا أبواباً كثيرة من الخير. ربما لم يشكر
أحد من نظف، أو تابع حاجة، أو أصلح خطأ لا يعرف صاحبه.
لكن خفاء العمل عن بعض الناس لا يعني خفاءه عن الله، وقلة
من يذكره لا تعني قلة نفعه أو أجره.

٤٣. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان، رقم ٤٥٨؛ عن
أبي هريرة. «يقيم»: «يكنس»؛ «أذن تموني»: «أعلمت موني».

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ
مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.^{٤٤}

يحفظ اليتيم بعقل الله للقلب وجهته حين لا يجد تقديراً.
لا نشهد لأنفسنا بقبول عمل، ولكن نرجو فضله، ونصلح
قصدنا وطريقتنا، ونمضي في الخير وإن قل من يذكره.
وقد يكون لك في البيت عمل لا يلتفت إليه أحد إلا إذا غاب.
تتابع دواء والد، أو تصلح أمراً للصغار، أو تحفظ موعداً
يحتاجون إليه، أو تترتب شؤوناً لا يراها الزائر. لا تحتاج أن
تحول هذا كله إلى موعظة عن فضلك. انو الخير، واطلب العون
عند حاجتك، وتكلم عن توزيع المسؤوليات بعقل. الاحتساب
لا يوجب أن تستهلك نفسك صامتاً، كما أن طلب المساعدة لا
يبطل نيته.

وينبغي لمن ينتفع بهذه الأعمال أن يشكر أصحابها. ليس
الإيمان بأن الله يجزيهم عذراً لتقصيرنا في حقوقهم. قد
يقول مسؤول لمن يعمل معه: احتسب، وهو يمنعه أجره أو
يثقل عليه بما لا يطيق. هذا استعمال للدين في غير
موضعه. نرجو أجر الله للعامل، ونؤدي أجره وكرامته نحن، ولا
نجعل رجاءه في الآخرة سبباً لأكل حقه في الدنيا.

٤٤. القرآن الكريم، النساء: ٤٠؛ ابن كثير، تفسير الآية، في عدل الله ومضاعفة الحسنات.

تأمل السؤال النبوي عن الغائب. العناية ليست أن نمدح الناس حين نحتاج إليهم فقط، بل أن نعرف انقطاعهم ونسأل عن أحوالهم. من كان له دور هادئ في حياتك ثم غاب، فقد يكون وراء غيابه مرض أو حاجة أو وفاة لم تتعلم بها. اتصال صادق لا يتكلف الوعظ قد يؤدي حقاً غفلة عنه. وليس المقصود مراقبة الناس، بل حفظ معروفهم وأخوتهم.

والقصة تصحح فينا ميزان الاختيار أيضاً. قد تعرض لنا خدمة نافعة، فنتركها لأنها لا تشبه الصورة التي نريدها لأنفسنا. نرغب في عمل ظاهر، ونستثقل ما يحتاجه الواقع. اسأل: ما الخير الذي يمكن أن أؤديه الآن، لا ما العمل الذي يجعلني أبدو صاحب شأن؟ ربما كانت حاجتك إلى إصلاح نيتك أعظم من حاجتك إلى مشروع جديد واسع الاسم.

ولا يعني ذلك أن نترك الأعمال الكبيرة أو أن نذم الشهرة في أنفسها. قد يكون إعلان عمل نافع سبباً لتعاون الناس عليه، وقد يحتاج التعليم إلى ظهور صاحبه. الميزان في القصد والعمل، لا في الخفاء وحده. لكن وجود باب لا يعرف الناس اسمك فيه يعين النفس على أن تتذكر لمن تعمل، ويكشف لها ما تشترطه من ثناء دون أن تنتبه.

ومن اليقين أن نفهم الحساب فردياً. لا ينوب عنك عمل مشهور قريب منك، ولا تنقص قيمة إحسانك لأنك لست من ذوي الأسماء المعروفة. أنت مسؤول عما تقدر عليه. قد يسهل

لغيرك تعليم ألف إنسان، ويسهل لك أن تعين واحدًا عجز عن حاجته. لا تجعل مقارنة القدرات تمنعك من أداء نصيبك، ولا تذّر نصيب غيرك لأن صورتك عنه محدودة.

وتدخل الأمانة في جودة الخدمة نفسها. من يعمل لله لا يقول: الناس لا يلاحظون، فلا بأس أن أقصر. إن كنت تنظف، فأنت قن ما تستطيع. وإن اتّمتت على رسالة فأوصلها صحيحة، وإن كنت تحفظ مالا فاحفظه وإن غاب صاحبه. اليقين بعلم الله يحررك من رقابة الناس بوصفها الدافع الوحيد، ويجعلك أشد أمانة في غيابهم، لا أقل.

افتقد النبي ﷺ صاحب الخدمة، وذهب إلى قبره فصلّى عليه. نرجو أن يترك هذا المشهد فينا عينا أرحم بالإناس، وقلاباً أصدق في العمل. وما أعظم أن يصبح المعروف عندنا محبوباً لأنه معروف يرضي الله، لا لأنه يتيح لنا أن نحكي عن أنفسنا. قد لا يعلم كثيرون ماذا فعلت اليوم، لكنك تستطيع أن تسأل ربك أن يتقبله، ثم تمضي إلى خير آخر من غير أن تضيع قلبك في انتظار الذكر.

الباب الرابع: حين يصير الإيمان عملاً

مستی قنأ بها قلبه

قال أبو هريرة رضي الله عنه:

كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ
فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا وَخَشِينَا
أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا وَفَزَعْنَا فَقُمْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزَعَ
فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ
لِبَنِي النَّجَّارِ فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أُجِدُّ لَهُ بَابًا فَلَمْ أُجِدْ إِذَا رَبِيعٌ
يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بَيْتٍ خَارِجَةٍ - وَالرَّبِيعُ الْجَدُولُ -
فَاخْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَ فِرَزُ الثَّعْلَبِ فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ. فَقُلْتُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ مَا شَأْنُكَ.

قُلْتُ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُمْتُ فَأَبْطَأَتْ عَلَيْنَا فَخَشِينَا أَنْ
تُقْتَطَعَ دُونَنَا فَفَزَعْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزَعَ فَأَتَيْتُ هَذَا
الْحَائِطَ فَاخْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَ فِرَزُ الثَّعْلَبِ وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَأَيْ
فَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ. وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ قَالَ اذْهَبْ بِنَعْلَيْ
هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ
عُمَرُ فَقَالَ مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ. فَقُلْتُ هَاتَانِ نَعْلَا
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ.

فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ فَخَرَزَتْ لِاسْتَيْ فَقَالَ ارْجِعْ
يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَارْجِعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً
وَرَكِبَنِي عُمَرُ فَإِذَا هُوَ عَلَى أَثَرِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا لَكَ
يَا أَبَا هُرَيْرَةَ. قُلْتُ لَقِيْتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثْتَ نِي
بِهِ فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيْ ضَرْبَةً خَرَزَتْ لِاسْتَيْ قَالَ ارْجِعْ.
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا عُمَرُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ. قَالَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ مَنْ
لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بِشَرِّهِ
بِالْجَنَّةِ. قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَلَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَكَلَّمَ
النَّاسُ عَلَيْهَا فَخَلِّمَهُمْ يَعْملُونَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَلِّمَهُمْ.^{٤٥}

في هذا الخبر بشاراة عظيمة، وفيه حرص على فهمها فهماً
صحيحاً. لم تذكر الشهادة مجرد صوت يصدر عن اللسان؛ ذكر
يقيّن القلب بها. ولم يُجعل اليقين إنزناً لتعطيل الطاعة؛
حضر العمل في آخر الموقف. من جمع أول الحديث وآخره عرف أن
باب الرجاء واسع، وأن الرجاء نفسه ينبغي أن يثمر
استجابة، لا استراحةً من أوامر الله.

ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله أن العبادة حق لله وحده، لا شريك
له. فإذا أيقن القلب بهذا، اتجه إليه بالدعاء والخوف والرجاء
والتوكل، وأخلص له ما يتقرب به. لا تعود الشهادة عندي
كلمة تنتهي بها إلى جماعة فحسب، بل حقيقة تصلح اتجاه

٤٥. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرّم على
النار، رقم ٣١؛ عن أبي هُرَيْرَةَ. «حائط»؛ بستان؛ «ربيع»؛ جدول ماء؛ «أحدثت»؛ تضاممت للدخول؛
«بأستأهنا»؛ خلفنا.

حياتنا. من نعبد؟ ولمن نصلي؟ ومن نرجو رضاه حين لا يرضى الناس؟ هذه أسئلة يجيب عنها ما استقر في القلب، ويظهر جوابها في العمل.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.^{٤٦}

يظهر صدق الإيمان في ثبات التصديق وبذل المال والنفس في طاعة الله. فلا نحول البشارة إلى إذن بترك الواجب، ولا نجعلها حجة على من يدعوننا إلى أداء حق ضيعناه.

ونحن قد نواجه صورةً صغيرةً من الاتكال الذي خافه عمر. يقول الإنسان: قلبي طيب، وأنا أحب الله، ثم يتخذ هذه الكلمات جواباً دائماً عن صلاة يضيّعها أو حق يأكله. الطيب الذي في القلب يرجى أن يدعو إلى التصحيح، لا أن يصير حاجزاً يمنع النصيحة. لا يحتاج المرء إلى أن يعلن سوء نفسه؛ يكفي أن يعترف بأن محبته لله تلزمه أن يحاول طاعته، وأن يستغفر إذا قصر.

وفي الجهة الأخرى قد يسمع بعض الناس الحديث في جعل كل تقصير دليلاً على أن صاحبه لا يملك شياً من اليقين، فيقسو عليه ويقطع رجاءه. هذا أياً جاوز الإيمان

٤٦. القرآن الكريم، الحجرات: ١٥؛ ابن كثير، تفسير الآية، في ثبات التصديق وبذل المال والنفس في طاعة الله.

يتفاضل، والعبد يجاهد نفسه ويذنب ويتوب. لا نفتش في القلوب لنصدر على الناس أحكامًا لا نعلمها، وإنما نتعلم لأنفسنا أن ضعف العمل يستدعي العلاج، وأن الرجاء في فضل الله يعين على العلاج ولا يناقضه.

تأمل أبا هريرة في أول الخبر: خرج يبحث عن رسول الله ﷺ لما تأخر عن أصحابه. ثم عاد يحمل خبرًا يهم قلوبهم وآخرتهم. كانت صحبتته تعلمًا ومحبةً وعملاً، لا تلقي معلومات فقط. ولنا أن نسأل عن صحبة العلم في حياتنا: هل يغير ما نتعلمه شيئاً مما نفعل؟ هل صرنا أصدق في معاملة، أو أرفق في بيت، أو أحفظ للصلاة، أم لا تزال معرفتنا تعيش على صفحة من فصلة؟

وأول ما يربط العلم بالحياة أن تختار موضوعًا واضحًا تعمل فيه. إن عرفت أن الله وحده يستحق العبادة، فراجع ما تتعلق به من أسباب كأنه يملك نفعك استقلاً. وإن آمنت بحسابه، فرد حقاً تعلمه. وإن فرحت ببشارته، فاحفظ فرضاً يحب منك أدائه. ليس المقصود أن تختزل الدين في عمل واحد، ولكن أن تمنع المعرفة من البقاء كلاماً مؤجلاً إلى تغيير شامل لا يبدأ.

والعمل الذي نريده ليس ثمنًا نستقبل به عن رحمة الله. نعمل لأن الله أمر، ونرجو القبول بفضله، ونخشى تقصيرنا، ونسأله العون. حين يفهم القلب ذلك يخرج من غرور يقول: استحققت، ومن يأس يقول: لن أصل. يسعى عبداً مفتقراً،

ولا يمنعه افتقاره من الجهد. وقد يكون صدق قولك: يا رب أعني، أول ما يجعل عملك أصفى من اعتماذه على إعجابك بنفسك.

وربما كان في حياتك من يكثر التخوي فحتى لا يترك لك بشارة، أو من يكثر التهوين حتى لا يترك للذنوب أثرًا. اجمع ما فرّقاه. اقرأ الوعد مع الأمر، والمغفرة مع التوبة، والرحمة مع العدل. النصوص لا تتناقض لأن بعضنا انتقى منها ما يوافق مزاجه. والقلب أحوج إلى الدين كله من حاجته إلى نبرة يفضّلها في كل حال.

وقد ينفذ أن يتغير سؤالنا عن أنفسنا. بدل أن نظل نسأل: هل بلغت اليقين؟ نسأل: ما الذي أؤمن به اليوم وأحتاج إلى العمل بمقتضاه؟ ذلك سؤال لا يدعي تزكية، ويقيود إلى واجب محدد. يحفظ الإنسان فرائضه، ويصلح ذنوبه، ويتعلم ما جهل، ويجدد الإخلاص. ومع تكرر هذا الصدق نرجو أن يزداد ما في القلب رسوخاً وحضوراً.

أما البشارة فلا نحببها عمن يحتاج إليها. من جاء نادماً يريد وجه الله يحتاج أن يعرف سعة فضله وأن التوبة ممكنة. نبشره، ونعينه على العمل، ونذكره أن رحلته لا تتوقف عند لحظة التأثير. لا نطالبه بضمان لنفسه، ولا نعهده بعصمة بعد اليوم، لكن نمسك بيده إلى خطوة صحيحة، ثم أحرى.

«مستيقناً بها قلبه» كلمات تردنا إلى الداخل، وحرص النبي
ﷺ على العمل يردنا إلى أثر الداخل في الظاهر. وبينهما
تقوم العبودية التي نطلبها: توحيد يصدق، ورجاء ينهض،
وخوف يهذب، وعمل يرجو صاحبه أن يقبله الله. ليست
غايتنا أن نصف قلوبنا بأرفع الأوصاف، بل أن تصلح على
الحقيقة، وأن يكون ما تقول ألسنتنا أقرب إلى ما نعيشه كل
يوم.

حين جرت في سكك المدينة

قال أنس رضي الله عنه:

كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَيْدِي نَادِيٍّ إِلَّا أَنْ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ أَخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَّتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بَطُونِهِمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} الْآيَةَ.^{٤٧}

وقال الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّرِّ طَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ○ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّرِّ طَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ○ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ○ لَيْسَ

٤٧. صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق، رقم ٢٤٦٤؛ عن أنس. «الفضيخ»: شراب من البسر. المائدة: ٩٠-٩٣. لا تعمم هيئة الإراقة على أموال الآخرين أو على صور يترتب عليها أذى.

عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُحْسِنِينَ^{٤٧}.

من السهل أن نعجب بسرعة الاستجابة، لكن الأهم أن نفهم أصلها. كان خبر الرسول ﷺ حجةً عندهم، وكانت طاعة الله أعظم من إبقاء شيء اعتادوه. لم يحتج أنس في روايته إلى أن يصف لنا كل ما في صدورهم؛ كفانا الفعل. ما أمر بإراقة قلبه، وما حُرّم تركوه. حين يستقر صدق الوحي في القلب، يصبح له سلطان على الاختيار، لا مجرد احترام في الكلام. وأنت قد تعرف في حياتك أمراً يحتاج إلى إراقة معنوية، لا إلى إراقة شراب: رسالة ظالمة تحفظها لتنشرها وقت الغضب، أو طريق غش تبرره لأنه سهل، أو عادة تؤذي من حولك. السؤال الذي ترضه القصة أمامك هو: ماذا بقي بين المعرفة والتنفيد؟ أهو جهل بالحكم يحتاج إلى تعلم، أم رغبة في تأجيل ما عرفت أنه يلزمك؟ الصدق في تحدي المانع أقرب إلى الإصلاح من لوم عام للنفس.

ولكل مسألة حكمها وتفصيلها. لا ننقل طريقة إتلاف الخمر إلى أموال الناس أو ممتلكاتهم من غير علم، ولا نتخذ التخمس للتعويض إنذاراً بالاعتداء. قد يلزم في باب رد مال، وفي باب

٤٧. صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق، رقم ٢٤٦٤؛ عن أنس. «الفضيخ»:
شراب من البسر. المائدة: ٩٠-٩٣. لا تعمم هيئة الإراقة على أموال الآخرين أو على صور يترتب عليها
أذى.

ترك استخدام، وفي باب سؤال أهل العلم عما يصح التصرف فيه. الذي نتعلمه هو الاستعداد للامتثال بعد البيان، لا استعجال الأحكام قبل معرفتها.

وقد يكون التأجيل مغلفاً بكلام معقول في الظاهر. يقول المرء: سأرتب أموري ثم أبدأ، أو سأترك هذا الخطأ عندما تتحسن الظروف. وبعض الترتيب مطلوب حقاً، لكن بعبءه طريقة نؤجل بها ما نكره. أسأل نفسك عن خطوة تستطيع فعلها اليوم دون ضرر أو تجاوز. إن كان الباب رسالة كاذبة، فأوقف نشرها الآن. وإن كان حقاً معلوماً، فابدأ بأدائه. وإن كان يحتاج إلى مشورة، فاطلبها بدل انتظار لا موعد له.

والعادة لا تزول دائماً بسهولة. فرق بين تعظيم الحكم وبين القدرة المكتمة على ترك كل ما ألفته النفس في لحظة. من عزم على الطاعة ثم تعثر لا نقول له إن لا خير في محاولته؛ نعطي ما يعينه على أسباب التغيير. لكنه يحتاج أن يبقى صادقاً في تسمية الخطأ، وألا يحوله إلى صواب ليخفف عن نفسه ألم المجاهدة. التوبة تفتح طريقاً، والتبرير يغلق الحاجة إلى السير فيه.

في قصة أنس حضور جماعة أطاعت. البيئية قد تعين على الاستجابة كما قد تعطلها. إن كنت بصحبة تذكرك بما تريد تركه وتعيذك إليه كل مرة، فاحم نفسك بما تقدر عليه من تغيير المجلس أو ترتيب اللقاء. وابحث عما يشرحك على

الخير دون أن يفضحك أو يتعالى عليك. ليس الضعف أن تستعين بصحبة سالحة؛ الضعف أن تصر على سبب يوقعك ثم تلوم قلبك وحده.

وقد تختبر القصة تصورنا للخسارة. يرى من لم يعرف إلا المال أن ما أرى نقص من الموجود، ويرى المؤمن أن طاعة الله أعظم من الاحتفاظ بمحرم. ليس كل ما خرج من يدك خسارة، ولا كل ما بقي فيها ربحاً. هناك مال تحمي دينك بتركه، وكلمة تحمي عرضك وعرض غيرك بعدم قولها، وعلاقة تحتاج إلى تصحيح حتى لا تستمر في معصية. الميزان ليس ما تملكه وحده، بل ما يرضي الله في ما تملكه.

ولا يعني هذا أن نكره الدنيا أو نرفض الطيب منها. الذي نهى عن الخمر أحل من الطيبات ما يغني عنها. ومن الخطأ أن تقدم الاستقامة للناس كأنها خروج من كل فرج. يريد الإيمان أن تكون فرحتنا في الحلال، وأن نصون عقولنا وأعراضنا وحقوقنا. حين نساعد أنفسنا ونغريها على بدائل مشروعة، نعين المجاهدة بدل أن نحصرها في فقد شيء واحد لا نرى سواه.

وقد يحمل المرء من ماضيه ما يثقل عليه البدء. ليكن ندمه باعثاً على التوبة وإصلاح ما يستطيع، لا حكماً بأن طريق الإصلاح قد أغلق. يبدأ بترك الذنب، ويسأل عن الحقوق المتعلقة به، ويطلب عوناً مناسباً إن غابته عادة؛ وكل خطوة صادقة في طريق الإصلاح جديرة بأن يحافظ عليها.

جرت الخمر في السكك لأن الأمر لم يبق في مجال الإعجاب به. دخل إلى قرار، ثم إلى حركة يد. ولعل هذا هو الاختبار الأقرب لبقينا في كثير من الأيام: ماذا فعلت اليد بعد أن عرف القلب؟ لا نحتاج أن ننتظر حدثاً عظيماً حتى نجي. بين أيدينا أعمال صغيرة نصدق بها اليوم، ثم نرجو أن يجمع الله لنا من صدق الأيام قلباً أوثق به وأسرع إلى طاعته.

الصدق الذي أنجى كعباً

قال كعب بن مالك رضي الله عنه:

لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ
تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ
أَحَدًا تَخَلَّفَ، عَنْهَا إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ،
حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيْعَادٍ وَلَقَدْ
شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاتَقْنَا عَلَى
الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهُدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ
فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ
حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعْتُ عَنْ يَدِي
قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَى بَرِغِيْرَهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ
الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرِّ شَدِيدٍ،

وَأَسْتُقْبَلُ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى
لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةً غَزَوْهُمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ
الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ
كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيَّوَانَ - قَالَ كَعْبٌ فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ
يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحَى اللَّهُ،
وَعَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظِّلَالُ،
وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لَكِنِّي

أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعْ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأُصْبِحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُّوا لَأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أُسْرِعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أُرْتَحِلَ فَأَدْرِكُهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يَقْدِرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النَّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مَمَّنَّ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بَرْتَبُوكَ مَا فَعَلَ كُغُبٌ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عَظْفِهِ. فَقَالَ مُعَاذُ بَنِي جَبَلٍ بَيْئَسَ مَا قُلْتُ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ كُغُبٌ بَنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي،

وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أُخْرِجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أُخْرِجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صَدَقَهُ، وَأُصْبِحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فِي رُكْعٍ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَافُونَ، فَطَفِقُوا يَغْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَخْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا

بِضْعَةٍ وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَّلَ سَرَاءَ رَهُمْ إِلَى اللَّهِ،
 فَجِئَتْهُ فَلَمَّا سَلَّمَتْ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمَغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ
 تَعَالَ. فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي مَا
 خَلَفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ. فَقُلْتُ بَلَى،

إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأْخُرجَ
 مِنْ سَخِطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَيْتَنِي
 حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ
 يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَلَيْتَنِي حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صَدَقَ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ
 إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا
 كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ
 فِيكَ. فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا
 لِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ
 لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ
 أَلَمْ تَخْإِفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 لَكَ،

فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْنَبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكْذِّبُ نَفْسِي،
 ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ أَحَدٌ قَالُوا نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ
 مَا قُلْتُ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ. فَقُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا
 مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ. فَذَكَرُوا لِي
 رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهَدَا بَدْرًا فِيهِمَا إِسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ
 ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا

الثَّلَاثَةَ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ
وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي
أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ
فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ
أَشْرَبَ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ
الْمُسْلِمِينَ وَأُطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَكْلُمُنِي أَحَدٌ،

وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ،
فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَيْءٌ فِي بَرْدِ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا
ثُمَّ أَصْلِي قَرِيْبًا مِنْهُ فَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى
صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَّافَتُ نَحْوَهُ أُعْرِضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا
طَالَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَرَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ
حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ
عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْ شُدُّكَ
بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أَحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَسَكَتَ، فَعَدْتُ لَهُ
فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعَدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ. فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ،

قَالَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ
أَهْلِ الشَّرَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ
يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا
جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ
فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ
هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا
أَيُّ ضَرْبٍ مِنَ الْبَلَاءِ. فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنَوُّورَ فَسَجَّزْتُه بِهَا، حَتَّى

إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِيَنِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ امْرَأَتَكَ فَقُلْتُ أَطْلِقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلْ اعْتَزَلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِي مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكَ فَتَكُونِي عَنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

قَالَ كَعْبٌ فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَرِيخُ ضَائِعٍ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبُكَ. قَالَتْ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِيَنِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينِ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً،

وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيَّنَّا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، أَبْشِرْ. قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينِ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَ، وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى

سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ
 الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ
 ثَوْبِي، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا
 يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَزْتُ ثَوْبِيْنَ فَلَبِسْتُهُمَا، وَإِنْ طَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ فِي تَلْقَانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يَهْنُونِي بِبِالِثَوْبَةِ،
 يَقُولُونَ ائْتِهِنَّكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ. قَالَ كَغُبُّ حَتَّى دَخَلْتُ
 الْمَسْجِدَ،

فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ
 عُبَيْدٍ اللَّهُ يَهْزُلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ إِلَيَّ
 رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْ سَاهَا لَطْلَحَةَ، قَالَ كَغُبُّ فَلَمَّا
 سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ
 مِنَ السَّرُورِ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيَّ مَنْ ذُو وَلَدَتِكَ أُمُّكَ. قَالَ
 قُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالَ لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَهُ قِطْعَةً
 قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا
 رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ
 وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ
 فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بَرَخِي بَرًا، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ
 إِنَّمَا نَجَّانِي بِالْصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحْدِثَ إِلَّا صِدْقًا مَا
 بَقِيَتْ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ
 الْحَدِيثِ مَنْ ذُو ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا
 تَعَمَّدْتُ مَنْ ذُو ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا،

وَأَنِّي لَأَرْجُو أَنِّي حَفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيْتُ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ رِسُولَهُ ﷺ {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ} إِلَى قَوْلِهِ {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} فَوَاللَّهِ مَا أَنَعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فَيَنْفَسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَن لَّا أَكُونَ كَذَّابْتُهُ،

فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {سَيَحْفَونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ} إِلَى قَوْلِهِ {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}. قَالَ كَعْبٌ وَكُنَّا تَخْلَفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا} وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُفِنَا عَنْ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِي فِيهِ إِيَّانَا وَإِرجاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَاقْبَلْ مِنْهُ.^{٤٨}

من أول الخبر إلى آخره يظهر يقيين لا يساوي السلامة من الخطأ. لقد أخطأ كعب، واعترف، وصبر على ما لقي، ورجا حكم الله. قد يكون أعظم ما نحتاجه من القصة أن نرى طريق الإصلاح بعد

٤٨. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم ٤٤١٨. «ورى بغيرها»: أظهر جهة غير التي يقصدها؛ «الأنباط»: قوم يأتون للتجارة؛ «التنور»: موقد الخبز. الهجر في هذا الخبر بأمر النبي ﷺ في واقعة معينة، وليس تفويضا بالعقوبة الجماعية.

التقصير، لا أن نتخيل أن أصحاب القلوب الصادقة لا يمرون بلحظة ضعف. الإنسان قد يفسد موقفاً، ثم يكون صدقه في إصلاحه باب خير عظيم.

وكان أول الإصلاح أن سمى السبب باسمه. لم يقل إن الناس أخروه، ولا إن الظروف كلها اجتمعت عليه، ولا إنه كان عاجزاً. ذكر قوته ويساره وتأجيله. هذه شجاعة يخفف عنها اليقين بعلم الله؛ فإن الله يعلم الحقيقة قبل أن نختر لها اسماً. الاعتراف لا يزيده علمه بنا، لكنه يغيّر موقفنا نحن من الفعل: نخرج من الدفاع عنه إلى طلب المغفرة وإصلاح الأثر.

وفي قوله ما يرد على اعتادنا على حسن البيان. قد يجد المرء لكل تقصير عبارة مقنعة، فيظن أنه تجاوز المشكلة لأن السامعين سكتوا. لكنه يعرف ما حصل. والمهارة التي تستطيع أن تخفي بها الواقع عن غيرك تستطيع أن تجعلها في شرح الحقيقة والاعتذار عنها. ليست البلاغة مذمومة؛ إن ما يضر أن تكون حجاباً بين الإنسان وبين محاسبة نفسه.

ثم يأتي زمن الانتظار، وهو الجزء الذي قد نستعجل القفز فوقه. قلنا الصدق، فلم نتحسن كل النتائج في اليوم نفسه؛ اعتذرنا، ولم ترجع الثقة كما كانت فوراً؛ تركنا ذنباً، وبقي من آثاره ما يحتاج إلى علاج. عندئذ نحتاج إلى ثبات لا يشترى راحة عاجلة بكذبة جديدة. ليس تأخر بعض الإصلاح دليلاً على أن الصدق لم يكن هو الطريق الصحيح.

والخبر الخاص بالثلاثة لا يبيح لنا أن نجعل الهجر الجماعي عقوبة نختارها لكل من قصر. كان الحكم في ذلك الموقف صادرًا عن رسول الله ﷺ، وانتهى بقبول توبة أخبر الله بها. أما أحوال الناس بعده فتحتاج إلى علم وعدل ومراعاة للمصلحة، ولا يجوز أن نستخدم القصة لتبرير قسوة شخصية أو فضح مخطئ. الاقتداء بكعب هنا في الصدق والتوبة، لا ادعاء سلطة لم تعط لنا على الناس.

وتكشف رسالة غسان باباً آخر: حين يضعف الإنسان قد يأتيه من يعرض عليه تعويضاً على شرط أن يترك الحق. قد لا تكون رسالة ملك، بل فرصة تخالف الأمانة، أو جماعة تؤكد له أنه مظلوم مطلقاً وتدعوه إلى كراهية كل من نصحه. ليس كل من واساك يريد إصلاحك، كما أن كل من عاتبك ليس عدواً لك. انظر إلى الطريق الذي يدعى قلبك إليه، لا إلى لطف الكلمات وحده.

ومن الرحمة أن نتذكر قيام طلحة. في زمن قبول التوبة يحتاج العائد أن يجد مكاناً بين إخوانه، لا أن يبقى خطوؤه عنوانه الوحيد. بشاره طيبة ومصافحة صادقة قد تبقيان في ذاكرة الإنسان طويلاً. لا تجعل محاسبتك للناس أقدر على تذكر عثراتهم من تذكر رجوعهم. احفظ الحقوق، لكن افرح بالخير حين يقع، ودع صاحب التوبة يعي ش عمله الجديد.

وفي توجيه النبي ﷺ إلى إبقاء بعض المال اعتدال ينبغي أن نحفظه عند التأثير. قد يندفع الإنسان بعد نوب إلى وعد كبير لا يطيعه، أو يظن أن التوبة لا تصدق إلا

بإتلاف ما يحتاجه. يحتاج العزم إلى هداية، لا إلى اندفاع وحده. أصلح ما فسد، وأدِّ ما وجب، وابذل من الخير ما ينفع، واستشر إذا تعلق الأمر بحقوق أهلِكَ ومالك ومسؤولياتك.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُفِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^{٤٩}

جاء التذكير بالتقوى والكون مع الصادقين بعد خبر قبول التوبة. إذا رزقك الله توبة، فاختر ما يعين على بقاءها: صاحباً يصدقك، وعملاً تصلح به ما أفسدت، وتركاً للأعذار التي زين لك الخطأ أول مرة.

ربما لا يحمل يومك خطأ يشربه تخلف كعب، لكن يحمل كلمة تحتاج أن تصدق فيها. لا تؤجلها حتى تصير لها آثار كثيرة. قل: أخطأت، وأعتذر، وهذا ما سأصلحه. ثم افعل ما قلت. ليس كل الناس قادرين على قبول اعتذارك سريعا، لكن الله

يعلم صدقك، وأنت مأمور بإصلاح ما تقدر عليه. لعل أول ما
يطمئن به قلبك أن تتوقف عن حمايته بالكذب، وأن تضع
رجاءه في رحمة الله وهو يعمل بالحق.

أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

قالت عائشة رضي الله عنها في خبر براءتها من الإفك:

فَأَنْزَلَ اللَّهُ {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ} الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا فِي بَرَاءَتِي . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقِرَابَتِهِ مِنْهُ - وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى} الْآيَةَ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي . فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَنْزَعُهَا عَنْهُ أَبَدًا.^{٥٠}

قال الله تعالى:

{وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.^{٥١}

٥٠. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين فيما لا يملك وفي المعصية وفي الغضب، رقم ٦٦٧٩؛ من حديث عائشة في خبر الإفك. مسطح بن أثاثة قريبي أبي بكر، وكان أبو بكر ينفق عليه.

٥١. النور: ٢٢. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية. «ولا يأتل»: لا يحلف على الامتناع من الإحسان.

قد يتغير القرار حين يحضر رجاء المغفرة أقوى من داعي الانتقام. لا يهون الافتراء، ولا يخفى ألم من وقع عليه، ولكن القلب يجد عند الله ما يجعله قادرًا على الإحسان مع بقاء ذكرى الأذى.

وفي القصة من زلة للقرآن في تغيير القرار. كان أبو بكر قد أقسم، ثم جاءه التوجيه فاستجاب. لم يجعل ما قاله من قبل حجاباً يمنعه من الرجوع إلى الأفضل. ونحن قد نحب التمسك بكلامنا حتى حين يتبين أن غيره أهدى، ونسمي ذلك ثباتاً. لكن الثبات على الحق قد يطلاب تغيير القرار، لا حمايته من المراجعة. من يثق بالله لا يحتاج أن يصير قوله السابق منافساً لهدي ربه.

وليس العفو حكماً واحداً في جميع المواطن. قد يكون حفظ حق مظلوم أو منع تكرار أذى هو الواجب، وقد تحتاج المعاملة إلى حدود تحمي الأطراف. لا نطالب من متضرر أن يعرض نفسه لخطر، ولا نستخدم الآية لإسكاته عن حق. لكننا نريد أن يسأل الإنسان عن اختياريه بصدق: هل أمنع ظلمًا، أم أستبقي العقوبة لأنني لا أريد أن يهدأ غضبي؟ الفرق قد يكون دقيقاً، وهو مما يحتاج إلى علم ومحاسبة.

وقد يدلنا رجاء المغفرة على إصلاح غضبنا في الكلام. يمكن أن نحفظ حقك دون أن تفضح سرًّا، وأن نتعتذر عن الاستمرار في علاقة دون أن نختلق تهمة، وأن نتطالب

بمستحق دون أن تمنّ بكل معروف سابق. اليقين بالحساب
يجعلنا ننتبه إلى الوسائل، لا إلى النتيجة التي نريدها
فقط. لا ننجو من ظلم وقع علينا بأن ن ظلم غيرنا في الرد.
ولا يلزم أن تجد صفاءً كاملاً في أول خطوة. قد تفعل الخير
وأنت ما زلت تتألم، ثم يخف ما في نفسك بمرور الوقت،
وقد تحتاج إلى مجاهدة أطول. المهم ألا تجعل الألم عذراً لعدوان
تعرف تحريمه. النفس تتربى أحياناً بالفعل الصحيح
قبل أن تبلغ الشعور الذي نرجوه لها. اسأل الله أن يعينك على
العدل أولاً، ثم على العفو حيث يكون خيراً.

وحيث تكون أنت المسيء، لا تتخذ رجاء العفو حقاً تطالب به
الناس على الفور. اعتذر بصدق، وأصلح الضرر، وأعطهم وقتاً،
ولا تقل لهم: أين إيما نكم إذا لم تنسوا؟ العفو فضل لا
يستخرج بالاضغاط. واليقين بالله يعلمك أن تترك للناس
حقوقهم وأحوالهم، وأن تؤدي واجبك دون شروط تفرضها
على قلوبهم.

«ألا تحبون أن يغفر الله لكم» سؤال يرد القلب إلى حاجته
الكبرى. نرجو المغفرة، فنراجع ما نحتفظ به من رغبة في
الإيذاء، ونفرّق بين حق يلزم حفظه وغضب لا يلزم إدامته.
عاد أبو بكر إلى نفقته، وبقي الموقف يدلنا على أن العمل
القلبي قد يغير تصرفاً عملياً في أشد مواضع النفس
حساسية. نسأل الله أن يغفر لنا، وأن يعيننا أن نحب لعباده
من العفو والهدى ما نرجوه لأنفسنا.

ذلك مال رابح

قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرِبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَى بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعَّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِيِّنَ. فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ.^{٥٢}

قال الله تعالى:

٥٢. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم ١٤٦١؛ عن أنس، بلفظ عبد الله بن يوسف عن مالك: «رابح». بـيرحاء بستان أبي طلحة. آل عمران: ٩٢.

{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا
مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}٥٢

وقالت زينب امرأة عبد الله رضي الله عنهما:

كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ
حُلِيِّكُنَّ. وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَيَّتَامٍ فِي
حَجَرِهَا، قَالَ فَقَالَتْ لِعَبْدِ اللَّهِ سَلْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيَّ جُزِي عَنِّي
أَنْ أَنْفِقَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَيِّ تَامِي فِي حَجَرِي مِنَ الصَّدَقَةِ فَقَالَ
سَلِي أَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فَإِنْ طَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَوَجَدْتُ
امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى الْأَبَابِ، حَاجَتُهَا مِثْلُ حَاجَتِي، فَمَرَّ
عَلَيْنَا بِبِلَالٍ فَقُلْنَا سَلِ النَّبِيَّ ﷺ أَيَّ جُزِي عَنِّي أَنْ أَنْفِقَ عَلَى
زَوْجِي وَأَيِّ تَامٍ لِي فِي حَجَرِي وَقُلْنَا لَا تُخْبِرْ بِنَا. فَدَخَلَ
فَسَأَلَهُ فَقَالَ مَنْ هُمَا. قَالَ زَيْنَبُ قَالَ أَيْ الزَّيَّانِ ب. قَالَ امْرَأَةُ
عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ نَعَمْ لَهَا أَجْرَانِ أَجْرُ الْقِرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ.٥٣

بستان يخرج من يد صاحبه، ونفقة تصل إلى أهل بيت
وأي تام؛ صورتان مختلفتان، يجمعهما طلب ما عند الله. ليس
البر محصوراً في مقدار كبير يقدري عليه الأغنياء، ولا في
مؤسسة تحمل اسماً، ولا في سفر بعيد. قد يفتح لك باب

٥٢. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم ١٤٦١؛ عن أنس، بلفظ عبد الله بن
يوسف عن مالك: «رابع». بغيرحاء بستان أبي طلحة. آل عمران: ٩٢.

٥٣. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر، رقم ١٤٦٦؛ عن زينب امرأة
عبد الله بن مسعود. لا يستفاد منه إسقاط شروط استحقاق الزكاة، وتفصيل النفقة الواجبة
والزكاة يرجع فيه إلى بابيه.

في المكان الذي أنت فيه، مع أناس تعرف حاجتهم. تسأل عن الحكم إذا أشكل، وتتحرى المستحق، ثم تبذل في وضوح وأمانة.

وقوله «مما تحبون» يعيد النظر إلى تعلق القلب. قد نعطي ما لا نحتاج إليه، وهو خير إذا كان نافعًا، لكن يبقى في النفس باب أعلى: أن تختار من محبوبك ما ترجو به رضا الله. مال تؤثر الاحتفاظ به، أو وقت ثمين تبذله في حق، أو منفعة تؤديها لمحتاج. لا نضع مقدارًا تعبدية من عندنا، ولا نطالب من لا يملك أن يتظاهر بالسعة، وإنما نربي في أنفسنا الاستعداد للبذل المشروع حين يكون في اليد ما ينفع.

والربح في جواب النبي ﷺ ليس محصورًا في عائد مالي عاجل. لا نعطي لتلزم القدر بمضاعفة حسابك في موعد اخترته. الذي نوقن به ثواب الله على العمل المقبول، وما أخبر به من فضله، ونرجو بركته في الدنيا والآخرة. قد يوسع عليك، وقد يصرف عنك شرًّا، وقد يدخرك من الخير ما هو أعظم مما حسبت. وليس لك أن تشترط صورة واحدة ثم تحكم على صدقتك بالفشل إن لم تقع.

وقد يدخل في البذل رياء لا ينتبه له صاحبه. يحب أن يعرف أنه أعطى أحب ما عنده، فيكثر الحديث عن تضحيتته. يعالج نفسه بأن يتذكر لمن أعطى، وأن المنفعة ليس مطالبًا أن يحمل خبر فضله إلى الناس. وإذا احتاج

الإعلان لتشجيع التعاون أو لتوثيق المال، أعلن بقدر الحاجة،
وحفظ حرمة من أعطاه. لا ينبغي أن يدفع المحتاج ثمن
المعونة من ستره وكرامته.

ويحفظ اليقين حقوق من تعولهم أيضاً. ليس كل ما في يدك
مألاً خالصاً تتصرف فيه بلا قيد؛ قد يكون أمانة، أو متعلقاً
بنفقة واجبة، أو ديناً يلزم رده. لا تجعل الصدقة سبباً
لتضييع حق أقرب. في الخبر توجيّه من النبي ﷺ، وفي
حياة المؤمن سؤال عن الأولويات. البذل الذي يرضي الله لا
يبنى على أكل حق إنسان آخر أو إهمال من أوجب الله عليك
رعايته.

ومن المؤلم أن تنفق على غرباء ويكون في أهلك محتاج
تتجاهله لأن معاملته لا تمنحك شعوراً جديداً. قد نألف حاجة
القريب حتى تخفى علينا، بين ما يشدنا خبر نسمعه لأول
مرة. ليس البعيد أقل استحقاقاً لكونه بعيدياً، لكن الألفة لا
ينبغي أن تجعل القريب منسياً. خبر زينب يذكرنا أن
نفقة البيوت قد تكون باب أجر عظيم متى صحت النية
والموضع.

وللصغير نصيب من هذا المعنى. يمكن أن يتعلم أن يعطي
شيئاً نافعاً يحبه دون أن يكره على ما لا يطيع، وأن يرى
والديه بذلان برضا لا بمن. لا نشترى إخلاصه بالمدح أمام
الجميع، ولا نحوله إلى منافسة مع أخيه. نقرّب من معنى أن
الخير محبوب لله، وأن ما يخرج في سبيله ليس ضائعاً، ثم
نترك له مساحة ينمو فيها اختياريه.

وربما كانت أمانة اختياري الجهة أشق عليك من إخراج المال.
تحرّ، ولا تجعل حماسك يمنع السؤال عن وصول النفقة
واستعمالها. اليقين بالله لا يغني عن التثبت في تصرفات
البشر. تستطيع أن ترجو الأجر وأن توثق حق المستفيد،
وأن تجمع حسن الظن مع المراجعة. ما نطلبه أن يكون البذل
صالحاً في قصده وطريقه، لا أن يرضينا من ظره فقط.
ببرحاء بقي اسمها في خبر عطاء، ولم يبق في يد أبي
طلحة بستاناً ينتفع به وحده. وزينب عرفت أن ما تبذله
قريباً منها ليس خارج أبواب الأجر. ولعل لنا بين هذين
الخبيرين خطوة: ننظر إلى ما في أيدينا، وإلى من حولنا، وإلى
ما يحبه الله من صدق النية وحسن الموضع. ثم نعطي على
قدرنا، ونرجو أن يقول ميزان الآخرة عن عمل قلبه الله ما لا
تستطيع حسابات الدنيا أن تقوله.

أمانة على شاطئ البحر

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ:

أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أُلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ إِيَّتَنِي بِالشُّهُدَاءِ أَشْهَدُهُمْ. فَقَالَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَالَ فَأَتَنِي بِالْكَفِيلِ. قَالَ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا. قَالَ صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا، يَقْدُمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمَّ يَجِدُ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أُلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيْفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فَلَانًا أُلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا، أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقِدِرْ، وَإِنِّي أَسْتُودِعُكَهَا. فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَّجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ،

وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا، يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِبِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيْفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ،

فَأَتَى بِأَلْفٍ دِينَارٍ، فَقَالَ وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ
مَرْكَبٍ لَأَتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ
فِيهِ. قَالَ هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ قَالَ أَخْبَرْتُكَ أَنِّي لَمْ
أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ. قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ آدَى عَنْكَ
الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَإِنْ صَرَفَ بِأَلْفٍ الدِّينَارِ رَاشِدًا.^{٥٤}

هذه واقعة مخصوصة لا تجعل إلقاء المال في البحر وسيلة عامة
لقضاء الدين. ن تعلم منها صدق الوفاء، ونحفظ الحقوق
بالأسباب المتاحة لنا؛ والعبرة بسلامة المقصد والطريق معًا.

قد تشدنا الخشبة التي حملت المال، لكن موضع اليقين
الأوضح هو الإنسان الذي لم يتخذ الأمر العجيب إعفاءً من
مسؤوليته. لم يقل: ألقى المال وانتهى ما عليّ. ظل يبحث،
ثم حضر وفي يده ألف أخرى مستعدًا للأداء. صدقه بالله لم
يخفف ثقل الحق في ذمته؛ زاده إصرارًا على الوفاء.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَأَكْتَبُوهُ ۖ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ
يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ
سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ
بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ ۖ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا

٥٤. صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها، رقم ٢٢٩١؛ عن
أبي هريرة. «زجج موضعه»: سد الفتحة وأحكمها؛ «نشرها»: شقها بالمنشار.

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ
إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ
وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَلِكُمْ
أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۚ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۚ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ
وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٥٥

التوثيق يحفظ الطرفين ويعين على الوفاء. نأخذ
بالتحويل الموثق والعقد الواضح والإيصال الصحيح، ولا
نجعل الثقة بالله ستاراً لفوضى يمكن منها.

وفي الجانب الآخر يقيّن لا يقل أثراً: حين وصل المدين
بالألف الثانية، لم يسكت الدائن عن المال الأول الذي وجده، مع
أن صاحبه لم يكن يملك فيما يظهر وسيلة يثبت بها وصول
الخشربة. أخبره ورد الزيادة. إن كان اليقيني يمنع المدين من
المطالبة، فهو يمنع الدائن أيضاً من استئثار جهل الآخر
لصالحه.

٥٥. القرآن الكريم، البقرة: ٢٨٠ و ٢٨٢، في إنظار المعسر وتوثيق الديون.

وتتكرر الصورة من غير بحر: حوالة مصرفية تتكرر، بضاعة تصل أكثر من المطلوب، أجرة تُحسب خطأ، أو اشتراك يستمر بعد زوال سببه. السؤال ليس: هل سيكتشفون؟ بل: هل هذا لي؟ ومن عرف الجواب لم يحتج إلى مراقبة بشر كي يعيد المال أو يصحح الحساب.

وقال سبحانه:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.^{٥٥}

المعسر حقاً ليس كالمماطل. وعلى المدين أن يصدق في بيان عجزه، ويطلب المهلة، ويبذل ما يستطيع. تحفظ الشريعة الحق، وترحم العجز، ولا تبيح لأحد الطرفين أن يتخذ النص ذريعة يظلم بها الآخر.

القصة إذن لا تعلم أن تظار خارقة، بل توضح الأعذار الصغيرة التي نختبئ خلفها. قد لا تجد المركب الذي خططت له، لكنك تبحث عن وسيلة أخرى، وتخبر صاحب الحق، وتحفظ الدليل، وتبقى مستعداً للأداء. اليقيني لا يسقط السبب حين يتعذر سبب واحد؛ يحرر الإرادة لتواصل ما تقدر عليه.

^{٥٥} القرآن الكريم، البقرة: ٢٨٠ و ٢٨٢، في إنظار المعسر وتوثيق الديون.

أثري بقى

راجع حقاً مالياً واحداً في زمتك أو يدك: ديناً، أو أمانة، أو مبلغاً مشرتبهاً فيه، أو وعداً حل أجله. وثقه، وأبلغ صاحبه بحاله، وأد ما تستطيع اليوم. الألف دينار لم تصبح درساً خالداً لأنها عبرت الماء وحده، بل لأن قلبين قدما حق الله على فرصة الكسب العاجل.

حين تكسب القضيّة وتخسر الحق

قال وائل بن حجر رضي الله عنه:

جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ
الْحَضْرَمِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ لِي كَانَتْ
لأَبِي. فَقَالَ الْكِنْدِيُّ هِيَ أَرْضِي فَيُؤَدِّي أَرْضَهَا لِي سَلِّمْ لَهُ فِيهَا
حَقٌّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْحَضْرَمِيِّ أَلَيْكَ بَيِّنَةٌ. قَالَ لَا. قَالَ
فَلَمَّا يَمِينُهُ. قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ فَاجِرٌ لَا يُبَالِي عَلَى
مَا حَلَفَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ. فَقَالَ لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا
ذَلِكَ فَانْطَلِقْ لِيْ حِافَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَدْبَرَ أَمَّا لَيْنُ
حَافَ عَلَى مَالِهِ لِيْ أَكَلَهُ ظُلْمًا لِيْ لَقِيََنَّ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ.^{٥٦}

وروت أم سلمة رضي الله عنها:

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ
أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا
بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا.^{٥٧}

٥٦. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم ١٣٩؛ عن وائل بن حجر، بلفظ قتيبة. الحضرمي من حضرموت والكندي من كندة.

٥٧. صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم ٢٦٨٠؛ عن أم سلمة. «ألحن بحجته»: أبلغ وأقدر على عرضها.

هذه من زلة عملية لليقين بالآخرة. لا يكفي أن تكون الأوراق في صالحك إن كنت تعلم أنها بنيت على كذب. ولا يكفي أن يصدق الناس روايتك إن أخفيت منها ما يثبت حق غيرك. النظام الظاهري يفصل بين الخصومات بحسب الأدلة، أما ضمير المؤمن فلا يستبيح ما يعلم بطلانه لمجرد أن الطرف الآخر عجز عن إثباته. لله حساب لا يسقط بفقد شاهد أو ضياع مستند.

ولا تدعونا القصة إلى ترك القضاء أو إلى اتهام كل حكم لا يعجبنا. في الموقف النبوي احترام للبيئة واليمين، ومنع لأن تصبح الدعوى وحدها سبيل أخذ الأموال. لا يستطيع كل شخص أن يقول: أنا أعلم أن الحق لي، ثم ينفذ رأيه بالقوة. نلجأ إلى الطرق المشروعة، ونؤدي ما يلزم من أدلة، ونحفظ الصدق في داخلها. الحذر من الكذب ليس طعنًا في أصل العدل والقضاء، بل حماية لهما.

وقد تدخل هذه المسألة في أمور لا نراها قضايًا كبرى. شرري كان اختلافا في نفقة، أو عامل لا يملك إثبات ساعات عمل، أو قريب بضاعت منه ورقة، أو بائع يستطيع أن يفسر شرطًا على وجه يعلم أن صاحبه لم يرض به. حين تسأل نفسك: هل يمكن أن أربح؟ أضف سؤالاً أهم: هل هذا حق؟ الأول يتعلق بما تستطيع، والثاني بما يحل لك.

وقد يكثر المرء من الحديث عن المراقبة واليقين، ثم يكون أشد الناس استعماً للغموض في العقود. يطمئن نفسه بأنه لم يكذب لفظاً، لكنه رتب الكلام ليُفهم خلاف الواقع. لا يكفي

أن تنجو الجملة من وصف الكذب المباشر إذا كان مقصدك إيقاع
غيرك في خطأ تنتفع به. الأمانة في البيان تجعل ما
تتفقان عليه مفهوماً، ولا تحتفظ بثغرة تستخدمها
عند أول خلاف.

وتحتاج النفس إلى تربوية خاصة حين يكون النزاع مع من لا
تحب. قد تقول: لقد ظلمني من قبل، فلا بأس أن آخذ منه
الآن ما أستطيع. لكن الحقوق لا تختلط في يد الغضب بلا
علم. اطاب حقلك بطريقه، ولا تجعل مظلمة سابقة إنزاً
مفتوحاً لظلم جديد. وإذا التبس عليك ما يجوز في
استيفاء حق، فاسأل أهل العلم ولا تجعل رغبتك هي
المفتي.

ومعنى حديث أم سلمة يردنا إلى الفرق بين البيان والتمويه.
قدرة الإنسان على الكلام نعمة يستطيع بها شرح الحق ونصرة
الضعيف، وقد يجعلها وسيلة لطمس الحقيقة. ليست فصاحة
اللسان دليلاً على سلامة القلب. وقد ترى من يحسن ترتيب
الحجج، لكن أمانته تظهر حين يعترف بالمعلومة التي لا
تخدمه. ذلك الاعتراف قد ينقص فرصة انتصاره في
المجلس، لكنه يحفظ عليه دينه.

وإذا كنت تعين غيرك في نزاع، فلا تكن تابعاً لغضبه.
اسمع منه، وابحث عن الدليل، وذكّر بما عليه كما تذكره بما له.
من الصداقة أن تمنعه من كذبة ستبقى في صحيفته، لا أن

تعلّمه كيف يخفيها. وقد يضيّق بإنصافك أول الأمر، ثم يعرف قيمته حين يهدأ. أما الموافقة على كل ما يقول فليست نصرةً له، ولو سمّاها الناس وفاءً.

وللمظلوم في هذه النصوص تثبيت أيّ ضراً. قد يبذل وسعه في طلب الحق، ثم لا يثبت له في الدنيا ما يعرفه. لا نقول له إن الأمر هين، ولا نمنعه من مراجعة صحبة أو استئناس مشروع، لكن نذكره بأن عدل الله لا يقف عند ما عجز الناس عن معرفته. يحفظ لسانه من افتراء، ويستمر في الأسباب المتاحة، ولا يجعل الظلم الذي لقيه سبباً لفساد بقية حياته.

ولا تعني الثقة بحساب الله ترك التوثيق. احتفظ بالاتفاقات، وبيّن الحقوق عند أول المعاملة، ولا تستح من كتابة ما يحتاج إلى كتابة. قد يفقد المال بنسيان لا بخيانة، وقد يحفظ المستند العلاقة قبل أن يحفظ قيمة النزاع. هذه أسباب حكيمة، لا ضد لليقيني. القلب يعتمد على الله، واليد تؤدي ما تستطيع من حفظ الحقوق.

وتبدأ مراجعتنا من صغائر اعتدنا تجاوزها. هل أخذت زيادة تعلم أنها خطأ؟ هل حجبت رسالة كان ينبغي نبغي أن تصل؟ هل نسبت إلى غيرك موافقة لم يقر لها؟ هل استعملت ضعف شخص في التعبير لتجعله يتحمل ما ليس عليه؟ لا تحتاج إلى انتظار محكمة كي تجيب. رد الأمر إلى الصدق في موضعه، واعتذر، وصح ما أمكن قبل أن يكبر.

يَكسب الإنسان أحياناً تصفيق المجلس ويخسر سلامة الموقف.
واليقين الذي نرجوه يعلمنا أن الربح الحقيقي ليس أن نسكت
خصمنا، بل أن نلقى الله ولم نتمدأكل حقه. نطالب العدل
لأنفسنا ولغيرنا، ونحسن عرض حجتنا، ثم نقف حيث
يقف الحق. اللهم ارزقنا لساناً صادقاً، وقلباً يخشاك في السر،
وأعناً أن نرد ما ليس لنا ولو لم يطالبنا به أحد.

كلمات الغلام

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ
أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ أَحْفَظُ اللَّهَ تَجِدُهُ تَجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ
فَأَسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ
اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ
كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ
يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأُقْلَامُ
وَجَفَّتِ الصُّحُفُ.^{٥٨}

حفظ حدود الله يكون بالقيام بأوامره واجتناب نواهيه
والوقوف عند ما أذن فيه. لا يفهم من الوصية أن الله يحتاج
إلى حفظ أحد؛ نحن المحتاجون إلى هدايته وحفظه. فابداً
بصلاة تحفظ وقتها، وأمانة تؤديها، ولسان تكفه عما
يحرّم.^{٥٩}

ثم يأتي سؤال الله والاستعانة به. قد يحتاج الغلام إلى من
يعلمه أو يحمّله أو يساعده، ولا تمنعه الوصية من طلب معونة
مقدور عليها من البشر. لكنها تعلمه ألا ينسى أصل افتقاره:

٥٨. جامع الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم ٢٥١٦؛ عن ابن عباس. قال الترمذي:
حديث حسن صحيح. لم يسم الباب في هذا الموضع من النسخة المعتمدة.

الله هو الذي ييسر الأسباب وييسره على استعمالها. لا يصير المعلم أو صاحب المال مالكا لقلبه، ولا يحمل مخلوقاً من الرجاء والخوف ما لا يليق إلا بالله.

قال ابن الديلمي:

أَتَيْتُ أَبَيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ لَهُ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَذِيبَهُ مِنْ قَلْبِي . فَقَالَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَابَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ أَنْ فَقْتُ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُوْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيْ خُطِيئِكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأكَ لَمْ يَكُنْ لِيْ صِيْبِكَ وَلَوْ مِتُّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتُ النَّارَ . قَالَ ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ - قَالَ - ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ - قَالَ - ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ .^{٥٩}

لم يجعل ابن الديلمي السؤال عيباً يخفيه حتى يكبر، ولم يذهب به إلى من يزيد حيرته بلا علم. طلاب البيان من أصحاب رسول الله ﷺ وفي هذا طريق نافع لمن أقلقته مسألة: سم ما أشكل عليك، واطلب جوابه من موضعه، ولا تترك

٥٩. ينظر ابن رجب، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع عشر، في حفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه.

٦٠. سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٦٩٩؛ عن ابن الديلمي. صححه الألباني. الوعيد عام في جحد القدر؛ وليس حكماً على شخص معين ولا على الخاطر الذي يدفعه صاحبه ويطلب بيان الحق فيه.

المقاطع المتفرقة تبني في قلبك أسئلة لا تنتهي. بعض الراحة أن يصل السؤال إلى أهل العلم بدل أن يبقى حديثاً مغلقاً مع النفس.

ومعرفة أن المقادير مكتوبة لا تخبرك قبل الفعل بما ستختره، ولا تعفيك من الأمر. أنت تعلم أن الصلاة فرض، فتقوم إليها، وتعلم أن الظلم محرم، فتجتنبه، وتعلم أنك مأمور بالسعي في النافع، فتسعى. لا تحتج بعلم غيب لم تطلع عليه لتترك واجباً معلوماً. وحين يقع ما لا تملك رده، تتعلم منه ما تستطيع، وتسلم لله فيما مضى، بدل أن تعيش في خصومة لا تنتهي مع الماضي.

ويظهر أثر هذا العلم في الخوف من الناس. قد يكون إنسان سبباً في منفعة أو ضرر، فتتخذ ما يحميك من ظلمه وتطلب ما عنده بطريق حلال. لكنك لا تجعله مستقلاً بالأمر، ولا تبيح لنفسك معصية الله لتأمن غضبه. حين يفهم القلب حدود قدرة الخلق يخف شيء من تعلقه بهم، ويقدر أن يقول الحق برفق، وأن يصبر على فوت منفعة لا تحل بطريقها.

ولذلك ينبغي أن نعلم أبناءنا مع طلاب النجاح معنى الاستعانة بالله. يعمل الصغير، ويتعلم، ويسأل، ويجتهد، ثم لا يظن أن قيمته بنفسه كلها مرهونة بنتيجة واحدة. لا نقول له إن الدعاء سيعطيه حتماً الدرجة التي يريدها، ولا إن تعثره

يعني أن الله لا يحبّه. نقول: ابذل ما تستطيع من سبب،
وصدق مع ربك، وتعلم من النتيجة، ونحن نعينك على الخطوة
التالية.

وقد نحتاج نحن إلى أن نسمع هذا كما يسمعه الغلام. نتعلق
بقبول وظيفة أو صفقة أو جواب شخص، حتى تصبح
كأنها الباب الوحيد للحياة. نأخذ بالأسباب، ثم نستحضر أن
الخير أوسع مما أحطنا به. إذا فات شيء، لم يفت الله العبد؛
يستطيع أن يدعوه ويطيعه ويسأله من فضله. لا يعني ذلك
ألا يحزن، بل ألا يحول الحزن إلى حكم بأن أبواب الخير كلها
انتهت.

وفي حفظ الحدود أمانة عند القوة أيضاً. من خاف الله عند
ضعف يديه يحتاج أن يحفظه حين تتسع قدرته. لا يكون
اليقين دواءً نستعمله عند العجز ثم نتركه عند التمكين. قد
تستطيع أن تظلم ولا يعتريك أحد، لكن الوصية لم تتغير:
احفظ حدود الله. وربما كان امتناعك مع القدرة أصدق شاهد
على ما في قلبك من إيمان بالحساب.

ولا تحمل الوصية على ضمان ألا يصيب المؤمن مرض أو فقد أو
أذى. حفظ الله أوسع من تصورنا للسلامة العاجلة، والأنبيا
أنفسهم ابتلوا. نسأله العافية، ونستعمل أسبابها، ونرجو
أن يحفظ علينا الدين في كل حال. وقد ينجو المرء من خسارة
الدنيا ثم يفسد قلبه بالكبر، ويبتلى آخر في توب
ويصبر. لا نستطيع اختزال الخير في صورة واحدة مما نحب.

غلام يسمع كلمات، وطالب علم يسأل عدة صحابة، وأمة تحفظ
من ذلك ما يصلح قلوبها. ليس اليقين ميراث عمر فقط؛ هو
علم يُتلقى، وعبادة تُمارس، ومجاهدة تتجدد. ابداً من
الوصية بما تعرف اليوم: احفظ حقاً، واسأل الله، واستعن به،
ولا تجعل الخلق أكبر في قلبك من قدرهم. وما عجزت عن
إصلاحه فاطلب عونه عليه، فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا به.

الباب الخامس: قلوب تثبتت على الحق

ولكنكم تستعجلون

قال خباب بن الارت رضي الله عنه:

شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكُعبَةِ، قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِي مَنْ قَبْلِكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فِي جُعْلٍ فِيهِ، فِي جَاءَ بِالْمِنْشَارِ، فِي وَضِعَ عَلَى رَأْسِهِ فِي شَرْقٍ بَاثِنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذُّيْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنْ كُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.^{٦١}

حمل الوعد النبوي خباباً إلى ما وراء الاستضعاف الذي يراه. لم تكن البشارة توقفاً متفائلاً، بل خبراً من الرسول ﷺ بإتمام هذا الدين وانتشار الأمن. وفي انتظار ذلك كان عليهم أن يثبتوا على الحق الذي عرفوه، وألا يجعلوا طول الأذى دليلاً على بطلانه.

أما ذكر من مضى، فلم يكن لتسوية حقوق الظالم والمظلوم، أو لإخبار المؤمنين أن أذاهم أمر يسير لا يستحق أن يذكر. كان تثبيتاً لهم بأخبار من آمن قبْلهم، وبياناً أن طول الطريق

لا يبطل الحق الذي اختاروه. قد يحمل المرء في نفسه تصوراً غييراً معلناً: إذا آمنت وفعلت الصواب، فلا بد أن يزول كل أذى سريراً. ثم يشهد عليه البلاء لأن الواقع يخالف هذا التصور، لأن إيماناً بلا دليل.

ومن هنا تقترب من كلمة الاستعجال. نحن نعيش الزمن يوماً يوماً، ونحسب ما بذلناه وما تأخر عنا. وقد تكون المدة التي مضت طويلة فعلاً في إحساسنا. لكننا لا نحيط بما يحتاج إليه العمل، ولا بما يقدره الله من النتائج. يحتاج المبتدئ إلى وقت يتعلم فيه، والمربي إلى صبر على من يربيه، والناجب إلى مجاهدة يكررها. لا تنقلب الطاعة عبثاً لأن أثرها لم يظهر في المدة التي حسبتها.

والصبر غير الجمود. خباب قصد رسول الله ﷺ وسأله، ولم يجعل ألمه سراً يخجل من عرضه على من يعينه. وفي سيرة الدعوة أخذ بالأسباب وهجرة وعمل وتعليم؛ لم يكن الثبات انظاراً عاطلاً. تستطيع أن تطلب إنصافك بالحق، وأن تستعين على دفع ضرر، وأن تغير سبباً ثبت فساد، وأن تصبر لا تتسخط على الله. الصبر يحفظ دينك في الطريق، ولا يمنع قدمك من السير فيما ينفع.

وقد يحتاج من يتعرض للأذى إلى حماية عاجلة، لا إلى موعظة تجعله أكثر تعرضاً له. ليس لأحد أن يقرأ هذا الحديث على ضعيف ليقويه تحت ظلم يستطيع دفعه، ثم يسمي عجزه

٦١. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦١٢؛ عن خباب بن الارت. «بردة»: كساء؛ «تستنصر»: تطلب النصرة. البشارة النبوية الخاصة لا تحدد مواعيد لحاجات القارئ الشخصية.

عن مساعدته تربيةً على الصبر. من حق المظلوم أن يجد عوناً،
ومن واجب القادر ألا يتخذ فضل الصابرين عذراً لترك
الإنصاف. الموعظة التي تستعمل الحق لتبرير الباطل لا
تؤدي حق النص.

وقد تعجل في أمر قريبي من حياتك: تساعد ولدك على
تصحيح عادة، ثم تستبطئ تغيره بعد محاولات قلبية.
اسأل عن مناسبة ما تفعله، وعدل طريقة التعليم إن احتاجت
إلى تعديل، وأمهله ليتعلم. لا تجعل صدق رغبتك في إصلاحه
سبباً لمطالبته بنتيجة لا تنمو في يوم؛ رحمتك وصبرك
جزء من العمل الذي يرجو نفعه.

ويحتاج القلب هنا إلى غاية أبعد من الانتصار لنفسه. قد
نطالب زوال الظلم ونرجوه، وهذا حق، لكننا نريد أيضاً أن نلقى
الله غير ظالمين. بعض المعارك اليومية يمكن أن نكسبها
بكلمة كاذبة أو بخيانة سر، غير أن اليقين بالحساب يجعل
في النفس مانعاً: لا يصلح أن أفرد من ظلم وقع عليّ إلى ظلم
أوقعه بغيري. ليس كل طريق يوصل إلى غرضي طريقاً يحل
لي سلوكه.

وحين يطول انتظارك، لا تحمل المدة كلها مرة واحدة. انظر إلى
ما في يومك من واجب ممكن. أدِّ صلواتك، واطلب المشورة
النافعة، وأنجز ما تستطيع، وأرح بدنك مما لا يلزمك. لا
يعني هذا أن المشكلة قد صغرت، لكنه يمنحها أن تبتلع كل ما
بقي لديك من الخير. قد يثبت القلب بعمل صادق قريب
أكثر مما يثبت بكثرة التفكير في نهاية لا يملكها.

ومن الرفق أن نتذكر أن طلب الدعاء لا ينافي الصبر. خباب
سأل الرسول ﷺ الدعاء، والمؤمن يسأل ربه الفرج والعافية.
ليس مطلوباً أن يتظاهر بالاكْتفاء عن النجدة كي يبدو
قوياً. الذي يعلم أن الله على كل شيء قدير يكثر الالتجاء إليه؛
يقينه يدعوه إلى السؤال، لا إلى كتمان حاجته عن نفسه.

نسمع اليوم البشارة التي سمعها خباب، ونعرف من تحقق
خبر النبي ﷺ ما لم يكن قد وقع وقت سؤاله. أما حاجاتنا
الخاصة فلا نملك لها موعداً من عندنا. نستعين بهذا الخبر
على الثقة بصدق الرسول، وعلى الصبر في طاعة الله، وعلى
تصحيح عجلتنا حين نريد أن تحاكم الحق إلى راحة عاجلة.
اللهم ارزقنا صبراً لا يترك العمل، ورجاءً لا ينسى العبودية،
وثباتاً نحفظ به ديننا حين يطول ما ننتظره.

والله خير وأبقى

قال الله تعالى:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ
 ٦١ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ
 تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا
 سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
 ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿فَغُيِّبُوا هُنَالِكَ
 وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿قَالُوا آمَنَّا
 بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ
 بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ ۚ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
 لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
 وَأُزْلِمُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصِيبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى
 رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا
 لَمَّا جَاءَتْ ۖ إِنَّا فَدَّرْنَا عَلَيْهَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۖ ٦٢﴾

وقال سبحانه:

٦٢. الأعراف: ١١٢-١٢٦؛ وفيها طلب السحرة الأجر، ثم إيما نهم وتهديد فرعون ودعاؤهم. لا يلزم من ثباتهم إهمال أحكام الإكراه واختلاف الاستطاعة.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} ٧٢
 قَالَ بَلْ أَلْقُوا^١ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
 أَنَّهَا تَسْعَى {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} ٧٣ قُلْنَا لَا
 تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى {وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا
 صَنَعُوا^٢ إِنَّ مَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى
 {فَالْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} ٧٤
 قَالَ آمَنَتْمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ^٣ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ
 السِّحْرَ فَلَمَّا قَطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي
 جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى {قَالُوا لَنْ
 نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا
 أَنْتَ قَاضٍ^٤ إِنْ مَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} ٧٥ إِنْ آمَنَّا
 بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ
 خَبِيرٌ وَأَبْقَى {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا
 يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} ٧٦ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ
 الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى {جَنَّاتُ عَدْنُ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى {٧٣}

ما أبعد ما بين السؤال الأول عن الأجر عند فرعون، وبين
 السؤال الأخير عن مغفرة الله. لم تُمحَ أفعالهم الماضية من
 ذاكرتهم، ولم يدعوا أنهم لم يكونوا أهل خطأ. قالوا: ليغفر لنا

٦٣. طه: ٦٥-٧٦. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآيتين ٧٢-٧٣.

خطايانا. هذه توبة تعرف ما مضى، وتختار طريقتاً جديداً. وقد يتحول أكثر ما كان الإنسان يطلبه إلى شيء يتركه حين يعرف ما هو أعظم منه.

ولعل في القصة رجاء لمن أثقله ماضيه. لا يلزم أن تكون قد سرت عمراً طويلاً في الطريق الصحيح حتى تبدأ اليوم في اتباعه. معرفتك بخطئك لا تعني أن الحق ليس لك، وإن ما تعني أن أمامك باب رجوع. الذين سجدوا كانوا قبل ذلك يلمسون الغلبة بصنعتهم. فلما ظهرت البينة لم يجعلوا ما سبق منهم حجة على أن يستمروا في الباطل.

ما عند الله خير وأبقى مما يعد به فرعون أو يهدد به. ويتصل بهذا الميزان سؤال صغير في أيامنا: ماذا ندفع لنحصل على منفعة لا تبقى؟ قد نكتم حقيقة ليقبلنا صاحب نفوذ، أو ننسب إلى أنفسنا عمل غيبرنا طلباً لمكافأة. لنعرف ما نخسره من صدقنا قبل أن نحسب ما سنأخذه.^{٦٣}

وليس المقصود أن نتصنع مواقف شديدة لنعرف مقدار إيماننا. نسأل الله العافية، ونؤدي ما يلزمنا حيث نحن. قد يكون موضع الصدق أن ترفض مشاركة في كذب، أو أن تعتذر عن كلام ظلمت به إنساناً، أو أن تعترف بجهلك بعد أن كنت تتصدر للجواب. لا تبحث عن مشهدي صفق فيه الناس لثباتك؛ ابحث عن الحق الذي تعرفه وتتهرب من أدائه.

وفي تهديد فرعون معنى نراه في صور مختلفة: يريد صاحب القوة أن يجعل قدرته على الإيذاء دليلاً على صحة قوله. لكن القدرة لا تصنع حجة. قد يملك إنسان أن يسكت غيره، ولا

يملك أن يجعل كلامه صحيحاً. ومن اليقين أن يميز القلب بين الخوف من تبعة القرار وبين الحكم على القرار نفسه. قد تخشى العاقبة وتحتاج إلى من يعينك، لكن خوفك لا يقلب الحلال حراماً ولا الكذب صدقاً.

ولا نعامل المستضعفين بقسوة حين يتخلف ما يستطيعون؛ فالإكراه له أحكامه، والقدرة تخلف، والله يعلم ما في القلوب. ليس هذا الفصل مجلساً لنحاكم به من وقع تحت تهديد لا نعرفه. نقرأ موقفاً عظيمًا فنرجو الثبات، ونرحم الضعيف، ونطالب العلم بالحكم الذي يحتاج إليه، ولا نتنافس في تكليفه ما نعجز نحن عن احتماله.

ويستحق طالب المغفرة في كلام السحرة أن يبقى معنا. لم تجعلهم شجاعة اللحظة مستغنيين عن العفو. الذي ازداد علمًا بالله قد يزداد معرفة بتقصيره، فيسأل المغفرة ويصلح ما يقدر عليه. لا تجعل قراراً صحيحاً واحداً شهادة دائمة لنفسك؛ اشكر الله عليه، ثم حافظ على ما بعده. الرجوع إلى الحق بداية مسئولية، لا نهاية الحاجة إلى التربية.

وربما خسرت شيئاً حين صحت طريقتك. قد تنقص من فعة محرمة، أو يضيق بك من كان ينتفع بخطئك. حينئذ تعود كلمة (خَيْرٌ وَأَبْقَى) إلى موضعها العملي. لا تقول إن الخسارة لم تقع، لكنك تعرف أن ما عند الله ليس أقل من كل

٦٣. طه: ٦٥-٧٦. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآيتين ٧٢-٧٣.

ما يلوح أمامك. يسهل على اللسان أن يقول ذلك في السعة،
ونحتاج إلى عون الله كي نعمل به حين يدعونا الهوى إلى
خلافه.

لم يمنعهم ما سبق من خطيئهم أن يسجدوا حين ظهرت البينة.
فليكن ندمك باب رجوع، وليكن ما تعلمته اليوم أصدق أثرًا
في قرارك من خوفك أن يذكرك الناس بموقفك القديم.

رب ابن لي عندك بيتاً

قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.^{٦٤}

كان فرعون يملك سلطاناً في الدنيا، ولكنها لم تر في هذا السلطان غاية تغنيها عن الله. سألت بيتاً في الجنة، وسألت النجاة من الرجل وعمله والقوم الظالمين. في الدعاء طاب خير وإعراض عن شر، لا مجرد حلم بموضع أجمل. كانت تريد أن تسلم من الظلم والكفر، وأن تنال ما عند ربها، فاجتمع في سؤالها أمر الدين وأمر النجاة.

وحين جعلها الله مثلاً للذين آمنوا، لم يخصص الرجال دون النساء، ولا أهل الرخاء دون أهل الشدة. نتعلم جميعاً من قلب لم يجعل جواره لأهل الباطل سبباً للرضا بباطلهم. وقد نعتذر نحن بأقل من ذلك: بيئة العمل لا تساعد، أو الصحبة لا تقبل، أو الأسرة اعتادت هذا الخطأ. تؤثر البيئة فينا، لكن تأثيرها ليس حكماً لا يمكن مقاومته، ولا عذراً واحداً يصلح لكل تقصير.

٦٤. التحريم: ١١. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية.

لكل إنسان مسؤوليته بين يدي الله. لا تصير المرأة شريرة في ذنب قري بها لمجرد قربها، ولا يغلق فساد المحيط باب الطاعة على من يسعى إليها. نحسن إلى أهلنا فيما يحل، وننصح بقدر العلم والقدرة، ونمتنع عن مشاركة نعلم أنها ظلم.^{٦٤}

وقد يكون ما تقدر عليه كلمة هادئة أو امتناعاً صادقاً عن أذى. لا تحتقره لأنك عاجز عن تغيير كل من حولك؛ تؤدي حقاً تملكه الآن، وتسال الله أن ييسر ما وراءه.

ويظهر في دعائها أن سؤال النجاة لا يناقض الثبات. لم تقل إن عليها أن تبقى عرضة للظلم حتى يصح إيمانها، بل سألت ربها أن ينجيها. لذلك لا نستخدم قصتها للإلزام متضررة بالبقاء في أذى تستطيع دفعه بالطرق المشروعة. الإعانة على الأمان، والاستشارة الأمينة، وطلب الحق، أعمال لا يعارضها هذا الدعاء؛ بل فيه التوجه إلى الله بطلب الخلاص من الظالمين.

قد يكون القارئ في بيت تخلف فيه الأفكار والعادات، وليس كل اختلاف ظلمًا أو كفرًا. لا نضع أسماء القصة على كل خصومة أسرية. المقصود أن نعرف أصلًا نحتاجه: طاعة الله أعلى من ضغط المحيط، ولكل إنسان مسؤوليته، والرفق لا يعني أن يوافق المرء على الباطل. حسن المعاشرة شيء، وترك الفرائض أو الاعتداء على الحقوق إرضاءً لأحد شيء آخر.

وفي طلب البيت في الجنة حضور للآخرة يتجاوز زينة المكان الحاضر. حين يؤمن القلب بحياة لا تنتهي، لا يعود كل ما يراه الآن معيارًا وحيدًا للنجاح. قد يكون الإنسان قليل المال

مستقيماً، فيرجو عند الله خيراً عظيمًا. وقد يحيط به
تدبر كثير وهو يعلم أن في طريق كسبه ظلمًا. لا يحكم حجم
المسكن على حقيقة القصد، ولا يرفع اتساع الملك صاحبه
فوق السؤال.

لا يعني هذا أن نكره ما أباح الله من السعة. نستعمل النعمة في
الخير ونشكره عليها، ونطلب رزقاً طيباً ومسكناً صالحاً. إننا
نرفض أن تصبح السعة ثمناً لديننا، أو أن تكون موافقة
صاحب المال أحب إلينا من رضا الله. قد يصح قصدك في بيت
جميل كما يصح في بيت ضيق، وقد يفسد في الحالي ن.
الميزان في القلب والعمل، لا في الحكم السريع على صور حياة
الناس.

وربما كان أكبر امتحان عند بعضنا طلاب رضا قريبي شديدي
التأثير. نخشى غضبه فنؤجل القرار الصادق، ونقول إننا
سنصلح الأمر حين يرضى. ليس كل إصلاح يستلزم مواجهة
حادة؛ ابحث عن حكمة ووقت مناسب، واستعن بمن يصلح
ببينكما. لكن لا تجعل تأجيلك بلا نهائية. اعرف ما يلزمك، وأدّه
بأحسن ما تقدر عليه من أدب، واطلب من الله ثباتاً لا
يصحبه عدوان.

ويحفظ لنا القرآن دعاء امرأة مضت، فنقرؤه بعد أجيال،
ونجد فيه معنى يسع حاجتنا. قد لا نعيش ظرفها، لكننا
نحتاج إلى النجاة من أعمال تفسد ديننا، وإلى رجاء الجنة

٦٤. التحريم: ١١. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية.

الذي يميننا من بيع الآخرة. لا يلزم أن تعرف كل تفصيل من تاريخها لتنتفع بما أثبتته الله؛ في الدعاء والمثل بيان كافٍ لموضع العبرة.

إذا وجدت نفسك أسيرًا لما يراه من حولك، فاسأل: لمن أنا في النهاية؟ وما الذي أرجوه حين تنتهي هذه الحياة؟ لا تنس حقوق أهلك، ولا تتعالى عليهم، ولكن احفظ حق ربك. نسأله بيوتاً في جنته، ونجاة من الظلم وأعماله، وقلوباً تعرف أن قربها منه بطاعته خير من قرب يمينها الناس إياه على حساب دينها.

فتية آمنوا بربهم

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ
 ﴿١﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ
 رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ ﴿٢﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي
 الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۖ ﴿٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاَهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ
 أُخْصِيَ لِمَا كَانُوا أُمَدًا ۖ ﴿٤﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ۖ
 إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۖ ﴿٥﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى
 قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو
 مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ۖ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۖ ﴿٦﴾ هُوَ لَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ
 دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَوْلَايَ أَتَوْنَنَا عَلَيْهِمْ بِبِسُلْطَانٍ بَيْنَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ ﴿٧﴾ وَإِذْ أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْزُدُونَنَا إِلَّا
 اللَّهُ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ لِنَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ
 مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۖ ﴿٨﴾ ۝

وقال سبحانه في بقية خبرهم:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا
 غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۚ ذَلِكَ مِنْ
 آيَاتِ اللَّهِ ۚ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۚ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ

٦٥. الكهف: ٩-١٦؛ في إيمان الفتية ودعائهم والربط على قلوبهم واعتزالهم عبادة غير الله.

وَلِيًّا مُرْشِدًا ۝ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقِيبُهُمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ
اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۝ وَكَذَلِكَ
بَعَثْنَا هُمُومًا إِلَيْكَ يَوْمَكَ قَالُوا يَا مَرْسَلُ مَاذَا جَاءُكَ قُلْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ
أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ۚ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعْدِيْوْكُمْ
فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۝ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ۚ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ
بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ
قَالَ الَّذِينَ غَابُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنْ تَخْذَنْ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۝
سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَاْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَابُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَاْبُهُمْ ۚ قُلْ
رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۚ فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا
مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَلَا تَقُولَنَّ
إِشْرَاءِ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۝
وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝ قُلْ
اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۚ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ
وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۚ ٦٦

٦٦. الكهف: ١٧-٢٦؛ في الحفظ والبعث وصدق الوعد وآداب الكلام فيها لم يحط به الإنسان علماً. ويظهر
ابن كثير، تفسير هذه الآيات.

الإيمان لم يمنع الفتية من التفكير في الطعام وتدبير من يذهب لشرائه ومراعاة الخطر. الثقة بالله تصحب العناية بما يحتاجه البدن؛ فلا يستحي المؤمن من حاجة مباحة، ولا يجعل الرجاء عذراً لتترك الاحتياط الذي يقدر عليه.

كان تثبيت قلوبهم فضلاً من الله. فإذا رأيت في نفسك إقبالاً على خير فاشكر من أعانك عليه، واسأله أن يديمه. لا تجعل لحظة ثبات شهادة تستغني بها عن النصيحة؛ فما زلت تحتاج إلى هداية ربك في الخطوة التالية.

وتتكرر في حياتنا حاجة الفتية إلى صحبة تحفظ الدين. ربما سهّل عليك صديق معصية حتى صارت عادية في نظرك، وربما أعانك آخر على عمل كنت تؤجله. لا تتساوى المجالس في أثرها. احرص على من يستطيع أن يقول لك الحق برحمة، ومن لا يبتزك بالمحبة لتوافقه على خطئه. الصديق الذي يترك لك مكاناً آمناً للتوبة خير ممن يشترط لبقاء صحبتك أن تبقى كما كنت.

لكن قصة الكهف لا تجعل الانعزال عن الناس أصلاً لكل إصلاح. كان لهم ظرفه الذي ذكره القرآن، ولا نأخذ منه دعوة عامة إلى هجر الأهل والأعمال وخدمة المجتمع. قد يكون خيرك في أن تخالط الناس وتحسن إليهم، وقد تحتاج إلى مفارقة مجلس بعينه لأنه يفسد عليك دينك. يختلف القرار باختلاف الحال، وليس كل ضيق دعوة إلى الهرب، كما ليس كل بقاء شجاعة محمودة.

ومن أجمل ما في دعائهم اقتران الرحمة بالرشد. قد يطلب الإنسان خلاصًا عاجلاً ولا يفكر إلى أين يقوده. أما الرشيد فيعيّنه على أن يسلك الطريق الصحيح، لا الطريق الأسهل فقط. ربما كان القرار المريح الآن يورثه ضررًا أطول، وربما احتاج الصواب إلى صبر قصير. أسأل الله أن يهديك، ثم اجمع ما تستطيع من العلم والمشورة، ولا تكتفِ بقوة الرغبة في قلبك.

ويعلمنا خبرهم أدباً في المعرفة أيضاً. حين أخبر القرآن بآخ تلاف الناس في عددهم، دلّ على ترك الجدل الذي لا يقوم على علم. ليست قوة إيمانك في أن تعيّن ما لم يعيّن الدليل، أو أن تجيب عن كل تفصيل سئلت عنه. بعض الأشياء لا يتوقف عليها صلاح قلبك ولا عملك. اعرف منها ما ثبت، واترك ما لم تعلمه من غير حرج، وأعط المعنى الذي جاءت القصة لأجله حقه.^{٦٦}

وفي بعثهم آية على صدق وعد الله والساعة. ليس نومهم الطويل حكاية للتعجب وحده؛ أعتز الله عليهم ليعلم الناس أن وعده حق، وأن الساعة لا ريب فيها. يعود النظر من الزمن الذي مضى عليهم إلى المصير الذي ينتظرن. الذي حفظهم وبعثهم قادر على بعث عباده، وليس تفرق الأبدان أو طول الأزمنة مانعاً من قدرته.

ما الذي تغير في حياتك حين آمنت بهذا؟ ربما يسهل عليك رد حق لا يثبت لصاحبه شاهد، لأنك تعلم أن شاهده عند الله. وربما تكف عن استصغار معروف صغير، لأنك لا تحصر جزاءه

في أن يراه الناس. وربما تحتل خسارة مباحة بلا انكسار
يفسد دينك، لأن الدنيا ليست كل ما ترجو. تظهر حقائق
الإيمان في هذه القرارات الهادئة أكثر مما تظهر في الخصومات
التي نتخذها لإثبات أن فسنًا.

كان أصحاب الكهف فتية، فلا يحق لشاب أن يرى إصلاح قلبه
أمرًا يؤول إلى آخر العمر. وليس في فضلهم ما يغلق الباب على
كبير السن؛ كل يوم يبقى من العمر موضع للعمل. تستطيع
اليوم أن تصلح صحبتك، وأن تتعلم ما تحتاجه، وأن
تستعين بالله على عادة تفسدك. لا تنظر حالًا مثالية لا
تعرف متى تأتي، ولا تجعل عيوب محيطك تمحو كل
قدرتك على الاختيار.

لا نحتاج إلى تعيين أسماء الفتية وأنسابهم لننتفع
ببدعائهم وثباتهم. وقد تعلمنا من خبرهم أن نطلب الرحمة
والرشد معًا: فرجًا يعين على الخير، وقرارًا نهتدي فيه حين
تتعدد أماننا الطرق.

٦٦. الكهف: ١٧-٢٦؛ في الحفظ والبعث وصدق الوعد وآداب الكلام فيما لم يحط به الإنسان علمًا. وينظر
ابن كثير، تفسير هذه الآيات.

رب الغلام

قال رسول الله ﷺ:

«كَانَ مَلِكٌ فِي مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ
إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلِمُهُ السِّحْرَ . فَابْعَثَ إِلَيْهِ
غُلَامًا يُعْلِمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ
كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ
فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَكَ ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا
خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي . وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ
حَبَسَنِي السَّاحِرُ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ
قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ
أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ
مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ .

فَرَمَاهَا فَاقْتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ
لَهُ الرَّاهِبُ أَيُّ بُنَى أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّْي . قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ
مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَى . وَكَانَ
الرَّغْلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ
فَسَمِعَ جَلِيشُ الْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ
مَا هَذَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفِيتَنِي فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي
أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ

فَشَفَاكَ . فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ
كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ قَالَ رَبِّي .
قَالَ وَلَكَ رَبُّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ .

فَأَخَذَهُ فَلَمَّ يَزَلُّ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِئَ بِالْغُلَامِ
فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيُّ بَنَى قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِي الْأَكْمَهَ
وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ . فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْرَفِي أَحَدًا إِنَّمَا
يُشْرِفِي اللَّهُ . فَأَخَذَهُ فَلَمَّ يَزَلُّ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ
فَجِئَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ . فَأَبَى فَدَعَا
بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّه حَتَّى
وَقَعَ شِقَاؤُهُ ثُمَّ جِئَ بِجَلِيلِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ
دِينِكَ . فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّه بِهِ
حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ثُمَّ جِئَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ
دِينِكَ .

فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ انْهَبُوا بِهِ إِلَى
جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ
رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَانْهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ
فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِرْ لَهُمْ بِمَا شِئْتَ . فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ
فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ
أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ . فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ
فَقَالَ انْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ
فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاغْرِقُوهُ . فَانْهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ
اكْفِرْ لَهُمْ بِمَا شِئْتَ . فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا

وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ
كَفَانِيهِمُ اللَّهُ . فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِبِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ
مَا أَمْرُكَ بِهِ .

قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي
عَلَى جَذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ
الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ . ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا
فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي . فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ
عَلَى جَذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ
الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ . ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ
فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ
فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ
الْغُلَامِ . فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ
نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ .

فَأَمَرَ بِالْأَخْذِ فِي أَفْوَاهِ السِّكِّ فَخُذَّتْ وَأُضْرِمَ النَّيِّرَانِ
وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا . أَوْ قِيلَ لَهُ
اقْتَحِمْ . فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا
فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمِّهِ اضْبِرِّي
فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ.^{٦٧}

قال الله تعالى:

٦٧. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، رقم ٣٠٠٥؛
عن صهيبي. «الأكهه»: من ولد أعمى؛ «قرقور»: سفينة؛ «صعيد»: أرض بارزة؛ «كنانة»: وعاء السهام؛
«صدغ»: ما بين العين والأذن. واقعة مخصوصة، لا تعليمات لإيذاء النفس أو تعريض الأبرياء للهلاك.

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٦٨﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٦٩﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٧٠﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧١﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٧٢﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٧٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿٧٥﴾

في هذا الخبر ما يصحح تصوراً شائعاً عن اليقين. نحب القصاص التي تنتهي بنجاة البطل في الدنيا، وقد نظن أن هذه النهاية وحدها تثبت كرامة المؤمن. لكن القصة لا تقف عند النجاة الأولى، ولا تجعل موت المظلوم خذلاناً له. هناك حساب وجزاء وحياة أخرى. إن فصلنا الأحداث عن الآخرة، لم نفهم الميزان الذي جاءت به السورة، وبقي سؤالنا محصوراً فيمن بقي حياً في آخر المشهد.

وهذا لا يجعل تعريض النفس أو غيرها للخطر عبادة نختارها. الخبر عن واقعة مخصوصة، لا تعليمات لتكرارها. لا يحق لأحد أن يستعمله لحمل شراب على إيذاء نفسه، أو لإقحام الأبرياء في العنف، أو للزعم أن النجاة لا قيمة لها. حفظ النفوس حق، ودفع

٦٨. البروج: ٤-١١. ويظهر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآيتين ٨ و ١٠؛ في سبب اضطهاد المؤمنين وفتح باب التوبة.

الظلم بالطرق المشروعة حق، ونسأل الله العافية. نأخذ من القصة صدق التوحيد والثبات، ولا ننزعها من سياقها لنصنع بها أذى جديداً.

ولنقف عند الجواب الذي سبق المحنة: الغلام لا يملك الشفاء، وإنما يشفي الله. لو أحب أن يملك قلوب المرضى، لوجد في الهدايا والثناء ما يغريه. لكنه دلهم على ربهم. تلك أمانة يحتاجها كل من نفع الله الناس على يده: الطبيب والمعلم والناصح وصاحب القدرة. تنفع بما أعطيت، وتشكر من تعاون معك، ولا تحوّل حاجة الناس إليك إلى دعوى أنك تستغني عن الله.

وقد يكثر أثر إنسان حتى يصعب عليه قبول أن يذكر فضل غيره. يفرح بالخير إذا مر من يده، ويضيق إذا جاء الناس من باب آخر. هنا نحتاج إلى سؤال صادق: أكنت أريد نفعهم، أم أريد أن أبقى أنا الذي يحتاجون إليه؟ اليقين بالله يعلمنا أن مصدر النعم ليس ملكاً لنا، وأن دورنا أمانة مؤقتة. نفرح للخير حيث جاء، ولا نجعل أنفسنا شرطاً في وصوله.

وفي موقف الراهب من الغلام درس لطيف للمربي. أقر بما ظهر من تقدمه، ولم يجعل سبقه في التعليم سبباً لإنكار فضل تلميذه. بعض النفوس لا تحتمل أن يكبر من أحسنات إليه، فتشده دائماً إلى دور المحتاج الصغير. أما التربة الصادقة فتفرح باستقامة من تعلم، وتدعوه له، وتعينه على تحمل مسؤوليته. ليست المحبة الصالحة احتكاراً لحياة الآخر.

وإذا رأينا ظلمًا يقع على إنسان بسبب دينه، فليزِدنا هذا الخبر رحمةً به وعدلاً في وصف ما أصابه. لا نطلب منه أن يروي لنا تفاصيل ألمه ليقتنعنا، ولا نحول مصابه إلى مادة لإثارة عابرة ثم ننساه. ندعو للمظلوم، ونسانده بما نستطيع من خير مشروع، ونثبت في الأخبار، ونمتنع عن ظلم بريء آخر بسبب غضبنا. نصرة الحق لا تكون بخيانتة في طريق النصرة.

تذكرنا القصة أياً ضاً بأن ظهور الحق لا يساوي قبول كل الناس له. بعض العناد ينشأ من حب السيطرة، لا من غياب الدليل. وهذا يدعونا إلى العلم بأن هداية القلوب بيد الله؛ نبين ونحسن وندعو، ولا نتخيل أننا نستطيع أن نكره إنساناً على صدق باطنه. قد يُنتزع لفظ بالقوة، لكن الإيمان الذي نتحدث عنه قبول للحق في القلب، تظهر آثاره في العمل. ومع شدة الوعي في سورة البروج، قيّد الوعي المذكور بعدم التوبة. فلا نضيّق باب الرجوع، ولا نهوّن الجريمة لأن التوبة ممكنة. يترك التائب الظلم ويرد الحقوق ويصلح ما يستطيع؛ ورجاء المغفرة يعينه على أداء هذه المسؤولية.

نخرج من الخبر ونحن نعرف إلى من نرجع: رب الغلام هو ربنا، وله الملك والحكم. لا نملك علم خواتيم الناس، ولا نملك مواعيد النصر لأنفسنا، لكننا نملك أن نوحده، وأن نصدق، وأن لا نبيع ديننا لرضا مخلوق. اللهم احفظ المستضعفين، وارزقهم فرجاً وعافية، وأعنا على نصرة الحق برحمة وعمل وعدل.

الإحسان وراء باب مغلق

قال الله تعالى:

﴿وَرَأَوْدَتْهُ النَّتْيُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۚ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۚ إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ
رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ۝ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ
وَأَلْفَايَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا
أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ هِيَ رَأَوْدَتُنِي عَنْ نَفْسِي ۚ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ
وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
مِنَ الْكَافِرِينَ ۚ إِنَّ كَيْدَ كُفْرٍ عَظِيمٌ ۝ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۚ
وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۚ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۝ وَقَالَ نِسْوَةٌ
فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قُدَّ
شَرَفُهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ فَلَمَّا سَمِعَتْ
بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ۖ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ
مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ۖ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۚ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝
قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۚ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ

فَاسْتَعْصَمَ^ط وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ^ط وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٩﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لِّيُسْجَنَنَّ^ط حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٧١﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا^ط وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ^ط نَبِيِّنَا بَتَّ أُوَيْيِلَهُ^ط إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ^{٦٩}.

وقال سبحانه:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بَتَّ أُوَيْيِلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٧٤﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكُمُ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيُسْقَى رَبُّهُ خَمْرًا^ط وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ

٦٩. يوسف: ٢٣-٣٦؛ النص القرآني هو أصل المشهد، دون إضافة حوار تخييلي إلى الخبر.

رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٧٠﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٧١﴾

وقال سبحانه:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى أَبْسَاتٍ يَبَإُيْهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٧٤﴾ يٰ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى أَبْسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّاً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَكُلُونَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ

٧٠. يوسف: ٣٧-٤٢. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية ٣٩؛ في الدعوة إلى التوحيد.

نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ
 بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٦١﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي
 إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴿٦٢﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا
 كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ ﴿٦٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى
 خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴿٦٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
 الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴿٦٦﴾ نَصِيبُ بَرَحْمَتِنَا مَن يَشَاءُ
 ﴿٦٧﴾ وَلَا نُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

أحسن يوسف في موضع الضيق، ودعا إلى ربه، ونفع بعلمه،
 مع طلبه البراءة والخروج. وقد نؤجل إحساناً ن قدر عليه
 انت ظاراً لأن ينيصفنا الناس أو تتغير ظروفنا. ن طلب
 الإنصاف، ونحفظ في أثناء الطلاب خيراً نستطيع فعله؛ فلا
 يصير ظلم وقع علينا سبباً لتعطيل كل ما في أيدينا.
 ومن المهم ألا نفهم هذا على أنه تهوين للسجن أو إسقاط لحق
 المظلوم. لا يُطلب من الإنسان أن يرضى بباطل الناس، ولا أن
 يكف عن السعي المشروع إلى الحرية والإنصاف. الذي نتأمله هو
 بقاء القدرة على الخير مع طلب رفع الضرر. قد لا تملك
 تغيير الظرف كله اليوم، لكنك تملك كلمة صادقة، أو أداء حق،
 أو عوناً تقدمه لمن يحتاجه. ما زال في حياتك عمل لم يأخذه
 منك الباب المغلق.

٧١. يوسف: ٤٣-٥٧؛ في تفسير الرؤيا والاستعداد لسنوات الشدة وإظهار البراءة وتولي الأمانة.

وفي دعوة يوسف لصاحبيه لطف يليق بالاتوحيده. خاطبهما بصحبة المكان، وسألهما سؤالاً يقرّب المعنى، ونسب العلم إلى الله. لم يحتج أن يتعالى عليهما ليبيّن الحق. حين تعلم شريئاً نافعاً، لا تجعل حاجات الناس مناسبة لتشعرهم بالنقص. يمكن أن تكون واضحاً في دعوتك، قوياً في دليلك، قريباً في عبارتك. العظمة للحق، وليست غاية التعليم إظهار عظمة المتكلم.

وكثير من يواجه ضيقاً أقل، لكنه يكشف أخلاقه. يتأخر تقديره في العمل فيفسد عمله عمداً، أو يظلمه زميل في بخل بمعرفة يحتاجها الأبرياء، أو يضيّق رزقه في سوغ لنفسه كسباً محرماً. ليس علاج الظلم أن تتسع دائرته على يديك. اطلب حقك، وغيّر موضعك إن كان ذلك أصح، لكن لا تجعل ألمك ينتزع منك الصدق الذي كنت تحبه.

ويمدّننا موقف يوسف بمعنى المسؤولية حين جاء وقت إدارة الرزق. لم يقل إن الناس لا يحتاجون إلى تخطيط لأن الله يرزقهم. شرح ما يزرعون وما يدخرون، ثم طلب العمل الذي يعلم قدرته عليه. اليقيني لا يلغي الحساب ولا الخبرة؛ بل يضعهما في خدمة أمانة تؤدى لله. من وثق بربه لم يلزمه أن يخفي جهله بالصناعة التي يتولاها، أو أن يعد الناس بنتيجة لا يعرف أسبابها.

ربما كان عمك صغيراً في نظر غيرك، لكنه يحتاج إلى الإحسان نفسه. احفظ الأمانة، وتعلم ما تجهله، ولا تتعد بما لا تستطيع. إذا كان رزق أسرة يتأثر بقرارك، فلا تسمّ

المجازفة غير المدروسة شجاعة إيمانية. وإذا احتجت إلى تخزين أو استعداد لوقت شدة، فليس ذلك سوء ظن بالله. المذموم أن تنسى حقه وحقوق عباده، لا أن ترتب ما استرعاك عليه.

وقد يطول انتظارك لقرار ليس في يدك. اجعل لما بقي في قدرتك نصيباً من يومك: تعلم يحتاجه عملك، أو رسالة تطمئن بها أهلك، أو خدمة تؤديها لمن ينتفع بها. لا يوقف انتظار خبر واحد عمرك كله؛ تستطيع أن تعمل وأن تسأل الفرج.

وحين يأتي الفرج، يبقى سؤال آخر: هل نحفظ ما تعلمناه؟ قد يزول الضعف، فتدعونا القوة إلى أن نفعل بغيرنا ما كنا نكرهه لأنفسنا. قصة يوسف تدعونا إلى النظر في الأمانة بعد التمكين، لا إلى الفرار بالخروج وحده. الذي أعاننا ونحن محتاجون نسأله أن يعيننا ونحن قادرين، وألا يصبح زوال ضيقنا سبباً لضيق نصنعه لغيرنا.

كان يوسف محسناً في موضع لم يختر ظلمه، ثم صار أميناً فيما تولاه. نرجو من الله قلباً لا يعلق صلاحه على رضا الناس، وعملاً لا يتوقف كله عند تعثر باب واحد. وما نحتاجه اليوم قد يكون أن يؤدي بإتقان ما بقي في قدرتنا، ونحن نطلب الفرج، ونوقن أن الله لا يضيع أجر المحسنين.

نداء في الظلمات

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ يُوْنُسُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَّابِثٌ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.^{٧٣}

وقال سبحانه:

﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.^{٧٤}

٧٣. الصافات: ١٣٩-١٤٨؛ خبر يونس في القرآن، دون زيادة وصف لما داخل الحوت من غير أصل متحقق.

٧٤. الأنبياء: ٨٧-٨٨. وي نظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية ٨٧؛ معنى «لن نقدر عليه»: لن نضيق عليه، وليس شكاً في قدرة الله.

يجمع الدعاء وتوحيد الله وتنزيهه والاعتراف بالخطأ. ثم
يأتي خبر الاستجابة والنجاة. نؤمن بوعد الله، ونسأله
الفرج، ولا نحدد من عندنا وقتاً للإجابة ولا صورة دنيوية
يلزم أن تأتي عليها.

وللاعتراف الصادق أثر في ردّ حقوق الناس، لكن سؤال اليقين
هنا أبعد: ماذا يبقى في القلب بعد أن يرى المرء خطأه؟ قد
يتركه الندم عاجزاً، أو يدفعه الخوف إلى تصور أن باب الدعاء
قد أغلق. أما دعاء يونس فيجمع الاعتراف والرجاء. لا تمنعك
حاجتك إلى المغفرة من سؤالها؛ اترك ما تعلم من خطئك،
واطلب العون على إصلاحه، ولا تجعل تقصيرك اسمك الوحيد.
وليس في القصة إذن بأن نفس كل مصيبة بأنها عقوبة
على ذنب معين. نراجع أعمالنا وننتوب مما نعلم، لكننا لا ندعي
علماً بسبب غيبي لكل ما يقع لنا أو لغيرنا. وحين تضيق
بك عبارة الدعاء، لا تحتاج إلى أن تتخيل تفاصيل داخل
الحوت لم يثبتها النص. حسبك الكلمات التي علّمك القرآن،
تقولها وأنت تعي معناها وتعمل بما تستطيع.

قد تتأخر ثمرة الإصلاح في عينك: تعود الثقة ببطء، أو
يبقى أثر ما حدث، أو لا يأتي الفرج في الصورة التي
رسمتها. لا تجعل ذلك حجة للرجوع عن التوبة. يقيّنك متعلق
بالله وصدق خبره، لا بقدرتك على معرفة الغد. أدّ ما عليك
اليوم، واطلب منه رحمةً لا تملك تحديدها وقتها ولا حدها.

لم يَنْتَه خبر يونس عند الظلمات؛ نقرأ بعد النجاة عن إرادة
الله به وإرساله وإيمانه قومه. فلا تجعل خطأ مضى وصفك
الوحيد: تب، وأصلح ما تستطيع، واسأل ربك الرحمة، وخذ من
حياتك الباقية فرصة للعمل.

وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

قال الله تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِزِّدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.^{٧٤}

وقال سبحانه:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ ۝ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۝ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۝ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۝ نَرْجِعُ الْعَبْدَ ۝ إِنَّا أَنَا أَوَّابٌ﴾.^{٧٥}

قال النبي ﷺ:

٧٤. الأنبياء: ٨٣-٨٤؛ دعاء أيوب وكشف الضر عنه.
٧٥. ص: ٤١-٤٤؛ في بلاء أيوب والسبب الذي أمر به والثناء على صبره وإنابته. الواقعة لا تعمم
وصفة لعلاج الأمراض.

«بَيْنَمَا أَيُّوبُ يُغْتَسِلُ غُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ،
فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَى رَبَّهُ يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ
أَغْنِيكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ
بَرَكَاتِكَ».^{٧٦}

ومن هنا لا ينجس اليقين في ساعات البلاء. قد نكون أقرب
إلى الشهور بالحاجة عند المرض، ثم يغلبنا الغنى فنظن
أننا نستطيع إدارة حياتنا من غير ذكر ولا شكر. أيوب يسأل
الرحمة في الضرر، ولا يستغني عن البركة في النعمة. هذه صلة
نرجو دوامها: أن نتوجه إلى الله ونحن أقوياء كما نتوجه إليه
حين نعجز، وأن نشكره قبل أن نخاف فقد ما وهب.

نادى أيوب ربّه بما أصابه من ضرر، وأثنى الله على صبره.
تستطيع أن تصف ألمك وتطلب علاجاً ومساندة وتسال الله
العافية. لا يلزم أن تتحدث كأن المرض لا يؤذيك لتثبت
صبرك؛ تحرص على اجتنب التسخط المحرم، وتؤدي ما تقدر
عليه من عبادتك بحسب استطاعتك.

ولا يصح أن نجعل شدة المرض دليلاً على فساد القلب. الله أعلم
بعبادته، وقد ابتلى الأنبياء وهم أحب خلقه إليه. من رأى
مريضاً فليحسن إليه، ولا يفتش له عن ذنب يفسر به حاله.
وربما حملت زيارة رحمة وطعام مناسب ومساعدة في شؤونه

٧٦. صحيح البخاري، كتاب الأحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي
الضرر وأنت أرحم الراحمين﴾، رقم ٣٣٩١؛ عن أبي هريرة. «رجل جراد»: جماعة منه؛ «يحثي»: يأخذ
بكفيه.

من الخير ما لا تحمله موعظة طويلة تثقل عليه. ليكن علمك
برحمة الله سبباً في رحمتك، لا كلاماً تطالب به غيرك أن
يتوقف عن الشكوى.

وفي أمره بالاعتسال والشراب من الماء الذي دله الله عليه ما
يذكرنا بأن استعمال السبب لا يقطع القلب عن الله. هذا سبب
خاص أمر به نبي الله، وليس وصفة نَعَمُّها على كل مرض. أما
نحن فنسأل أهل الاختصاص، ونسلك العلاج المأمون، ونرجع
في أحكامه إلى العلم. لا نترك ما ينفع ثم نخذل تركه دليلاً
على قوة يقيننا؛ الله الذي أمرنا بالدعاء أذن لنا في السعي.
قد يكون الامتحان الأصعب للمريض في طول المدة، لا في أول
الخبْر وحده. يتعب من السؤال المتكرر، أو من مطابقة الناس له
بأن يتحسن بسرعة. من يحببه يحتاج إلى صبر معه،
واحترام حدوده، والإصغاء إلى ما يحتاجه فعلاً. لا تعدّه بما لا
تعلم، ولا تفسر تأخر شفائه بأنه قصّر في الدعاء. ادع له
بصدق، وأعنه على السبب، وأبق الرجاء في رحمة الله من غير
أحكام على سريرته.

وللصحيح نصيب من هذا الفصل لا ينبغي أن يؤجله. ما بين
يديك من عافية أمانة؛ تستعملها في خير، وتؤدي بها
واجباً، وتعين من عجز عن شأن تستطيع أدائه. لا تقض كل
أيام القوة في انتظار وقت أصلح للشكر. وقد يكون أنفع ما
تبدأ به اتصالاً بمتعب أهملت السؤال عنه، أو قضاء حاجة لا
يستطيع الخروج لها، أو ستراً يحفظ كرامة من اضطر إلى
المساعدة.

وحين تعود العافية، نتعلم من أيوب ألا ننسى البركة. ليس المال المجموع وحده غايةً، وإنما الخير الذي يجعل الله فيه، وأثره في الطاعة والرحمة. نسأله رزقاً طيباً، ونشكره على القليل والكثير، ولا نزعم أن كثرة الممتلكات شهادة قبول، أو أن قلتها علامة هوان. معرفة الله تحفظ هذا الميزان حين تتغير الأحوال.

يبقى الافتقار إلى الله في الضر والعافية. نسأله الشفاء لمرضنا، والصبر لمبتلانا، والشكر على ما وهب، وألا تحملنا القوة على نسيان من أنعم بها. ما بين أيدينا من خير محتاج إلى بركته، وما نفتقده نسأله فيه رحمته.

الباب السادس: في مجالس الصادقين

حين تذكروا مصعباً

قال خباب رضي الله عنه:

هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللَّهِ، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ،
فَمِنَّا مَنْ مَاتَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيٍّ،
وَمِنَّا مَنْ أُيِّنَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِي بِهَا. قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ
نَجِدْ مَا نَكْفِنُهُ إِلَّا بُرْدَةً إِذَا غَطَيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ،
وَإِذَا غَطَيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَغْطِيَ
رَأْسَهُ، وَأَنْ نَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخِرِ.^{٧٧}

روى إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف:

أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَتَى بِطَعَامٍ وَكَانَ
صَائِماً فَقَالَ قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيٍّ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي
بُرْدَةٍ، إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ -
وَأَرَاهُ قَالَ - وَقُتِلَ حَمْزَةٌ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، ثُمَّ بَسِطَ لَنَا مِنَ
الدُّنْيَا مَا بَسِطَ - أَوْ قَالَ أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا - وَقَدْ
خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى
تَرَكَ الطَّعَامَ.^{٧٨}

٧٧. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا لم يجد كفناً إلا ما يوارى رأسه أو قدميه غطى رأسه، رقم ١٢٧٦؛ عن خباب. «أي نهت»: نضجت، «يهدبها»: يجتنيها؛ «الإذخر»: نبات طبي الرأىحة.

بين المشهدين اختلاف في ظاهر الحال، ووحدة في المقصد الذي ينبغي أن نحفظه. مصعب مضى ولم يتسع له متاع الدنيا، وعبد الرحمن بقي حتى رأى سعتها. ليست نهاية الطريق واحدة لكل مؤمن، ولا يعرف فضل الإنسان بعد ما اجتمع في يده. قد تفتح الدنيا لصادق، وقد تضيق عليه؛ ويبقى الميزان في إيمانه وعمله وما يلقي الله به.

إن حديث الكفن القصير يزيل عن القلب أوهاماً كثيرة. قد نتصور أن من أحسن لا بد أن نرى جزاء إحسانه كاملاً في الدنيا، وأن كل نهاية مؤلمة دليل على أن الخير لم يؤت ثمره. لكن مصعباً من أصحاب رسول الله ﷺ، وما عند الله له ليس محدوداً بما وجد الناس يوم دفنه. الإيمان بالآخرة يعطينا علماً بأن ما نراه ليس كل الحكاية، وإن كان حقاً لا نكره. أما بكاء عبد الرحمن، فلا نجعله حكماً بتحريم الطعام أو المال الذي بسطه الله. هو خوف صالح على النفس، لا تشريع يلزم الناس أن يتركوا نعمهم. يأكل المؤمن ويشكر، ويكسب وينفق، ويرجو القبول ولا يجزم به لنفسه. ما نحتاج إليه من الموقف أن لا تنسينا السعة مراجعة الطريق الذي حصلنا عليها به، والحقوق التي وجبت فيها.

قد يفرح الإنسان بزيادة دخله فلا يخطر له إلا كيف يزيده مظاهر حياته. ثم يرى أن كل ما اكتسبه إن جاز خالص من قدرته. وحضور الآخرة يضيء سؤالاً آخر: هل المال طيب؟ هل

٧٨. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا لم يوجد إلا ثوب واحد، رقم ١٢٧٥؛ عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه.

بقي منه حق لم أؤده؟ هل صرت أحتقر من هو أقل مني؟ لا يجرمك هذا السؤال فرحتك، بل يردّها إلى شكري بحفظها من الكبر والغفلة.

ونحتاج كذلك إلى الوفاء لمن سبقنا بالخير. تذكر عبد الرحمن مصعباً، ولم تجعله النعمة التي بين يديه ينسى من مضى قبل اتساعها. قد تبدأ مع قوم على عمل صالح، ثم تنتفع وتشتت هروبيبقى بعضهم غير معروف. ليس من الإنصاف أن تنسب كل الفضل إلى نفسك لأنك آخر من ظهر في الصورة. اذكر المعروف بصدق، وادع لأصحابه، وأد ما لهم من حقوق، ولا تجعل النجاح يمحو الذاكرة.

وفي ذكر مصعب درس في الحياة التي نرسمها لأبنائنا. نحن نحب لهم العافية والكفاية والنجاح، لكن لا ينبغي أن يتعلموا أن قيمة المرء في ثيابه أو بيته أو اسمه المتداول. يمكن أن نشرح لهم أن إنساناً عظيماً القدر عند الله قد يعيش قليلاً المال، وأن الاحترام لا يباع. ويرون صدق هذا التعليم حين نكرم في بيوتنا من لا يملك نفوذاً، ونحسن إلى العامل كما نحسن إلى الزائر المشهور.

ولا نطالب أن فسن أن نبكي كما بكى عبد الرحمن حتى يكون المعنى قد وصل. الدمع ليس واجباً ننتزعه من العين، وليس كل قلب يعبر بالطريقة نفسها. المهم أن يترك الخبر في عملك أثراً: شكراً أصدق، أو حقاً تؤديه، أو ترفاً كان سيشرغك فعدلت عنه إلى ما ينفع. وقد يكون هذا التغيير الهادئ خيراً من تأثير شديدي نتهين عند إغلاق الصفحة.

ومن جهة أخرى، لا تتخذ قلمة ما عندك دليلاً على أنك محبوب أو أنك أكثر صدقاً من الغني. كما أن الغنى لا يضمن القبول، فالفقير لا يزكي النفس تلقاءيًّا. في الحالي ن حاجة إلى الصبر والشكر والعدل. يستطيع صاحب القليل أن يظلم، ويستطيع صاحب الكثير أن يتقي الله. نقرأ أحوال الصالحين لتربية أنفسنا، لا لنقسم الناس بأحكام سريعة تريح غرورنا.

ربما مررت على قبر إنسان عرفته محسنًا، فوجدت نفسك تسأل: أين ذهب ما كان له؟ لقد بقي في الدنيا ما ينتفع به الناس من أثره، ومضى معه عمله. نحن أيضاً نسير إلى هذا اللقاء. ما الذي نحب أن يصحبنا من أيام السعة وأيام الضيق؟ ليس السؤال عن أفضل صورة تُشر لنا، بل عن الصدق الذي يعلمه الله وإن لم يكن له شاهد في سجل الناس.

كان أمام عبد الرحمن طعام، فرأى معه نعمة ومسؤولية وذكرى أخ مضى. فلم نتعلم أن نتسع في النظر، لا أن نضيّق بالحياة. نأخذ حلالها ونشكر، ونبذل خيرها ونحتسب، ونرجو ما عند الله لأنفسنا ولمن سبقونا. وما أجمل أن يبقى في القلب مكان لمن لم يعودوا معنا، ندعو لهم، ونتعلم من صدقهم، ولا تدعنا الدنيا ننسى الدار التي اجتمع رجاؤنا عليها.

لم أكن في صلاة

قال حصين بن عبد الرحمن:

كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي
انْقَضَ الْبَارِحَةَ قُلْتُ أُنَا. ثُمَّ قُلْتُ أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ
وَلَكِنِّي لِدِغْتُ. قَالَ فَمَاذَا صَنَعْتَ قُلْتُ اسْتَرْقَيْتُ. قَالَ فَمَا
حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ قُلْتُ حَدِيثُ حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ. فَقَالَ وَمَا
حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بَرِيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الْأَسْلَمِيِّ
أَنَّهُ قَالَ لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمْقٍ. فَقَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنْ
انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
قَالَ عَرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ وَالنَّبِيُّ
وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رَفَعَ إِلَيَّ سَوَادٌ
عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أَمَتِي فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ
وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ.

فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخِرِ.
فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِرَغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ
فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلِيَاءِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِرَغَيْرِ حِسَابٍ
وَلَا عَذَابٍ فَقَالَ بَغْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.
وَقَالَ بَغْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَشْرِكُوا
بِاللَّهِ. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَا

الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ. فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ
وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقَامَ
عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ.

فَقَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني
مِنْهُمْ. فَقَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ.^{٧٩}

نحن في مجلس علم، لكن أوله يكشف عملاً قابلياً رقيقاً. لم
يطلب حصين من الناس أن يشهدوا له بشيء لم يفعله. بعض
ما يفسد نياتنا لا يبدأ بكذبة صريحة، بل بسكوت نحب
أن يحمل الناس منه معنى غير صحيح. نسمع ثناءً لا
نستحقه، فنتركه يكبر؛ أو نروي خبراً ناقصاً يوهم أننا
أصحاب فضل لم يكن لنا. ويعلّمنا هذا الموقف أن تصحيح
الصورة قد يكون كلمة واحدة لا تحتاج إلى ضجيج.

ليس علينا أن نفسر للناس كل خفية من حياتنا، ولا أن
نتكافن في المدح دائماً. لكننا لا نريد أن نعيش على معنى
باطل نعرفه. من كان يرجو ما عند الله لا يضره أن يعرف
الناس أنه نام، أو أنه تعب، أو أن ما أحسن فيه كان بمعونة
غيره. ما عند الله لا ينقص لأن روايتك صارت أدق، وما عند
الناس لا يستحق أن تحفظه على حساب الصدق.

٧٩. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا
عذاب، رقم ٢٢٠؛ طريق سعيّد بن منصور عن هشيم عن حصين. «حمة»: سم؛ «سواد»: جمع كثير. لفظ
«لا يرقون» محفوظ هنا كما في هذه الرواية، ولا يحمل على تحريم الرقية المشروعة؛ وانظر الحديث
٢٢٠٠ الآتي.

ثم ينتقل المجلس إلى سؤال الدليل. لم يقل سعيده لحسين: كيف تفعل هذا وأنت عندي؟ بل سأله عما بلغه، فذكره. وفي هذا احترام لمن يتعلم ويعمل بما عرف. حين تريد تصحيح عمل إنسان، افهم أولاً ما عنده من علم وما الذي قصده. قد لا يكون متمرداً، بل عمل بخبر صحيح لم يعرف ما يكمله، أو فهم نصاً على وجه يحتاج إلى بيان.

وفي الثناء على من انتهى إلى ما سمع تربية على ربط العمل بالعلم. ليس المطلوب أن نخترع لكل حالة تصرفاً نظنه صالحاً، ولا أن نتحرك على أول انفعال ثم نبحث له عن مبرر. نتعلم ما نحتاجه، ونسأل أهل العلم، ونعمل بما ثبت. وإذا جاءنا بيان أصح أو أكمل، قبلناه من غير أن نشعر أن كل ما سبق من طلابنا للحق صار هباء.

وقال عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه:

كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَرَى فِي
ذَلِكَ فَقَالَ اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ
فِيهِ شِرْكٌ.^{٨٠}

هذا بيان صريح في إبادة الرقى الخالية من الشرك. نقرأ النصوص مجتمعة، فلا نجعل الحديث عن كمال التوكل سبباً لتحريم ما أذن فيه الشرع، ولا نلوم مريضاً لمجرد طلبه معونة مباحة.

٨٠. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، رقم ٢٢٠٠؛ عن عوف بن مالك الأشجعي.

وقد يقع خطأ آخر: يقرأ إنسان في فضل طائفة من الصالحين، فيريد أن يمنح نفسه اسمهم بقرار سريع، من غير النظر في حقيقة قلبه. كمال التوكل ليس إعلاناً عن شره، بل يتعلق بالله مع عمل صحيح. قد يترك سبباً أمام الناس ليمدحوه، وقلبه مشغول بنظرهم أكثر مما كان قبل ذلك. نحن نريد إصلاح الباطن، لا صناعة مظهر جديدي عليه.

وتظهر صلاة اليقين بالإخلاص هنا بوضوح. حين يصدق إيماننا بعلم الله وجزائمه، يسهل أن نقدم الحقيقة على الإعجاب. والذي نستحي أن يعلمه الناس عنا من الأمور المباحة لا يلزم أن يكون عيباً. الاستراحة ليست نقصاً في الدين، والمرض ليس دليل ضعف، وطلب المساعدة ليس سقوطاً في القدر. أما الصدق في كل ذلك فهو خير تحفظ به نفسك من التمثيل على الناس.

يمكن أن تسأل نفسك عن موضع قريبي: هل نسبت فكرة إلى نفسي وقد أخذتها من غيري؟ هل تركت أحداً يظن أنني تبرعت بما تبرع به سواي؟ هل أروي يومي بطريفة تزيد فيه ما لم يقع؟ لا تحتاج إلى فضيحة لنفسك، لكنك تحتاج إلى تصحيح أمني، وإلى تدريج اللسان على جملة سهلة: كان الفضل لفلان، أو لم يحدث الأمر كما فهمت، أو لا أعرف هذا. ومجلس سعيد لا ينتهي عند نفسي صورة خاطئة، بل عند علم ينفع. هذه ثمرة الصحبة العلمية الصالحة: يدخل الإنسان بسؤال صغير، فيخرج بمعنى أوسع ودليل أوضح. اطلب من

يجمع لك بين الصدق والرحمة، ولا يكتفي بأن يعجب بك، ولا يجعل خطأك مادة للسخرية. فالقلب يطمئن إلى تعلم يكون فيه الحق مقصودًا، وتكون كرامة السائل محفوظة.

لم يكن حصين في صلاة، وقال ذلك. لا تنقص هذه الجملة من قدر الأمانة التي نقل بها الحديث، بل تعلمنا كيف يكون العلم موصولًا بالعمل. قد يكون خير ما تحفظه من المجلس أن تدع للناس صورة حقيقيّة عنك، وأن تطالب العلم لتصلح، وأن ترجو الله بما فعلت فعلًا، لا بما تركت غيرك يتخيله.

رجل كان باراً بأمه

قال أسير بن جابر:

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ نَعَمْ. قَالَ مِنْ مُرَادٍ ثَمٍّ مِنْ قَدَنٍ قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَكَانَ بِيكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهِمٍ قَالَ نَعَمْ. قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ قَالَ نَعَمْ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَأْتِي عَلَى كُفٍّ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثَمٍّ مِنْ قَدَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهِمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرَّهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَعْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ. فَاسْتَعْفَرَ لِي. فَاسْتَعْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَيَنْ تَرِيدُ قَالَ الْكُوفَةَ.

قَالَ أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا قَالَ أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ. قَالَ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَوَافَقَ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ قَالَ تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قِلِيلَ الْمَتَاعِ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَأْتِي عَلَى كُفٍّ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثَمٍّ مِنْ قَدَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهِمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرَّهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَعْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ. فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ أَنْتَ أَأَحَدُ عَهْدًا

بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ أَنْتَ
أُحَدِّثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ لَقِيتَ عُمَرَ قَالَ
نَعَمْ. فَاسْتَغْفِرَ لَهُ.

فَفَظِنَ لَهُ النَّاسُ فَإِنْ طَلَّقَ عَلَى وَجْهِهِ . قَالَ أَسِيرٌ وَكَسَوْتُهُ
بُرْدَةً فَكَانَ كُلَّمَا رَأَاهُ إِنْسَانٌ قَالَ مِنْ أَيِّنَ لَأُوَيِّسَ هَذِهِ الْبُرْدَةُ^{٨١}

كان أوييس من التابعين، وفي خبر فضله إخبار نبوي، لا
تزكية نختلقها من ظاهر حياته. أما الذي نستطيع الاقتداء
به من عمله فظاهر قريبي: برّ الأم، وصدق الصلاة بالله،
والتواضع، وعدم الافتقار إلى أن يكون الاسم معروفاً. كثيرون
من أبواب الخير لا تحتاج إلى سفر بعيد عن الواجب الذي
بيني أيدينا؛ قد يكون أولها سؤالاً صادقاً عما يحتاجه والد أو
والدة.

ومن اللافات أن طالب الدعاء هو عمر. لم يمنعه مقامه وعلمه أن
يعمل بما سمعه من النبي ﷺ، وأن يسأل رجلاً لا يعرفه جمهور
الناس أن يستغفر له. لا ينبغي لبغي لرتبة تمنحها لك الحياة أن
تجعلك مستغنياً عن دعاء من هو دونك فيها. قد يدعوك
عامل أحسن إليك، أو أم أعنتها، أو طفل علمته خيراً، ويكون
في ذلك فضل لا تحيط به.

٨١. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أوييس القرني، رقم ٢٥٤٢؛ عن أسير بن
جابر، بلفظ ابن المثنى. «أمداد»: جماعات المدد؛ «غبراء الناس»: عامتهم؛ «رث البيت»: قلبي
المتاع سيئ الحال. الوصي بطلب الاستغفار في هذا الخبر من حي حاضر، ولا تتضمن دعوى علم
الغيب.

ولا نغلو في صاحب فضل حتى نطلب منه ما لا يملكه. عمر
سأل أوييَّ الاستغفار له، ولم يسأله كشف الغيب أو ضمان
النجاة، ولم يجعل بينه وبين الله طريقاً لا يصح إلا به. ندعو
الله مباشرة، ويجوز أن يطلب المرء الدعاء من حي حاضر يرجو
صلاحه، لكننا نحفظ العبادة لربنا. البشر عباد محتاجون
مهما علا قدرهم، والخبر عن فضل خاص لا يتحول إلى
تفويض عام في الكون.

والبر الذي نقرؤه هنا ليس صورة التقطت في مناسبة، بل
معنى يطلب منا حياة من الوفاء. قد يحسن أحدنا إلى والدته
أمام الناس، ويضيق بطلبها حين لا يراه أحد. أو يعتني
بهدية كبيرة، ويتركها أيّاماً لا تجد من يسمع حديثها. لا
يُستهان بالهدية، لكن القلب الصادق يسأل عن الحاجة الفعلية،
ويعرف أن رعاية الضعيف قد تكون في وقت يصعب أن
يخصصه له.

قد تعيش بعيداً عن والديك، أو تكون قدراتك قلبية، أو
تكون العلاقة معقدة. لا تعالج ذلك باتهام نفسك في ما لا
تملك، ولا بإعلان العجز عن كل شيء. ابحث عن البر الممكن:
اتصال من تظم، ومساعدة تستطيعها، وكلمة كريمة، ورعاية
يحسن ترتي بها. واطلب المشورة عند التباس الحقوق أو
وقوع الضرر. ليس البر إلغاء لكل حدود تحفظ النفس، ولا
تتحول المشقة فيه إلى إباحة للمعصية.

وفي اختياري أويّس عامة الناس ما يريح النفس من ضغط
الظهور. قد ترى الخير عندك قلميًّا لأنك لا تملك جمهورًا، أو لأن
اسمك لا يسبق اسم غيورك. لكن إصلاح القلب ليس مسابقة في
المعرفة العامة بك. تستطيع أن تحسن وتتنق وتخدم دون
أن تحوّل كل عمل إلى خبر. وبعض ما يبقى بينك وبين
الله أعون على نيّتك من كثير من التعريف بنفسك.

ولا يلزم أن يترك كل أحد التوصية المباحة أو المنصب النافع
اقتداءً بتفصيل اختاره أويّس لنفسه. قد يكون في
قبول مسؤولية مصلحة للناس، وفي الشفاعة الحسنة دفع
ظلم. نأخذ من موقفه الاستغناء عن الجاه الذي لا يحتاج إليه،
لا حكمًا بتحريم كل ظهور. الشّر أن لا يكون حب السمعة هو
الذي يخترار لك العمل، وأن تؤدي ما يناسب قدرتك وما يحتاج
إليه الناس.

إن كثيرًا من تعب المقارنات ينشأ من هذا الخلط: نرى أثر
إنسان في العلن، ونقيس به كل ما عندنا من أعمال لا نرى. قد
يكون أحدنا يقوم على مريض، وآخر يربي ولدًا، وثالث يصلح
بين أهله، ثم يظنون أن حياتهم بلا أثر لأنها بلا
متابعين. لا نضمن لأحد قبولاً، لكننا نذكر أنفسنا بأن الله
يعلم العمل ويجازي عليه، ولا يحتاج إلى أن يتحول إلى شهرة
ليراه.

وإذا أكرمك الله بدعاء صالح من أحد، فاشكره ولا تتعلق
بضمان النتيجة منه. الدعاء طلب من الله، لا عقد مع الإنسان.
وإن دعاك من تحب، فادع له أيضاً، وأصلح عملك، ولا تجعل

حسن ظنك بغيرك بديلاً عن طاعتك. من صدق رجاؤه لم يكتفِ بأن يجمع تزكيات الناس، بل ازداد حرصاً على ما ينفعه عند ربه.

ذهب أويس إلى حيث لا تشغله المعرفة به، وبقي خبره معروفاً بما أخبر به النبي ﷺ. لا نحتاج أن نكون أويساً لدخول باب البر، ولا أن يكون لنا خبر خاص لنوقن بأن الله لا يضيع معروفاً. قد تبدأ حصة قلبك من هذا الفصل بأن تنهض إلى حاجة قريبة أجلتها، وتؤديها بمحبة، دون أن تخبر أحداً أنك فعلت.

عَمَّنْ تَأْخُذُ قَلْبَكَ؟

قال محمد بن سيري:

إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَإِنْ ظَرُّوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ بِدِينِكُمْ.^{٨٢}

وقال أيضاً:

لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ قَالُوا سَمُّوا
لَنَا رِجَالَكُمْ فِي نَظَرٍ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ وَيُنْظَرُ
إِلَى أَهْلِ الْبِدْعِ فَلَا يُوْخَذُ حَدِيثُهُمْ.^{٨٢}

ليست هذه مسألة تخص رفوف الكتب وحدها. ما تتلقاه عن
الله ووعدته ووعدته يشكل خوفك ورجاءك وقرارك. قد تحمل
عبارة غير ثابتة فتخاف من أمر لم يحرمه الله، أو تتعلق
بضمان لم يعدك به، أو تحكم على نفسك بالهلاك من كلمة لا
أصل لها. القلب لا ينتفع بكل ما يؤثر فيه لحظة؛ يحتاج
إلى ما يصح ويهدي.

٨٢. مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات؛ رواية الحسن بن الربيع عن حماد بن زيد، ورواية أبي جعفر محمد بن الصباح عن إسماعيل بن زكرياء، عن ابن سيري. القولان من كلامه، لا حديثان نبويان.

٨٢. مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات؛ رواية الحسن بن الربيع عن حماد بن زيد، ورواية أبي جعفر محمد بن الصباح عن إسماعيل بن زكرياء، عن ابن سيري. القولان من كلامه، لا حديثان نبويان.

قال عبد الله بن المبارك:

قُلْتُ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ إِنَّ عِبَادَ بَنٍ كَثِيرٍ مَنْ تَعْرِفُ حَالَهُ .
وَإِذَا حَدَّثَ جَاءَ، بِأَمْرِ عَظِيمٍ فَتَرَى أَنْ أَقُولَ، لِلنَّاسِ لَا تَأْخُذُوا
عَنْهُ قَالَ سُفْيَانُ بَلَى . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَكُنْتُ إِذَا كُنْتُ فِي
مَجْلِسٍ ذُكِرَ فِيهِ عِبَادٌ أَثْنَيْتُ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ وَأَقُولُ لَا
تَأْخُذُوا عَنْهُ .^{٨٣}

لم يمنع الثناء على دين الرجل من بيان الخطأ في روايته.
وهكذا لا يكون كل تصحيح طعناً في النية؛ قد يحب المرء
الخير ويخطئ في نقل نص أو فهمه. نعرف للناس فضلهم،
ونسأل عما يثبت علمهم بالمسألة التي نتلقاها عنهم.
واليقين لا يعني أن تصدق أسرع من غيرك. ما يطلب منك أن
تؤمن به لا يثبت بمجرد أن قائله جزم أو تأثر أو أقسم.
قوة النبرة شيء، وقوة الدليل شيء آخر. قد يطمئن المتكلم
إلى خطأ، وقد يتكلم العالم بعبارة متحفظة لأنه يعرف حدود
ما يقول. ليس التردد في لفظ لم يثبت ضعف في الدين؛
قد يكون من الأمانة التي تحفظه.

ومما يدخل إلى القلب اليوم وعود شخصية تعلق على أعمال
محددة: افعل كذا مرات بعدد معين، وستحصل لك أمنية
بعينها قبل نهاية الأسبوع. قد تبدو الدعوة في ظاهرها

٨٣. مقدمة صحيح مسلم، الباب السابق؛ رواية محمد بن عبد الله بن قهزاذ عن علي بن الحسين بن
واقد، عن ابن المبارك، في سؤاله سفیان الثوري عن عباد بن كثير. خبر في نقد الرواية، لا
انتقاد لأصل العبادة.

تشرح يَعا على الذكر أو الصدقة، لكنها تحمل قولاً على الله
يحتاج إلى دليل. نذكر الله ونبذل الخير رجاء ثوابه، ولا
نحتاج إلى مواعيد مخترة لنعرف فضل الطاعة. الوعد الذي لم
يثبت لا يصير ثابتاً لأن العمل الذي رُبط به صالح.

ومن الجهة الأخرى، قد تنتشر كلمة ترهب الإنسان من أمر
يسير، أو تجعله يفسر كل تعب بأنه عقوبة مخصوصة. فإذا
وقعت في نفسه، رأى حياته كلها من خلالها. قبل أن تسمح لها
أن تحكم خوفك، اسأل عن أصلها ومعناها. الله لا يعرف
بالرسائل المجهولة، والشرعية لا تضيق عليك لأن ناشراً لم
يتحقق مما أرسل. خذ دينك عن علم رحيم من ضبط، لا عن
فزع ينتقل بين الشاشات.

لا يلزم أن تصير متخصصاً في الأسانيد لتنتفع بوصية
ابن سيرين. يكفي أن تعرف من تسأل، وأن لا تنسب إلى
النبي ﷺ ما لا تعرف صحته، وأن تتأنى قبل إعادة النشر،
وأن تقبل التصحيح. وإذا كان الكلام في أمر كبير يمس
اعتقادك أو حقوق غيرك، فأعطه من التثبت ما يناسبه.
ربما حفظتك دقائق السؤال من سنيين تعي شها على فهم لم
يكن صحيحاً.

قد تذكر في مجلس عائلي قولاً تحفظه من الصغر، ثم
يخبرك أحد الحاضرين أنه لا يثبت. هنا يظهر صدق طلابك:
أتسأل عن المصدر، أم تحمي ألفة العبارة؟ تستطيع أن تقول:
شكراً لتنبهي، سأراجع نسبتها. كلمة قصيرة تحفظ المودة
وتمنع خطأ من أن ينتقل إلى مجلس آخر.

وإذا أحببت عالماً أو معلماً، فلا تجعل المحبة تمنعك من فهم كلامه في سياقه. قد ينقل خلافاً فلا يكون قوله، أو يحكي خبراً ليضعفه فتتداوله أنت على أنه أثبتته. وقد يجيب عن سؤال خاص فتجعل جوابه حكماً لكل الناس. الأمانة ليست في نسخ الكلمات فقط، بل في حفظ المراد والحد الذي قيلت فيه. بعض التشويهِ يأتِي من محب مستعجل، لا من عدو متعمد.

ونحتاج إلى التواضع إذا اكتشفنا أننا نَشْرِنَا خطأً. لا تحم صورتك على حساب قلوب من سمعوك. صحح بالوضوح نفسه الذي نَشْرِنَا به، واذكر أن النقل لم يثبت أو أن الفهم لم يكن دقيقاً. هذا العمل لا يهدم ثقتك بالوحي؛ إنه يميز الوحي مما أضفته إليه خطأً. كلما ظهرت لك الحدود، صار يقينك أقل تعلقاً بالعبارات الشائعة وأكثر اتصالاً بالدليل.

قال ابن سيرين: فإن ظروا. إنها دعوة إلى عناية، لا إلى سوء ظن عام بالناس. نبحث عن الصدق والإتقان كما نبحث عن أتمنه على أبداننا وأموالنا. وما نودعه في قلوبنا أولى بالعناية؛ منه نتعلم كيف نرجو الله، وكيف نخافه، وكيف نمضي إليه على بصيرة.

البر الذي له طريق

قال إبراهيم بن عيسى الطالقاني في سؤال ابن المبارك عن خبر بني انقطاعه:

قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ إِنْ مِنَ الْبِرِّ بَعْدَ الْبِرِّ أَنْ تُصَلِّيَ لأَبَوَيْكَ مَعَ صَلَاتِكَ وَتَصُومَ لَهْمَا مَعَ صَوْمِكَ. قَالَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ يَا أَبَا إِسْحَاقَ عَمَّنْ هَذَا قَالَ قُلْتُ لَهُ هَذَا مِنْ حَدِيثِ شَهَابِ بْنِ خَرَّاشٍ. فَقَالَ ثِقَةٌ عَمَّنْ قَالَ قُلْتُ عَنْ الْحَجَّاجِ بْنِ دِينَارٍ. قَالَ ثِقَةٌ عَمَّنْ قَالَ قُلْتُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ بَيْنَ الْحَجَّاجِ بْنِ دِينَارٍ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ مَفَاوِزَ تَنْقَطِعُ فِيهَا أَعْنَاقُ الْمَطِيِّ وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الصَّدَقَةِ اخْتِلَافٌ.^{٨٤}

الثقة براوي لا تصل ما انقطع بينه وبين من ينسب إليه الخبر. وفي جواب ابن المبارك حفظ للرغبة في البر أي ضاً؛ دل السائل على الصدقة ولم يجعله حائراً بعد بيان ضعف ما بلغه. يمكن أن نصحح الطريق ونبقى المحبة التي دفعت صاحبها إلى السؤال.

٨٤. مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات؛ رواية محمد بن عبد الله بن قهزاذ عن إبراهيم بن عيسى الطالقاني. ورد الخبر المنقطع داخل حكاية نقده، فلا يحتاج به إثبات الصلاة أو الصيام المذكورين. «مفاويز»: صحارى واسعة؛ شبه بها بُعد الاتصال في السند.

وروت عائشة رضي الله عنها:

أَنَّ رَجُلًا، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَأُظْنُهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا قَالَ نَعَمْ.^{٨٥}

إن الشوق إلى من فقدنا قد يجعلنا أسرع تصديقاً لكل ما يعدنا بنفعه. تصل رسالة تقول: افعل كذا الليلة، يفرح بك ميتك أو تعرف من زلاته، فتسبق الرغبة السؤال عن الدليل. وربما نقلناها إلى غيرنا قبل أن نقرأها كاملة. لكن من الوفاء لمن نحب أن نطالب له الخير الذي ثبت، لا أن نضيق إلى حزننا خوفاً من ترك عمل لم يشرعه الله.

ولا يضيع المعروف الصحيح لأننا تركنا خبراً ضعیفاً. هذه فكرة تحتاج النفس إلى أن تسمعها؛ فبعض الناس إذا نُبِّه إلى خطأ قال: أتمنعوننا من الخير؟ والجواب أن الخير لا ينحصر فيما اعتدنا به. إن كنت قادراً على الصدقة، فثُمَّ محتاج، وإن كنت قادراً على الدعاء، فبابه مفتوح. لا تجعل دفاعك عن وسيلة غير ثابتة يشغلك عن عمل تعرف فضله ويمكنك أن تبدأ به.

ولليقين صلة بهذا التثبت. نحن نرجو الأجر من الله، ومنه نتعلم ما نتقرب به إليه. لا يكفي أن نثق بمشاعرنا لننسب ثواباً مخصوصاً إلى فعل. قد تكون النية طيبة، لكن

٨٥. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب موت الفجأة البغثة، رقم ١٣٨٨؛ عن عائشة. «افتلتت نفسها»: ماتت فجأة.

الخبير لا يصح؛ وقد يكون العمل مشروعاً في أصله، لكن تحديده زمانه أو عدده على أنه سنة يحتاج إلى دليل. يجمع القلب الصادق بين إرادة الخير والتواضع للعلم الذي يدل عليه.

وهذا لا يعني أن يتحول كل مسلم إلى متخصص في الأسانيد قبل أن يتصدق أو يدعو. يكفي أن يسأل أهل العلم والأمانة عما يشكل عليه، وأن لا ينشر كل خبر حتى يتبينه. ابن المبارك كان يؤدي عمل العالم في مجلسه، ونحن ننتفع بما بيّنه العلماء. ليس على القارئ أن يعرف اسم كل راو، لكن عليه ألا يجعل رغبته في تصديق الخبر برهاناً على صحته.

وفي جواب ابن المبارك أدب لمن يصحح لغيره. افهم الحاجة التي حملته على السؤال. من يسأل عن بر والديه قد يكون مشتاقاً، أو يشعر أنه قصّر، أو يريد أن يستدرك. تستطيع أن تبين الخطأ من غير أن تجرحه، ثم تدله على الصحيح. لا تكفّر بأن تسقط ما في يده وتتركه حائراً؛ فالبيان الذي يصحح الطريق أتمّ نفعاً من كلام لا يرى إلا خطأ السائل.

وقد يكون بعض أقسى ما يحمله المرء اعتقاده أنه تأخر حتى لم يعد له عمل نافع. لا نعهده بأن عملاً معيناً يمحو كل ما مضى، ولا نحكم على سريّته، لكن ندعوه إلى توبة صادقة وبر ممكن. أخرج صدقةً من مال حلال، واسأل الله الرحمة لوالديك، وأصلح ما بقي في استطاعتك من الحقوق. لا تجعل الزندم الذي كان يمكن أن يدفعك إلى الخير سبباً للعودة عنه.

ومن كان والداه حيَّين فباب البر أمامه أشدَّ حضورًا. قد ينشغل بالبحث عن عمل بعيده، وفي البيت حاجة قريبة لا يقوم بها. اسمع، وزر، وأعن، وأدِّ ما يجِب عليك، ولا تحصر البر في مشاعر لا يراها من يحتاج إليك. اليقين بالثواب يعين على العمل الهادئ المتكرر، حتى حين لا يثنى أحد على تعبك. رحم الله من علَّمنا أن نحب بعلم، وأن نرجو على هدى. ما أجمل أن تصل إلى محتاج صدقة لا يعرف صاحبها، ويكون في نيتك برّ والدٍ أو والدَةٍ، وأن تسأل الله القبول ولا تملك أن تشهد لنفسك به. هذا عمل يستطيع القلب أن يطمئن إلى مشروعيته، ثم يظل مفتقرًا إلى فضل الله في قبوله ونفعه.

كلمة لا تنقص العالم

قال الهيثم بن جميل:

سمعت مالكا سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فأجاب في
اثنتين وثلاثين منها ب لا أدري.^{٨٦}

وقال ابن وهب:

لو شئت أن أملأ ألواح من قول مالك : لا أدري لفعلت.^{٨٧}

وروى مالك عن عبد الله بن يزيد بن هرمز قوله:

ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول : لا أدري. حتى يكون
ذلك أصلا في فزعون إليه.^{٨٨}

قد يبدو هذا ببعيداً عن اليقين لأول وهلة؛ فالناس يتوقعون
من الموقن جواباً حاضراً عن كل شيء. لكن اليقين بالحق لا
يعني الإحاطة بكل مسألة. تستطيع أن تؤمن بالله ورسوله

٨٦. الذهبى، سير أعلام النبلاء، ترجمة مالك، ٨/٧٧؛ خبر الهيثم بن جميل عن سماعه سؤال مالك. خبر
عن عالم، لا حديث نبوي.

٨٧. الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٨/١٠٨، قول ابن وهب؛ و٨/٧٧، قول ابن هرمز الذي رواه ابن وهب عن
مالك.

٨٨. الذهبى، سير أعلام النبلاء، ٨/١٠٨، قول ابن وهب؛ و٨/٧٧، قول ابن هرمز الذي رواه ابن وهب عن
مالك.

إيماناً راسخاً، ثم تقول في حكم لم تتعلمه: لا أعلم. لا تهدم الكلمة ما ثبت عندك، بل تمنع أن يدخل فيه ما لم يثبت. بين رسوخ الأصل والتواضع في المسائل فرق نافع يحفظ القلب والعلم معاً.

ومن يعرف أنه مسؤول عن كلامه لا يرى الإجابة واجبةً في كل مجلس. قد يمر عليه السؤال، ويستحضر أن وراء جوابه إنساناً سيعمل، أو مალأ سيؤخذ، أو حقاً سيضيع. عندي ذي صبح التوقف أداءً للأمانة، لا فراراً منها. الذي يضر هو أن يدفعه الخوف من نقص من زلته إلى جواب لا يدرى صحته، فيطمئن السائل إلى ثقة المتكلم لا إلى علمه.

وليست في هذا الموقف إلغاء لعلم مالك أو دعوة إلى الشك في كل جواب. تتعلم الناس منه وانتفعوا به، وكان مما تتعلموه معرفة حدود العلم. التواضع الصحيح لا يقول: لا أحد يعلم شيئاً؛ بل يقول: للعلم طريق، ولي فيما لم أتعلمه حد أقف عنده. من رغب في اليقين أحبّ البيان الذي يقوم على دليل، ولو جاء بعد انتظار، أكثر من جواب سريع لا يسنده فهم.

نحتاج إلى هذه التربية في بيوتنا. يسألك ولدك عن الله، أو عن آية، أو عن أمر استشكله. قد تخشى أن تقول: لا أعرف، فيظن أنك لا تصلح لتعليمه. لكن قولك بهدوء: هذا سؤال يحتاج إلى علم، فلنسأل من يعرف، قد يعلمه أمانةً تبقى معه طويلاً. لا تجعل رغبته في الاطمئنان سبباً لأن تعطيه كلاماً سيكتشف بعد ذلك أنه غير صحيح.

ونحتاجها حين يصلنا خبر يثير الناس. ليس واجباً أن نبدي رأينا في اللحظة نفسها. يمكن أن نقول: لا نعرف ما وقع بعد، ومنتظر البيان. القلق من أن يفوتنا الكلام لا يبيح الحكم على الأشرخاص أو نقل التهم. فإذا استقرر في القلب أن الله يعلم القول ويسأل عنه، خفت عليه كافة الصمت حتى يعلم ما يقول.

وقد يختلط التوقف أحياناً بالتردد الذي يعطل العمل بعد وضوحه. لم يكن قول مالك: لا أدري، عذراً لترك ما عرف حكمه. نحن أيضاً نميز بين أمر نجهله فنسأل، وواجب نعرفه ثم نبحث عن سؤال جديدي يؤخر أدائه. رد الأمانة التي ثبتت عليك لا يحتاج إلى نقاش لا ينتهي، كما أن مسألة لم تتعلمها لا يحلها تظاهر باليقيين.

ومن حسن السؤال أن تحدد موضع الحيرة. لا تقل: كل شيء ملتبس، وأنت تريد فهم مسألة واحدة. اشرحها كما هي، واستمع إلى الجواب، واسأل عن اللفظ الذي لم تفهمه. قد يحتاج العالم إلى معرفة ظروفك أو تفاصيل الواقعة؛ ليس ذلك عجزاً في العلم، بل حرص على أن يكون الكلام في موضعه. الأحكام التي تتعلق بالناس لا تؤدي بالألفاظ العامة وحدها.

وفي المجلس الذي رواه الهيثم بقيت أسئلة بلا جواب من مالك، لكنها لم تصبح بلا جواب عند الله، ولا دليلاً على اضطراب الدين. هذه مسافة ينبغي أن نحفظها: جهلي ليس حدّ الحقيقة، وجهل من سألته لا يعني استحالة العلم بها. قد

أَسْأَلُ غَيْرَهُ، أَوْ أَتَعْلَمُ مَا يَسْبِقُهَا، أَوْ أَنْ تَظُرَ حَتَّى يَتَضَرَّحَ لِي مَا
أَحْتَاجُ إِلَيْهِ. لَا أَمْلَأُ الْفَرَاغَ بِوَهْمٍ، وَلَا أَوْسَعُ الْفَرَاغَ حَتَّى أَجْعَلَهُ
الْعَالَمَ كُلَّهُ.

وَلَعَلَّ فِي هَذَا رَاحَةً لِمَنْ أَتَعَبَهُ تَكْلَفُ الظُّهُورِ بِمُظْهِرِ الْعَارِفِ.
تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ صَادِقًا وَمُفِيدًا، وَأَنْ تَعْتَرِفَ بِمَا لَا تَعْرِفُ.
تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَرَجَّعَ عَنْ جَوَابِ قَلْبِهِ مَتَعَجَّلًا، وَأَنْ تَشْكُرَ مَنْ
نَبَّهَكَ. احْتِرَامُكَ لِنَفْسِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَلَى ادِّعَاءٍ لَا
تَخْطِئُ مَعَهُ؛ بَلْ عَلَى أَمَانَةٍ تَعُودُ بِهَا إِلَى الصَّوَابِ إِذَا ظَهَرَ لَكَ.
قَالَ مَالِكٌ: لَا أَدْرِي، وَلَمْ يَنْتَهِ الْعِلْمُ فِي مَجْلِسِهِ؛ تَعَلَّمَ النَّاسُ كَلِمَةً
تَحْفَظُهَا. وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا وَيُقِينَا صَحِيحًا، وَنَرُجُو
أَنْ يَمْنَعَنَا ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ. حِينَ يَثْبُتَ الْحَقُّ
فِي الْقُلُوبِ، لَا يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ إِلَى أَنْ يَزَاحِمَهُ بِكَلَامٍ لَا يَعْرِفُهُ،
وَلَا يَرَى فِي الْاعْتِرَافِ بِحَدِّهِ نَقْصًا فِي عِظَمَةِ رَبِّهِ أَوْ صَدَقَ
وَحْيُهُ.

ليس القصد أن أغلبك

قال الشافعي:

ما ناظرت أحدا على الغلبة إلا على الحق عندي.^{٨٨}

وقال:

ما ناظرت أحدا إلا على النصيحة.^{٨٨}

وقال:

المراء في الدين يقسي القلب ، ويورث الضغائن.^{٨٨}

قد يتشابه شكل المحاوراة: سؤال وجواب واعتراض ودليل؛ لكن أحد المتكلمين يريد أن يفهم، والآخر يريد أن يهزج. اسأل نفسك عما تريده من الكلام، وأعط مخاطبك وقتاً يكمل فيه حجته، ثم أجبه عن قوله كما قاله.

٨٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة الشافعي، ٢٨/١٠-٢٩؛ روى الربيع قول الغلبة والمراء، والزعفراني قول النصيحة. ثلاثة أقوال مستقلة، ليست حديثاً نبوياً.

٨٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة الشافعي، ٢٨/١٠-٢٩؛ روى الربيع قول الغلبة والمراء، والزعفراني قول النصيحة. ثلاثة أقوال مستقلة، ليست حديثاً نبوياً.

٨٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة الشافعي، ٢٨/١٠-٢٩؛ روى الربيع قول الغلبة والمراء، والزعفراني قول النصيحة. ثلاثة أقوال مستقلة، ليست حديثاً نبوياً.

ليس معنى النصيحة أن نجامل الباطل أو نتنازل عن دليل
تبيين لنا. معنى النصيحة أن يكون انتفاع مخاطبنا عزيّاً
عليّنا، وأن نفرح بزوال خطئِهِ ولو لم ينسب التصحيح إلينا.
قد تحتاج إلى كلام واضح وحازم، لكن الحزم لا يوجب الإهانة.
وتستطيع أن تبين موضع الخلل دون أن تحول الإنسان كله
إلى عيب واحد، أو تقطع عليه طريق الرجوع بكلمة تشهره.

وهذا من امتحانات اليقين التي لا نتبهِ إليها. نظن أن
ثقتنا بالحق تظهر في ارتفاع صوتنا، وكثرة مقاطعتنا،
وقدرتنا على إسكات الآخر. لكنها قد تظهر في أن نستمع
حتى نفهم، وأن نعدل في نقل قوله، وأن نعترف بما أصاب
فيه. إن كان الحق حقاً، فلن يفسده أن نصف من خالفنا.
الذي يخشى الإنساناً هو رغبتنا في الغلبة، لا قوة
الحجة.

وقد تشدد النفس إذا جاءها التصحيح ممن هو أصغر أو أقل
شهرة. تملك الجواب في مسائل كثيرة، ثم يبين لك هذا
الإنسان خطأً في واحدة. هنا تستطيع أن تتعلم، وتستطيع
أن تستهلك المجلس كله في حماية من زلتك. من اليقين
بالحساب أن تذكر أن الله لا يسألك: هل بقي الناس يظنون
أنك لم تخطئ؟ وإنما تهلك حقيقة ما قلت وفعلت، وما قدرت
على تصحيحه.

ويحتاج القارئ إلى هذا الأدب في خلافه مع نفسه كذلك. قد
تتمسك برأي لأنك أعلنته، لأن دليله ما زال راجحاً عندك.
فإذا بحثت وجدت أنك تنتقي ما يؤيده وتعرض عما سواه.

لا تعالج ذلك باتهام كل اجتهد لك، بل بسؤال أمني: ما الذي يجعلني أقبل الدليل نفسه حين يخدمني وأضعفه حين يخالفني؟ هذه المحاسبة ترد العلم إلى وظيفته، بدل أن يصبح خادماً دائماً دائماً للرغبة.

وفي البيوت لا ينفذ أن تربح كل نقاش وتخسر حسن الاستماع. ربما يقول لك أهلك إن أسلوبك يؤذي، فتجيب عن مسألة شرعية لم يعترضوا عليها أصلاً. هم يصفون قسوة في طريقة الكلام، وأن تدافع عن وجوب النصيحة. افصل الأمرين: قد يكون ما تدعو إليه صحيحاً، وطريقتك تحتاج إلى إصلاح. الاعتراف بالثاني لا يبطل الأول، بل قد يجعل الدعوة إليه أصدق أثراً.

ولا ينبغي أن يتحول طلاب الحق إلى تتبع لا ينتهي للخصومات. ليس كل مقطع يستحق أن تدخل بعده في جدال، ولا كل تعليق يحتاج إلى رد. قد تعلم أن مجلساً لا يريد أصحابه الفهم، أو أنك لا تحسن الكلام في مسألتهم، فيكون تركه أنفع. احفظ وقتاً تتعلم فيه بطمأنينة، وتقرأ فيه كلاماً متصلاً، بدل أن تعرف الدين من أجوبة مقتطعة تتنازعها الشاشات.

أما السؤال الحقيقي فلا تضق بصاحبه لأنه لم يفهم سريراً. بعض الناس يحتاج إلى مثال، وبعضهم إلى تعريف كلمة، وبعضهم إلى إزالة نقل خاطئ بلغه. وضوح الأمر عندك لا

يعني أن خلفيته حاضرة عنده. ما دام يريد العلم فأعنه عليه بقدر استطاعتك، فإن لم تحسن فدلّه على من يحسن. النصيحة لا تشترط أن تكون أنت نهاية الطريق إلى الجواب.

وفي مثل هذا تلتقي سلامة القصد بسلامة المعرفة. لا يكفي لنا الإخلاص وحده لقول ما لا نعلم، ولا المعرفة وحدها تبيح أن نقسو أو نتكبر. نحتاج أن نتعلم وأن نصلح نياتنا معًا. وحين يدور الحديث عن أعمال القلوب، لا ينبغي أن يصبح الكلام عليها سبباً لفساد قلوب المتكلمين؛ يصفون التواضع وهم يحتقرون، أو يشرحون الإخلاص وهم لا يحتلمون أن ينسى فضلهم.

ما نُقل عن الشرافعي هنا ليس شهادةً نعطي بها العصمة لعلماء أو متعلمين، بل أدب ننتفع به ونحاسب أنفسنا عليه. يمكن أن ينتهي الحوار وقد بقي خلاف يحتاج إلى مزيد من العلم، لكن دون ظلم ولا قطيعة. ويمكن أن تتعلم من مخاطبك أمرًا لم تعرفه، فيكون ذلك مكسب المجلس وإن لم يكن كما توقعت حين دخلته.

اسأل الله قبل الكلام أن يهديك ويهدي من تحاوره، ثم اطلب الحق بأمانة. وإن ظهر على لسان غيرك، فلا تجعل فرحك به أقل من فرحك لو ظهر على لسانك. نرجو يقيناً يحررنا من عبودية الانتصار للنفس، ويجعل قبول الصواب أحب إلينا من ذكر أسمائنا عنده.

أعطوني من كتاب الله

روى صالح بن أحمد عن أبيه قوله في المحنة:

كان يوجه إلي كل يوم برجلين ، أحدهما يقول له : أحمد بن أحمد بن رباح ، والآخر أبو شعيب الحجام ، فلا يزالان يناظراني ، حتى إذا قاما دعي بقيد ، فزيد في قيودي ، فصار - في رجلي أربعة أقياد . فلما كان في اليوم الثالث ، دخل علي فناظرني ، فقلت له : ما تقول في علم الله ؟ قال : مخلوق . قلت : كفرت بالله فقال الرسول الذي كان يحضر من قبل إسحاق بن إبراهيم : إن هذا رسول أمير المؤمنين . فقلت : إن هذا قد كفر . فلما كان في الليلة الرابعة ، وجه ، يعني : المعتصم ، ببغيا الكبير إلى إسحاق ، فأمره بحملي إليه ، فأدخلت على إسحاق ،

فقال : يا أحمد ، إنها والله نفسك ، إنه لا يقتلك بالسيف ، إنه قد آلى ، إن لم تجبه ، أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يقتلك في موضع لا يرى فيه شمس ولا قمر . أليس قد قال الله تعالى : إنا جعلناه قرآنا عربيا أف يكون مجعولا إلا مخلوقا ؟ فقلت : فقد قال تعالى : فجعلهم كعصف مأكول أف خلقهم ؟ قال : فسكت . فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان ، أخرجت ، وجيء بدابة فأركبت وعلي

الأقياد ، ما معي من يمسكني ، فكدت غير مرة أن أخرج على وجهي لثقل القيود . فجيء بي إلى دار المعتصم ، فأدخلت حجرة ، ثم أدخلت بيتا ،

وأقفل الباب علي في جوف الليل ولا سراج . فأردت الوضوء ، فمددت يدي ، فإذا أنا بإناء فيه ماء ، وطست موضوع ، فتوضأت وصليت . فلما كان من الغد ، أخرجت تكتي ، وشدت بها الأقياد أحملها ، وعطفت سراويلي . فجاء رسول المعتصم ، فقال : أجب فأخذ بيدي ، وأدخلني عليه ، والتكة في يدي ، أحمل بها الأقياد ، وإذا هو جالس ، وأحمد بن أبي دواد حاضر ، وقد جمع خلقا كثيرا من أصحابه . فقال لي المعتصم : ادنه ادنه . فلم يزل يدني حتى قربت منه . ثم قال : اجلس ، فجلست ، وقد أثقلتني الأقياد ، فمكثت قليلا ، ثم قلت : أتأذن في الكلام ؟ قال تكلم ،

فقلت : إلى ما دعا الله ورسوله ؟ فسكت هنية ثم قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، فقلت : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله . ثم قلت : إن جددك ابن عباس يقول : لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ، سأله عن الإيمان ، فقال : أتدرون ما الإيمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تعطوا

الخمس من المغنم قال أبي : فقال ، يعني : المعتصم : لولا
أنني وجدتكم في يد من كان قبلي ، ما عرضت لكم . ثم قال :
يا عبد الرحمن بن إسحاق ،

ألم أمرك برفع المحنة ؟ فقلت : الله أكبر ! إن في هذا لفرجا
للمسلمين . ثم قال لهم : ناظروه ، وكلموه ، يا عبد الرحمن
كلمه . فقال : ما تقول في القرآن ؟ قلت : ما تقول أنت في
علم الله ؟ فسكت ، فقال لي بعضهم : أليس قال الله تعالى
الله خالق كل شيء ؟ والقرآن أليس شريئاً ؟ فقلت : قال الله
تدمر كل شيء فدمرت إلا ما أراد الله . فقال بعضهم : ما
يأتيهم من ذكر من ربهم محدث أفىكون محدث إلا مخلوقا ؟
فقلت : قال الله : ص والقرآن ذي الذكر فالذكر هو القرآن ،
وتلك ليس فيها ألف ولام .

وذكر بعضهم حديث عمران بن حصين إن الله خلق الذكر،
فقلت : هذا خطأ، حدثنا غير واحد : إن الله كتب الذكر
واحتجوا بحديث ابن مسعود : ما خلق الله من جنة ولا نار ولا
سما ولا أرض أعظم من آية الكرسي فقلت : إنما وقع الخلق
على الجنة والنار والسماء والأرض، ولم يقع على القرآن. فقال
بعضهم : حديث خباب : يا هنتاه، تقرب إلى الله بما
استطعت، فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه
فقلت : هكذا هو. قال صالح : وجعل ابن أبي دؤاد ينظر إلى
أبي كالمغضب. قال أبي : وكان يتكلم هذا، فأرد عليه.
ويتكلم هذا،

فأرد عليه ، فإذا انقطع الرجل منهم ، اعترض ابن أبي دواد ، فيقول : يا أمير المؤمنين ، هو ، والله ، ضال مضل مبتدع ! فيقول : كلموه ، ناظروه ، فيكلمني هذا ، فأرد عليه ، ويكلمني هذا ، فأرد عليه ، فإذا انقطعوا ، يقول المعتصم : ويحك يا أحمد ، ما تقول ؟ فأقول : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أقول به . فيقول أحمد بن أبي دواد : أنت لا تقول إلا ما في الكتاب أو السنة ؟ فقلت له : تأولات تأويل ، فأنت أعلم وما تأولات ما يحبس عليه ، ولا يقيده عليه .^{٨٩}

كان طلاب الحجة حاضراً في الجواب مع ثقل القيود والتهديد. لا تصير الدعوى صحيحة لأن من يقولها قادر على العقوبة، ولا يكون التمسك بالرأي فضيلة لمجرد صعوبة الرجوع عنه. الذي يطلاب الحق يعتني بدلي له، ويقبل تصحيح فهمه إذا تبين خطؤه.

وقال الإمام أحمد عن محمد بن نوح:

ما رأيته أحدا على حداثة سنه ، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح ، إنني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير . قال لي ذات يوم : يا أبا عبد الله ، الله الله ، إنك لست مثلي . أنت

٨٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة أحمد بن حنبل، ٢٤٣/١١-٢٤٧؛ رواية صالح عن أبيه. «التكة»: رباط السراويل. ما في الخبر من ألفاظ المناظرة ونقول الخصوم جزء من روايته، لا تصحيح مستقل لكل مروى فيها ولا تعميم لأحكامها على أشخاص آخرين.

رجل يفتدى بك . قد مد الخلق أعناقهم إليك ، لما يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله ، أو نحو هذا . فمات ، وصليت عليه ، ودفنته . أظن قال : بعانة .^{٩٠}

في كلمة الصاحب عون قد يحتاج إليه من نظنه أقدر الناس على الصبر. لا تنتظر أن يستغني أخوك عن النصيحة والدعاء حتى ترى فيه ثباتاً؛ قد يجدهما ما يقويه.

وفي حياتنا صور أصغر من هذا الامتحان، لكنها تكشف ما في النفوس. يُطلب من موظف أن يثبت معلومة يعرف أنها كاذبة، أو من شاهد أن يغيّر شهادته، أو من متكلم أن يمدح ظمناً ليحفظ من فعة. لا نزع أن أحوالنا تماثل محنة أحمد، لكننا نسأل عما نتعلمه منها: بأي شيء نزن الكلام الذي نطالب به؟ وبأي شيء نبرر لأنفسنا أن نقول خلاف ما نعلم؟

قد تكون كلفة الصدق حقيقيّة، فلا يصح أن نتحدث عنها بخفة. قد يخشى إنسان أن يفتقد عمل، وقد تخلف أحكام الإكراه والضرورة باختلاف الأحوال. ليس لنا أن نحكم على كل مبتلى من بعيد، أو نلزمه بمرتبة لا نعرف قدرته عليها. نأخذ من الثابتين ما يقوي عزائنا، ونسأل أهل العلم عما يخلصنا، ولا نجعل سيرتهم سوطاً على ظهور من وقعوا تحت تهديد لا نحمله نحن.

ومع هذا لا نسمي كل حرج إكراهاً. قد يكون الذي نخافه كلمةً من صاحب، أو نقص إيجاب، أو فوات أمر لا نحتاج إليه. حين نبالغ في حجم هذه المخاوف، نعطيها حقاً ليس لها في

توجيه ألسنتنا. من اليقين بالله أن نعيد السؤال إلى قدره:
هل أترك حقاً علمته من أجل أن أبقى مقبولاً في مجلس؟ وهل
أطلب رضا الناس بطريفة أعلم أنها لا ترضي ربي؟

وليس التمسك بالوحي تمسكاً بفهمنا على أي حال. من قال:
أعطوني دليلاً، ينبغي أن يقبله إذا صح وتبينت دلالته.
العناد قد يرتدي ألفاظ الثبات، لكنه يرفض التعلم. لذلك
نجمع بين قوة في قبول الحق وتواضع في فهمه؛ نراجع،
ونسأل، ونفرض بين النص وما استنبطناه منه. لا نرفع
رأياً بشرياً فوق المراجعة بحجة الدفاع عن الدين.

وفي خبر محمد بن نوح باب للصحة لا يقل نفعا عن الكلام
في المحنة نفسها. قد لا تملك أن ترفع عن صاحبك الضرر،
لكن تملك أن تحفظ سره، وتدعو له، وتدله على حق، وتعين
أهله. لا تكن ممن لا يعرفون الصابر إلا بعد أن تصير قصته
مشهورة. المحتاج إلى النصرة اليوم قد يكون قريباً لا
يلتفت إليه أحد، ويكون بعض وفائك له في عمل صغير
يخفف عنه.

ومن تأمل طاب أحمد للدليل تعلم أيضاً أن السلطة لا تنشئ
الحقيقة. قد يجتمع الناس على رأي ويخطئون، وقد ينفر
إنسان ببيان صحيح. لكن الانفراد بنفسه ليس فضيلةً
توجب تصديق صاحبه؛ الميزان هو الحجة، لا عدد الموافقين
ولا عدد المخالفين. هذا يحفظنا من طرفين: اتباع الكثرة
دون علم، والافتتان بكل من يخالف لمجرد أنه خالف.

٩٠. الذهبى، سير أعلام النبلاء، ١١/٢٤٢؛ رواية حنبل عن أحمد في محمد بن نوح.

ونحتاج إلى العلم في أيام السعة قبل ساعات الامتحان. من عرف أصل ما يقول، وتعلم أدلته، كان أبعد عن الاضطراب عند كل صوت عالٍ. ليس المقصود أن نحفظ ردودًا كثيرة لنواجه بها الناس، وإنما أن يكون إيماننا متصلًا بفهم صحيح، وأن نؤدي ما نعلمه من الأمانة والصدق. الأعمال الصغيرة التي نصدق فيها ليست خارج تربوية القلب على الثبات.

بقي من تلك المحنة سؤال يحسن أن يرافق طالب الحق: أي ن الدليل؟ وبقي معها معنى يعين القلب: لا تجعل رضا الخلق بدلًا من رضا الله. نسأله العافية من الفتن، والثبات إذا نزلت، والعلم الذي نعرف به ما نلتزمه، والرحمة التي لا ننسى بها حاجات من ابتلوا حولنا. ليس غرضنا أن نطالب المحن، بل أن نحفظ ديننا في كل ما يقدره الله لنا.

الباب السابع: اليقين في العبادة واليوم العادي

عمل كان يرجوه بلال

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبَلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ يَا بَلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةٍ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أَصَلِّيَ.^{٩١}

والعمل الذي وصفه بلال يصلح أن يوقظ فينا معنى المداومة. قد نتخيل أن ما يغيّر القلب لا بد أن يكون جديداً في كل يوم، وأن الفعل إذا صار مألوفاً فقد قبيحته. لكن الطهارة تتكرر، والصلاة تتكرر، ويمكن أن يتجدد معهما قصد العبد ورجاؤه. ليست المشكلة في تكرار المشروع، وإنما في أن يصير عادةً لا يبذل صاحبها جهداً في حضور قلبه وأداء حقه. نحن نؤمن أن الله لا يضيع العمل الصالح، ثم نحتاج إلى هذا اليقين حين لا نجد تشرجيباً من أحد. قد تحافظ على عمل لا يعرفه أقرب الناس إليك، ولا يقال لك بعده إنك أحسنت. ما

٩١. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، رقم ١١٤٩؛ عن أبي هريرة. فسر البخاري «دفع نعليك» بتحريكهما. بشارة بلال خاصة به، ويخرجو غيره الأجر دون جزم بمثلها.

الذي يعين على بقائه؟ أن تعرف لمن تعمله، وأن يكون رجاؤك في الله أصدق من حاجتك إلى خبر يصل إلى الناس عنه. ليس كل خير يحتاج إلى أن يجد له شاهداً بشرياً.

وفي كلام بلال سعة أيضاً؛ صلى ما كتب له أن يصلي. لا نضع من عندنا عدداً خاصاً وننسبه إلى الخبر، ولا نحول المداومة إلى مشقة لا يطيعها صاحبها. يتعلم الإنسان أحكام ما يفعل، ويعمل على هدى، ويراعي ما يجب عليه. وليس من الخير أن يشتغل بنافلة حتى يضيق فرضاً أو حقاً لإنسان، ثم يستدل بحرص الصالحين على العبادة.

ولا تقارن بدايتك بأعمار الناس. ترى عملاً عند آخر فتريده أن تجمع مثله في أيام، ثم إذا عجزت تركت ما تقدر عليه. خذ من سيرتهم صدق القصد، وتعلم ما يصلح لحالك. ليس الطريق إلى الله منافسةً على أكثر جدول ازدحاماً، بل اتباع وإخلاص ومجاهدة على قدر الاستطاعة. وقد تحتاج النفس إلى حفظ أصل ثابت أكثر من حاجتها إلى إضافة لا تثبت أن تنقطع.

والرجاء لا يلغي الخوف من التقصير. حين ترجو أن ينفعك عمل، لا تزعم أنه يغنيك عن التوبة مما تعرف من ذنوبك. قد يحافظ إنسان على نافلة ثم يستهين بغيبة أو مال ليس له. العمل الصالح يدعو إلى صلاح أوسع، لا إلى مقايضة تتساهل بها في حقوق الله والناس. من صدق رجاؤه أحب أن يصلح ما يفسد عليه طريقه.

وربما يمر بك يوم لا تجد فيه من انشراح الصدر ما وجدتة
قبل ذلك. لا تحكم فوراً أن العمل لم يعد نافعا. الشعور
يتفاوت، والعبد يجاهد في أيام النشاط وغيورها. أد
المشروع بظمأنينة، واطلب حضور القلب، ولا تجعل كل عبادة
امتحاناً يجب أن تحصل فيه على انفعال معين. قد يكون
ثباتك في يوم عادي من الخير الذي لا تعرف قدره.
كان ابلال عمل يرجوه، وجاءته البشارة من رسول الله ﷺ. ولنا
أن نعمل ونرجو، وأن نسأل الله القبول من غير تزكية. اللهم
اجعل لنا من طاعتك نصيباً صادقاً، وأعناً على إحسانه ودوامه،
ولا تجعل حاجتنا إلى ثناء الناس أكبر من رجائنا فيك.

نداء خفي ورجاء كبير

قال الله تعالى:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَرِيبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَٰ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾^{٩٢}

وقال سبحانه:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَرِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾^{٩٣}

٩٢. مريم: ٦-٢؛ وتفسير ابن كثير عند الآية ٤، في دعاء زكريا وذكر ضعفه وحسن رجائه.

٩٣. مريم: ٧-١١؛ وتفسير ابن كثير عند الآيتين ٧ و٩. البشارة بيحيى خاصة بزكريا، ولا يستنبط منها وعد مخصوص لكل من تأخر عنه الإجاب.

ففي هذه الآيات لا تُمحي الأسباب التي يعرفها الإنسان، بل تُذكر كما هي: عظم وهن، وشرب ظهر، وزوجة عاقر. ثم لا تتحول هذه المعرفة إلى دعوى أن قدرة الله تنتهي عند ما يراه العبد. دعا زكريا ربّه وهو يعرف حاله، لا لأنه نسيها. كان ضعفه من أسباب افتقاره، ولم يجعله حكمًا على عجز لا يليق بالله سبحانه.

وهنا يتعلم القلب أدباً في السؤال. لا تحتاج إلى أن تبدو قوياً حين تدعو. تستطيع أن تقول إنك ضعيف، وإن أمراً شق عليك، وإنك لا تعرف كيف تتصرف. هذا إخبار عن حالك، لا اتهام لربك. وإذا كنت تستحي أن تبوح بحاجتك للناس، فدعائك إلى الله لا يحتاج إلى أن يرتبوا لك الكلمات أو يجيزوا لك الحزن الذي تحمله.

تذكر إحسان الله إليك وأنت تدعو: نعمة عشت فيها، أو هداية بعد حيرة، أو عافية بعد تعب. اشكره على ما وهب، وسله مما تحتاج، وأبق رجاءك فيه واسعاً؛ لا تحصر إحسانه في صورة واحدة اخترتها لنفسك.

والبشارة ليحيى خبر خاص صدق كما أخبر الله. لا نأخذها لنعد كل من تأخر عنه الولد بأن ذلك سيحدث حتماً في حياته. إنما نعلمه أن الله قادر، وأن الدعاء مشروع، وأن الرجاء لا يضيّق بما نعرف من الأسباب. ويأخذ من الأسباب المباحة ما ينفعه، ويرجع في شؤونه إلى أهل الاختصاص، ولا يجعل أحد نتيجة العلاج أو عدمها مقياً لصديق إيمانه.

هذه الرحمة ضرورية حين نخاطب من يظنون. قد يكون أشد ما يؤلمهم بعد الحاجة حكم الناس عليهم: لم تدعوا بقيين كافٍ، أو لو فعلتم عملاً بعيثه لما تأخرت الإجابة. لا نعلم ذلك، ولا نملك أن نقيس عبادة الناس بما حصل لهم من مطلوب الدنيا. نستطيع أن ندعو معهم، ونحفظ أسرارهم، ونكف عن الأسئلة التي تجرح، ونبقي لهم مساحة يعيرون فيها دون امتحان مستمر.

ومن رجاء زكريا في صلاح ما يسأل نتعلم أن ننظر إلى عاقبة النعمة. نسأل مالاً حلالاً يعين على الخير، وعلماً نافعاً، وأهلاً صالحين، ولا نحصر السؤال في امتلاك الشيء وحده. قد نطلب ما نحب ونغفل عما يرضي الله فيه. ليس الدعاء مجرد تعداد رغبات؛ إنه تربية للقصص كذلك، نراجع فيه ما نريد ولماذا نريده.

وإذا انفتح لك باب مما دعوت، فلا تنس الحال التي كنت فيها قبل الفتح. اشكر الله، وأحسن استعمال ما أعطاك، وكن أرفق بمن لم ينل مثل ما نلت. ليس حصول النعمة شهادة بأنك خير من غيرك، ولا يبيح لك أن تتحدث عن المتأخرين كأنهم لم يحسنوا الدعاء. من شكر الفضل أن يتواضع صاحبه، ويعرف أنه محتاج إلى الله في حفظ النعمة كما كان محتاجاً في طلبها.

وقد يظن أمرت تمناه بعيثاً عنك زمناً. لا تجعل هذا الأمر وحده كل حديثك مع الله. لك ذنوب تستغفر منها، ونعم تشكره عليها، وفرائض تسأله العون على أدائها، وأناس تدعو

لهم. محبة مطلوب واحد لا ينبغيبغي أن تحجب عنك سعة
العبودية. دعوت ربك لأنك عبده، لا لأن الصلاة به معلقة
بنتيحة واحدة في دنياك.

وخفاء النداء في القصة يذكّرنا بأن الدعاء لا يحتاج إلى
جمهور. لست مطالباً أن تخبر الناس بما سألت، ولا أن تعلن لهم
أنك على يقين بماذا سيأتي. قد تكون كلماتك قلبية في
غرفة هادئة، لكن ربك يسمعها. اصدق في سؤالك، وكن مؤدباً
في رجائك، ثم امض إلى ما تستطيع من عمل، ولا تجعل
الانتظار يمنعك من كل خير حاضر.

قرأنا خبر شريح ضعفت قوته، وبقي رجاؤه في ربه. لا
نخرج منه بادعاء معرفة مستقبلنا، بل بمعرفة أصدق لمن
ندعوه. يا رب، كما تعلمنا من كتابك أن نسألك، فأعنا على
حسن السؤال، وهب لنا من الخير ما يصلح ديننا وديننا،
واجعلنا لك شاكرين في العطاء، بك مستعنيين في
الانتظار.

وتعلم ولا أعلم

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا
السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ
مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ
وَأَسْتَغِيثُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ
تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ
كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ
أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ
بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي
وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ -
فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ
أَرْضِنِي بِهِ - قَالَ - وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ.^{٩٤}

وقال الله تعالى:

^{٩٤} صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم ١١٦٦؛ عن جابر.
والبقرة: ٢١٦. لا يذكر الحديث اشتراط منام أو علامة حسية للاستخارة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.^{٩٤}

قد تبحث وتساءل وتعرف وجوهاً من الأمر، ويبقى من عواقبه ما لا تحيط به. في الدعاء إقرار بهذا الافتقار، وسؤال لله أن يختر لك الخير فيما تعلم وما غاب عنك.

ويطلب المستخير الخير في دينه ومعاشه وعاقبة أمره. ليست المنفعة القريية وحدها معياراً. ربما يوافق أمر رغبتك الآن، ثم تكون عاقبته مما لا تعلم، وربما تكره ما فيه صلاح. لذلك تسأل أن ييسر لك ما هو خير، ويبارك لك فيه، وأن يصرف عنك ما هو شر، وأن يصرفك عنه. القلب نفسه يحتاج أحياناً إلى أن يصرف عن التعلق بما لا ينفعه. ثم ينتهي الدعاء بطلب الخير حيث كان والرضا به. ما أجمل أن يتسع رجاء العبد لهذا: أنا أحب شئياً، لكني لا أحب أن يفسد ديني أو عاقبتي. لا أريد مجرد أن تغلب رغبتني، بل أن يكون ما يقدر لي خيراً. هنا يصبح اليقين بعلم الله عوناً على تواضع النفس، لا ذريعة للإغواء التفكيري أو للزعم أن اختيارها الأول لا يمكن أن يخطئ.

ولا تذكر رواية جابر اشترط حلم بعد الصلاة، ولا علامة لونية، ولا صوتاً يخبرك بما تفعل. فلا تجعل ما لم يرد فيها شرطاً يحبس قرارك. تتعلم أحكام الاستخارة، وتستشير،

وتنظر فيما ظهر لك من أسباب، وتعمل بما ترجح عندك من وجه مشروع. أما طلاب معرفة الغيب من أشخاض يزعمون أنهم يختارون لك باسم الاستخارة، فليس هو هذا الدعاء الذي علمه النبي ﷺ.

وربما يريد الإنسان من الاستخارة ضماناً بأن الطريق سيكون بلا تعب. لكن الخير قد يأتي معه جهد ومسؤولية، والسهولة الظاهرة لا تثبت وحدها أن كل أمر مرضي. لا تحكم على جميع عواقب قرارك من أول عقبة، ولا تنسب كل صعوبة إلى خطأ في دعائك. قد تحتاج إلى تعلم، أو تعديل خطة، أو صبر، وقد يتبين لك أن الرجوع أصلح؛ فاجمع المعلومات واعمل بعقل وأمانة.

ومن صدق التفويض ألا تخفي ما يؤثر في القرار. تسأل عن شراكة مثلاً، ثم تتجاهل ما ظهر من خلل لأنك تريدها. أو تستشير في أمر أسري، فتذكر فقط ما يؤيد رغبتك. الدعاء لا يعوض نقص الصدق مع من تستشيرهم. إذا كنت تريد الخير حقاً، فأعط السؤال حقه، واسمع ما قد يخالف هواك، ولا تجعل الاستشارة زينة لقرار لا تقبل مراجعته.

ويحتاج المستخير إلى حفظ ما هو معلوم من أمر الله قبل طلب الخيرة في المباح. لا تجعل الدعاء وسيلة للإباحة حرام نعرفه، أو لتعليق فريضة إلى أن نجد رغبة فيها. إنما

٩٤. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم ١١٦٦؛ عن جابر. والبقرة: ٢١٦. لا يذكر الحديث اشتراط منام أو علامة حسية للاستخارة.

نطلب العون على الطاعة، والخير فيما يجوز لنا اختياريه. معرفة هذه الحدود تحمي القلب من أن يسمي الميل النفسي جواباً من الله، ثم يحمل الدين مسؤولية ما اختاره هو.

قد أتيتك بعد القرار حسرة: ليتني اخترت غيره. بعض هذه الحسرة يدعوك إلى تعلم مفيد، وبعضها لا يفعل إلا أن يعيدك إلى لحظة لا تستطيع تغييرها. خذ الدرس الذي تقدر عليه، وأصلح ما يمكن إصلاحه، ثم لا تجعل حياتك رهينةً لبديل لا تعرف حقيقته. لست عالماً بما كان سيقع لو سلك الطريق الآخر، وإن زينتَه النفس لك بعد فواته.

وتتعلق بالاستخارة مسؤولية من يُستشار. إذا جاءك إنسان يطلب رأيك، فلا تجعل ثقته بك إنزاً للجزم بمسئق بل لا تعلمه. قل ما تعرف، وبيّن حدود تجربتك، ولا تخفِ مصلحةً خاصة تؤثر في نصحك. من الخير أن تعينه على التفكير، لا أن تستولي على اختياريه. من يسأل الله بعلمه يحتاج من الناس إلى أمانة، لا إلى يقين مصطنع يزيّد حيرته إذا أخطأوا.

وفي قولنا: اصرفني عنه، اعتراف بشدة تعلق القلب أحياناً. قد ينصرف الأمر بالفعل ويبقى الإنسان يطلبه في كل وجه، فيؤذي نفسه وغیره. نسأل الله أن يهدينا إلى قبول ما تبين أنه غير نافع، وأن يفتح لنا من الخير ما لا نراه بعد. لا يلزم أن يزول الحزن في لحظة، لكن يمكن أن يبقى معه أدب واستعانة وخطوة إلى الأمام.

كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة بعناية. فلم يحفظ
معناها مع ألفاظها: علم لله كامل، وعلم لنا محدود؛ قدرة له لا
يعجزها شيء، وقدرة لنا مفتقرة؛ وفضل نرجوه في ما
نختار وما يصرف عنا. حين تؤدي الركعتين وتدعو، سل
الخير بصدق، ثم لا تنس أن من تمام الطلب أن تنصف الحق
من رغبتك.

أتقاكم له

قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بَيْتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا وَآيُنَا نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفِطِرُ. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقاكمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفِطِرُ، وَأَصْلِي وَأَزْقِدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي.^{٩٥}

في القصة معنى يحتاجه من يطلب زيادة اليقين: المعرفة بالله لا تدعو صاحبها إلى الاستغناء عن اتباع الرسول ﷺ، إذا كانت الخشية عند النبي ﷺ أعظم، وهديه هو هذا، فلا تكون مخالفة هديه باسم مزيد الخشية كملاً. قد تريد الن فس الخير وتخطئ طريقه، وقد يكون من صدقها أن تقبل التصحيح بدل أن تدافع عن شدة ظناتها فضيلة.

والاعتدال النبوي ليس اسماً للفتور عن الفرائض، ولا حجة لمن ترك العبادة كلها. الرجال أرادوا زيادة تتجاوز الهدى، فصحت لهم. أما من يضيع الصلاة ثم يحتج بأن الدين

يسر، فقد وضع النص في غير موضعه. بين الغلو والتقصير طريق فيه طاعة وجهاد للنفس، وفيه حقوق للبدن والأهل، وفيه عمل يمكن أن يستمر.

وقد نرى الخطأ نفسه في صورة قريبة. يخرج إنسان من توبة صادقة، فيضع لنفسه التزامات كثيرة لا يطيعها، ويمنع كل مباح يحبه، كأن الراحة خيانة لرجوعه إلى الله. ثم يتعب، فيظن أنه لم يكن صادقاً، ويترك أكثر مما بدأ. لا تحتاج التوبة إلى أن تعاقب نفسك بما لم يشرعه الله؛ تحتاج إلى ندم وإقلاع وإصلاح واتباع، وإلى صبر يحفظ الطريق بعد حماسة البداية.

ومن اليقين برحمة الله وحكمته أن لا نعتقد أنه يحب منا تعذيب الأبدان لذاته. المشقة التي تعرض في أداء المشروع نصاب عليها، لكننا لا نطالبها لمجرد أنها مشقة. قد يثقل عليك القيام في صباح بارد فتجاهد نفسك للصلاة، وهذا غير أن تزيد على نفسك تعباً لا تتطلبه الطاعة ثم تجعل تحمله معيار حبك لله.

وللنفس حيلة أخرى: قد تحب من العبادة ما يظهر فيه تفوقها، وتثقل عليها الحقوق التي لا يراها الناس. تسهل عليها ساعات عمل اختارته، ويصعب عليها اعتذار أو نفقة واجبة أو رعاية قريبة. من أراد صلاح قلبه لم يجعل اختياريه

٩٥. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣؛ عن أنس. «تقالوها»: عدوها قليلاً؛ «رغب عن سنتي»: أعرض عن طريقي.

الشخصي حاكمًا على مراتب العمل. يسأل عما أمره الله به في حاله، ويؤدي، ولو لم يكن فيه ما يرضي صورةً يحبها عن نفسه.

والسنة تمنح المؤمن سعةً يعيش بها إنسانيته دون أن يترك عبوديته. ينام ليقوى، ويأكل ويشكر، ويتزوج ويحسن، ويعمل ويتحرى الحلال. ليس كل وقت خارج الصلاة زمنًا ضائعًا إذا وُضع في حقه. وقد سبق في قصة حنظلة أن تفاوت أحوال القلب مع مباشرة الأهل والعمل لا يعني النفاق الذي أخافه؛ ويبقى الواجب محفوظًا والمباح في حدوده.^٧

إذا كنت في أول الإقبال، فلا تستصغر البداية المتزنة. تتعلم صلواتك، واحفظ فرضك، وأصلح ذنبًا تعرفه، ورد حقًا عليك، وخذ من النوافل ما تستطيع. لا تتعجل بناء صورة مثالية لا تجد لها مكانًا في ظروفك. ما تحتاجه ليس إعلان أنك ستصبح شخصًا آخر في أسبوع، بل صدق يكرر، واستعانة لا تنقطع، وعلم يصح كل خطوة.

وإذا رأيت غيرك يأخذ بالرخصة الصحية فلا تحتقره. قد تعلم أن ظاهراً وتجهلاً عذراً، وقد يكون اتباعه في تلك الحال أدق من تشددك. لا نقيس القلوب بأكثر الصور مشرقاً، ولا نزع أن كل من خفف عن نفسه في المباح قد ضعف بقيته. الذي يبين المشروع علم وأمانة، لا منافسة بين الناس على أقسى ما يمكن أن يحتملوه.

٧. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدين، رقم ٢٧٥٠؛ عن حنظلة الأسدي، وكان من كتاب رسول الله ﷺ. عافسنا: اشتغلنا وخالطنا. والضيقات: المعايش.

وفي المقابل، لا نستلهزئ بمن أكثر من طاعة مشروعة يقدري عليها ويؤدي معها الحقوق. ليست الغاية أن ننزل الناس جميعاً إلى قدر واحد من النوافل، بل أن يكون الطريق على هدى، والقصء لله، والواجبات مصونة. بعض الناس يفتح له في باب، ويفتح لغيره في باب آخر. نحب الخير لهم، ولا نجعل اختلاف قدراتهم سبباً للطعن أو التفاضل.

جاء الثلاثة يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فعاد التصحيح إليهم من النبي نفسه. لن تعلم من الموقف أن الرجوع إلى هديه ليس تراجعاً عن محبة الله، بل هو من حقيقتها. نسأله خشيّة على علم، وعزيمة على سنة، وقلباً يحب طاعته من غير غلو ولا تفريط، ويقبل ما شرعه أرفق وأهدى مما تختاره النفس وحدها.

يا ليتني قبّلت الرخصة

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ. فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيَّ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيَّ حَقًّا، وَإِنَّ لِرُؤُوسِكَ عَلَيَّ حَقًّا، وَإِنَّ لِبَحْسَبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ. فَشَدَّدْتُ، فَشَدَّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا تَزِدْ عَلَيَّهِ. قُلْتُ وَمَا كَانَ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ نَصْفَ الدَّهْرِ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ يَا لَيْتَنِي قَبَّلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ. ٩٦

هنا تمتد القصة على زمين: قوة حاضرة يريد صاحبها أن يبذلها، وكبريكشف له ما لم يكن يشعربه من ثقل الاستمرار. نصيحة النبي ﷺ كانت أوسع نظرًا من إحساس

٩٦. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم ١٩٧٥؛ عن عبد الله بن عمرو. «زورك» زوارك وضيوفك؛ «نصف الدهر»: صوم يوم وفطر يوم.

عبد الله بقوته في تلك اللحظة. وهذه رحمة يحتاجها
المتحمس: قد تعرف قدرتك اليوم، ولا تحيط بما
يستق بلك من حقوق وضعف وتغير أحوال.

ومن اليقين أن نصدق فضل الله في الأجر، فلا نزن أن العمل
لا يعظم إلا إذا بلغ بنا غاية المشقة. ثلاثة أيام تضاعف
أجورها كما أخبر رسول الله ﷺ. حين نصدق هذا، لا نحتقر
العبادة التي يسرها الله لنا لأن النفس تتصور أن قيمتها
أقل. نحن لا نحدد الثواب على قدر تعب نتخيله، بل نرجوه
على ما جاء به الخبر الصادق.

ولا يعني رجوع عبد الله إلى ذكر الرخصة أنه لم يكن يحب
الطاعة، أو أن حرصه الأول موضع استهزاء. كان محباً للعبادة،
وتعلمنا روايته أن المحبة تحتاج إلى هدي. نحن أيضاً قد
نصدق في العزم ونحتاج من يضبطه. من الرحمة أن نقبل
النصيحة في وقت القوة، بدل أن نجعل كل من يدعونا إلى
الاعتدال متهماً بتثبيط الخير.

وقد يشبه حالنا هذا في عهود نقطعها على أنفسنا دون أن
ننظر في عاقبتها. نعد بأعمال كثيرة، أو نحمل أنفسنا
تطوعاً لا نعرف كيف نجمعه مع واجبنا. ثم إذا ضاق الوقت
ظلمنا الأهل أو فرطنا في أمانة العمل. لا يصبح الوعد الذي
اخترناه لأنفسنا مبرراً للإسقاط ما أوجبه الله علينا. نحتاج
إلى ترتيب يقوم على العلم، لا على حرارة لحظة واحدة.

والمداومة لا تعني أن تكون العبادة صورة واحدة مهما اختلفت القدرة. قد ينتقل الإنسان من صحة إلى مرض، أو من فراغ إلى مسؤولية رعاية، فيؤدي ما شرع له في حاله. لا يزول صدق قصده لمجرد أن جهده الظاهر تغير. يتعلم ما يلزمه وما يرخص له، ويستعين بالله، ولا يجعل مقارنة نفسه الماضية بنفسه الحاضرة سبباً لاحتقار ما يقدر عليه اليوم.

وفي اعتراف عبد الله بعد كبره أدب جميل. يستطيع الإنسان أن يروي خبرته بما فيها من أمنية التصحيح، فينتفع به من بعده. ليس لازماً أن يدافع عن كل اختياري سابق حتى يكون محتزماً. قد تقول لولدك أو لطالبك: كنت أظن كذا، ثم عرفت أن النصيحة كانت أرفق وأصوب. بهذا تمنح غيرك فائدة لا يجدها في كلام من لا يعترف بشيء تعلمه متأخراً.

والبدن الذي يحتاج إلى نوم وراحة ليس عدواً للقلب. به نصلي ونسعى ونؤدي الحقوق. فإذا أعطيناه حقه بقصد صالح، لم نكن قد اخترنا الدنيا على الدين. الفارق بين الراحة التي تعين على الواجب، والراحة التي تستغرق الحياة حتى يضيق الواجب. كما أن الفارق بين الاجتهاد المشروع، والزيادة التي تورث التفريط فيما هو أوجب منها.

قد تحتاج اليوم إلى تقلييل شيء اخترته حتى تحفظ شيءاً أعظم. لا تتعجل فتسم ذلك فشلاً. راجع جدولك بصدق: ما الفرض؟ وما حق الناس؟ وما النافلة التي تستطيع

المحافظة عليها؟ لا تجعل أكثر ما يظهر للناس أول ما تحفظ،
بيني ما يظل حق من في بيتك آخر الاهتمام. الله يعلم الجهد
كله، ولا يقتصر علمه على ما يراه من يثنون عليك.

ومن الثقة به أن ترجو النفع في القليل الصادق، وألا تيأس
لأنك لا تملك أعمال غيرك. لست مطالباً أن تجمع قدراتهم
جميعاً في يومك. بين يديك حق واضح، وعمر لا تعلم آخره،
ورب كريم أمرك بما تستطيع. احرص أن تكون الطاعة جزءاً
ثابتاً من حياتك، لا اندفاعاً يعقبه انقطاع لأن النفس
حملت فوق ما تطيق.

بقيت كلمة عبد الله بعد الكبر تنبه من يظن أن القوة لا
تتغير. ليتنا نقبل رحمة الهدي ونحن قادرين، ونوقن
بصدق ما جاء فيه من الفضل، ونعطي كل حق مكانه. نسأل
الله أن يعيننا على عبادته في شربابنا وكبرنا، وأن يجعل
علمنا بالسنة سبباً لحسن العمل، لا مجرد خبر نحفظه ثم
نختار خلافه لأنفسنا.

فأعط كل ذي حق حقه

قال أبو جحيفة رضي الله عنه:

آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً. فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ قَالَتْ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا. فَقَالَ كُلْ. قَالَ فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ فَأَكَلَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ. قَالَ نَمْ. فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ. فَقَالَ نَمْ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ قُمْ الْآنَ. فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ.^{٩٧}

في هذا الإقرار مرجع حين يختلف حماسك مع ما يجب عليك: ترجع إلى الهدى لتعرف موضع الجهد الذي تبذله. وقد أفطر أبو الدرداء في ذلك اليوم من صيام تطوع، فلا يحمل الخبر على جواز ترك صيام واجب لإرضاء ضيف أو قريب.^{٩٧}

^{٩٧} صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، رقم ١٩٦٨؛ عن أبي جحيفة. «متبذلة»: تاركة للزينة. الصوم في الواقعة تطوع، فلا تعمم على الواجب.

ومن اليقين بالحساب أن تذكر أن حق الأهل لا يصير صغيّرًا لأن الناس لا يرونه. قد يراك الناس كريماً، ويسمعون منك كلاماً نافعاً، وفي بيتك من يحتاج إلى وقتك ورفقك وصدقك. لا يقوم مدحهم مقام أداء حقه. وإذا كان السؤال عن أعمال القلوب، فمن أثر صلاحها أن يحملنا ما نؤمن به على العدل مع الأقربين، لا أن يزدادوا تعباً كلما زدنا حديثاً في الوعظ.

لا نريد أن نضع تنازعاً بين حق الله وحق العباد؛ فإن الله هو الذي شرع هذه الحقوق وأمر بأدائها. حين تحسن إلى أهلك امتثالاً لأمره، فأنت في طاعته. وحين تنام لتؤدي ما عليك بقوة، لا تعيش خارج العبودية لمجرد أنك لست قائماً بتصلي. الذي ينفع هو معرفة ما يرضيه في كل حال، لا اختياريار صورة واحدة نحكم بها على العمر كله.

وقد يحتاج أحدنا إلى أن يسمع شركوى أهله دون دفاع سريع. ربما يقولون إنه لا يجلس معهم، فيجب أن يعمل من أجلهم. وقد يكون صادقاً في عمله، لكن النفقة لا تبلغ سائر الحقوق. وربما يشكون حديثه فيقول إنه يريد لهم الخير. إرادة الخير لا تمنع مراجعة الأسلوب. خذ من سلمان أن تتوقف عند ما يصفه القريب، بدل أن تستخدم مقصداً حسناً لإغلاق كل سؤال.

وفي قبول أبي الدرداء للمراجعة معنى لا نغفل عنه. عرض الأمر على رسول الله ﷺ، ولم يجعل من زاته أو حرصه على العبادة حجةً تمنع التصحيح. من يوقن أنه يطلب رضا الله يستطيع

أن يغيّر طريقه عمله إذا تبين أن غيرها أهدى. ليست الكرامة في أن يبقى كل ما اخترناه كما هو، بل في أن نعطي الهدى حقه حين نعرفه.

قد تبدأ مراجعتك بأمر بسيط: حق وعدت به ولم تؤده، أو وقت يعتاد أهلك انتظارك فيه، أو تعب تلقّيه على غيرك لأنك اخترت لنفسك أعمالاً كثيرة. لا تجعل التغيّر إعلاناً كبيراً؛ أصلح ما تستطيع بصدق. وقد تحتاج إلى سؤال وتفاهم، وإلى قبول أنك لم تكن ترى جميع جوانب الحال. اليقيني لا يجعل نظرنّا كاملاً، وإنما يعلمنا إلى من نرجع وبماذا نحتكم.

جرب أن تنظر في أسبوعك من جهة حق اعتدت تأجيله: وعد لطفل، أو حاجة والد، أو التزام لا يراه من يثنون عليك. اسأل عما يلزمك فيه، ثم أعطه وقتاً حقيقياً. إيّمانك بالحساب يذكرك أن خفاء العمل عن أعين الناس لا ينقص من حق صاحبه، وأن صلاح القلب يجد طريقه إلى هذه التفاصيل الصغيرة.

٩٧. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، رقم ١٩٦٨؛ عن أبي جحيفة. «متبذلة»: تاركة للزينة. الصوم في الواقعة تطوع، فلا تعمم على الواجب.

وما أدراك أنها رقية؟

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَخْيَاءِ الْعَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَابْيَنَ مَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لِدَغَ سَيِّدُ أَوْلِيَّكَ فَقَالُوا هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ فَقَالُوا إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا. فَجَعَلُوا لَهُمْ قِطِيْعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأَمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُرَاقَهُ، وَيَتَفِيلُ، فَابْرَأَ، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا لَا نَأْخُذُكَ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ، خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ.^{٩٨}

توقف الصحابة عند المال حتى يسألوا عن حكمه. قد ينفع الإنسان غيره ثم يظن أن نفعه يعفيه من تحري ما يأخذ؛ لكن الأمانة تصحب الإحسان. نرجو أن يسلم لنا أصل العمل وما يتصل به من حقوق.

قال الله تعالى:

٩٨. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الرقى بفاتحة الكتاب، رقم ٥٧٣٦؛ عن أبي سعيد. «لم يقرؤهم»: لم يضي فوهم؛ «جعلاً»: عوضاً معلوماً؛ «الشاء»: الغنم؛ «يتفيل»: ينفخ مع شيء من الريق.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ○ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ○ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
○ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}.^{٩٩}

نقرأ الفاتحة في صلاتنا، ونحمد الله ونسأله الهداية
ونعترف بحاجتنا إلى عونهِ. ولْيبق لهذه المعاني أثرها في
أيام العافية كما نحس بحاجتنا إليها في المرض.
وقال الله تعالى في خبر إبراهيم عليه السلام:

{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}.^{٩٩}

نسأل الله العافية، ونأخذ بالأسباب المباحة التي يرشدنا
إليها أهل الاختصاص. كل سبب نافع تحت قدرة الله، والشفاء
منه سبحانه.

ومن الوفاء للقصة أن لا نحولها إلى وعد شخصي بأن كل مرض
سيزول فور تلاوة معينة. نصدق ما وقع كما رواه الحديث،
ونؤمن بفضل كلام الله، ونجهل ما قدره لكل مريض. لا نلوم

٩٩. الفاتحة: ١-٧؛ والشفاء: ٨٠. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الشعراء: ٨٠،
في نسبة الشفاء إلى الله.

٩٩. الفاتحة: ١-٧؛ والشفاء: ٨٠. وينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الشعراء: ٨٠،
في نسبة الشفاء إلى الله.

مبتلى لأن شفاؤه تأخر، ولا نخبره أن ذلك يثبت فساد
يقينه. قد يكون من أهل الصلاة والدعاء، وابتلاؤه لا يجيز لنا
التفتيش في سريره أو الجزم بسبب غيبي لحاله.

ويجب أن يبقى المريض إنساناً له حرمة، لا موضعاً لإظهار
قدرة من يعالجه أو يرقيه. الخوف والحاجة قد يجعلان المرء
أسرع قبولاً لوعود كبيرة. فلا يُستغل ماله أو يُطلب منه ترك
علاج لازم، ولا تُنتهك خصوصيته بحجة نفعه. من يعلم أن
الله يسمع ويرى يخاف أن يزيد على ألم المبتلى أذى يصنعه
باسم الدين.

وسبق في حديث عوف بن مالك إقرار الرقى الخالية من
الشرك. لا يحتاج القرآن إلى رموز مجهولة أو دعوى اتصال
بالغيب، ولا يبيح طاب العافية التعلق بمن يزعم لنفسه ما
لا يملك.^{٨٠}

وقد يكون دورك مع مريض أن تؤدي له خدمةً بسيطة. اصحبه
إلى مواعده، أو أعنه في البيت، أو اسمعه دون أن تسارع إلى
وصف حاله. اقرأ وادع بما ثبت، ولا تجعل كل زيارة درساً في
أن عليه أن يكون أقوى. بعض المرضى يبذلون جهداً لا نراه
لمجرد أن يواصلوا يومهم، والرفق بهم من الخير الذي يحتاج
منافعاً لا مقاييس قاسية.

وأن حين تمرض قد تجد نفسك أقل قدرة على أعمال كنت
تحافظ عليها. تعلم ما يشرع لك بحسب حالك، ولا تتخذ
ضعف البدن حكماً على قيمة قلبك. تستطيع أن تستعين

بالله، وأن تصدق فيما تستطيع، وأن تقبل العون دون
خجل. حاجتك إلى الناس في سبب يقدرون عليه لا تنافي
تعلقك بربك، ما دام الاعتماد عليه والسبب في حدوده.

وقد تعود إلى صلاتك بعد ضعف ألم بك فتقرأ الفاتحة
بقلب أجمع. عرفت في تجربتك أنك محتاج إلى الله وإلى ما
ييسره من عون؛ فاحفظ هذا الافتقار حين تتجدد قوتك،
واحمل منه رحمة لمن زالوا ينتظرون العافية.

برأ الرجل بفضل الله، وسأل الصحابة رسول الله ﷺ، وبقيت
لنا القصة تجمع الإيمان والأمانة. نسأل الله شفاء مرضانا
والعافية لنا، وقلبا يستعين به حقاً، ورحمة تجعلنا أرفق
بالمؤمنين، وأبعد عن كل ادعاء لا نعلمه. وما نرجوه من القرآن لا
ينفصل عن اتباعه في الصدق والتوحيد وحفظ حقوق
الناس.

٨٠. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، رقم ٢٢٠٠؛ عن عوف بن مالك الأشجعي.

لم ين فرد الأغنياء بالطريق

عن أبي ذر رضي الله عنه:

أَنَّ نَاسًا، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ
 ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأَجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا
 نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ أُولَئِكَ قَدْ جَعَلَ
 اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ
 صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ
 صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَفِي بَضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ. قَالُوا
 يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ أَتَى أَحَدُنَا شَهَوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ
 أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا
 وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ.^{١٠٠}

وعن أبي هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ فُقَرَاءَ، الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ
 الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. فَقَالَ وَمَا ذَاكَ. قَالُوا
 يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا
 نَتَصَدَّقُ وَيُغْتَقُونَ وَلَا نُغْتَقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفَلَا
 أَعَلَّمَكُم شَيْئًا تَذَرِكُونَهُ مِنْ سَبَقِكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ

١٠٠. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٦؛
 عن أبي ذر. «الدثور»: الأموال الكثيرة؛ «بضغ أحدكم»: جماعه أهله في الحلال.

بَعْدَكُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا
صَنَعْتُمْ. قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ تَسْبِحُونَ وَتُكَبِّرُونَ
وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً. قَالَ أَبُو صَالِحٍ
فَرَجَعَ فَقَرَأَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا سَمِعَ
إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. ١١

هنا يتبدل مقياس المقارنة. إن شغلتك أعمال الناس حتى
نسيته ما تستطيع، خسرت الحاضر من أجل ما ليس بيدك.
تستطيع أن تحب أن تكون لك قدرة على الصدقة، وتسال الله
من فضله، لكن لا تؤجل كل إحسان حتى تملك الكثير. للكلمة
الصادقة، والنصيحة الرفيقة، والذكر، وترك الأذى، أبواب
تعرفها من السنة، ويمكن أن يكون يومك عامراً بها.
والقصة لا تزهد في صدقة المال ولا تعفي القادر من حق واجب.
لم يقل النبي ﷺ للأغنياء أن يتركوا الصدقة لأن الذكر يكفي
عن جميع الحقوق. إنما علم غير القادر ما يفتح له من الخير.
نحن نخطئ حين نستعمل باباً صالحاً لإغلاق باب آخر
يلزمنا. تسبح الله، وتؤدي الزكاة إذا وجبت، وتحفظ الحقوق،
ولا تجعل نافلة تختارها بديلاً عن فريضة تعرفها.
ومن اليقين بالآخرة أن نرى أعمالاً لا تقاس بالمال ولا
بالشهرة. قد يمنع إنسان أذى عن غيره فلا يعرفه أحد، وقد
يدل آخر على حق يحتاجه صاحبه، وقد يذكر عبد ربّه في

خلوة. لا نملك أن نحدد مراتب هذه الأعمال من ظاهرها وحده، لكن
نؤمن أن الله يعلمها. ما لم يدخل في حسابات الناس لا يخرج
من علم الله وجزائه.

وقد يصعب علينا أن نفرح بخيرٍ فتح لغيرنا باباً كنا
نحبه لأنفسنا. يكثر مال أخيك في نفاق، أو يتعلم صاحبك
في نفع، فتتمنى لو كان لك مثله. إن حملك ذلك على خير من
غير تمنى زوال نعمته، فاجعله دافعاً للعمل والدعاء. أما أن
يفسد عليك فرحه لأنك لم تبلغه، فهنا تحتاج النفس إلى
علاج. رزق الله أوسع من منافسة ضيقة لا تتسع لنجاح
اثنين.

وتبدو هذه الحاجة في الأعمال المشتركة. قد يفتح الله على
إنسان بطريقة نافعة، فبدل أن نعيّنه نشرغل بمن
ينسب إليه الفضل. إذا كان المقصود رضا الله، فلنا أن نفرح
بوصول الخير ولو لم يحمل أسماءنا. لا يلغي هذا حفظ الحقوق
الأدبية والمالية، لكنه يمنح القلب أن يجعل الشهرة شرطاً
للتعاون. قد يكون نصيبك الصادق من العمل خفياً، ويعلمه
ربك.

والذكر الذي دل عليه النبي ﷺ ليس حيلة لمضاعفة الأعداد مع
غيباب القلب عن معانيها. نتعلم اللفظ الثابت ونحافظ
عليه، ونجتهد في فهم ما نقول. حين نسبح الله ننزهه عما

١٠١. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته،
رقم ٥٩٥؛ لفظ قتيبة عن أبي هريرة، مع زيادة أبي صالح في رجوع الفقراء.

لا يليق به، وحين نحمده نثني عليه، وحين نكبره نقر بعظمته. نرجو أن يرافق هذا المعنى يومنا، فيصغر في أعيننا ما كنا نعظمه من مدح الناس ومن افستهم.

وفتح الأجر في الحياة الزوجية يزيل وهماً آخر: أن الدنيا والعبادة لا تتجتمعان إلا إذا تركنا حاجاتنا. ما أباحه الله يمكن أن يكون مجالاً للخير والنية الصالحة. لا يحتاج الإنسان أن يتصنع كراهية المباح حتى يكون قريباً من ربه. يضع حاجته في الحلال، ويؤدي حق من معه، ويشكر، ولا يتجاوز حدّاً. بهذا تتصل حياته بمعنى الإيمان، بدل أن يعيش الدين في وقت محدود منها.

فكر فيما بيديك اليوم، لا فيما لا تملكه فقط. لك لسان تستطيع أن تكفه عن جرح، ولك معرفة يمكنك أن تدل بها محتاجاً، وقد تكون لك قوة تعين بها ضعيفاً. هذه الأمثلة لا تمنح كل فعل ثواباً محدداً من عندنا، لكنها تفتح عينك إلى أبواب المعروف المشروعة. اعمل بما تعرف، وتعلم ما تجهل، ولا تجعل قلة المال عذراً لقلة الرحمة.

سأل الصحابة عن السبق إلى الأجر، فعلموا أن فضل الله أوسع مما تصوروا. ونحن نسأله من فضله، ونرجو أن يجعل من افستنا في الخير خالية من الحسد، وأن يرزقنا عملاً صالحاً يناسب ما أعطانا. ليس المطلوب أن نحمل ما في أيدي الناس، بل أن نحسن استعمال ما وضعه الله في أيدينا.

الباب الثامن: حين تختبرك الدنيا

صاحب الحديقة

قال النبي ﷺ:

بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقَ حَدِيقَةَ فَلَانَ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشَّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يَحْوِلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فَلَانٌ. لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقَ حَدِيقَةَ فَلَانَ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتُ هَذَا فَإِنِّي أَنْظِرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلَاثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلَاثًا وَارْتُدُّ فِيهَا ثُلَاثُهُ.^{١٠٢}

انتهى تتبع الماء إلى رجل يعمل. هذه صورة لا ينبغي أن تغيب حين نتحدث عن الرزق واليقيين: سُقِيَتْ حَدِيقَتُهُ، وهو قائم يحول ماءها. لم يكن الفضل الذي وصل إليه دعوة إلى

١٠٢. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم ٢٩٨٤؛ لفظ أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي هريرة. «فلاة»: أرض خالية؛ «حرة»: أرض ذات حجارة سود؛ «شرجة»: مجرى ماء؛ «مسحاة»: أداة للزراعة. قسمة المحصول فعل هذا الرجل، وليست نسبة مفروضة على الناس.

ترك الزراعة. وكان مما ينتجه عمله شيء يعيده إلى الأرض
لتبقى صالحة للإنبات. اجتمع في قصته فضل الله والأخذ
بالسبب، لا إلغاء أحدهما بالآخر.

وجاءت نفقة عياله مع الصدقة. لم ير الإحسان إلى البعيد
سبباً لنسيان من يعول، ولم يجعل حاجة عياله ذريعة لإغلاق
كل باب معروف. لا تفرض قسمته على كل مال وكل أسرة؛
فالحقوق والقدرات تختلف، وأحكام الزكاة تؤخذ من أدلتها.
لكننا نتعلم أن المال يمكن أن يُدار بقلب يذكر أكثر من
نفسه، وأن حسن التدبير لا يناقض صدق البذل.

قد يفرح القارئ بالجزء العجيب من الخبر، ثم لا يقف طويلاً
عند العمل اليومي الذي وصفه الرجل. لكنه الجزء الأقرب إلى
حياتنا. لا نملك أن ننتظر سحابةً ينادى فيها باسمنا، ولا
نطلب دليل قبولنا في أمر خارق. نملك أن نسأل عن حق الله
في مالنا، وحق أهلنا، وحق من نتعامل معهم، وأن نترك
للمشروع الذي نعيش منه ما يحتاج إليه من عناية.

القيين بوعده الله في الخير لا يحول الصدقة إلى تجربة
تجارية نختبر بها ربنا. لا نقول: أخرجت مالاً هذا الأسبوع،
فلا بد أن يعود مضاعفاً في الأسبوع القادم. نحن نتصدق
تعبداً ورجاءً، ونؤمن بما أخبر الله به من الفضل، ولا نحدد
له صورة أو وقتاً من عندنا. من حصر الثواب في زيادة رصيده
قد يحجب عن نفسه خيراً أعظم لا تقيسه الأرقام.

وقد تكون من حاجتنا إلى إصلاح القلب أن نكف عن انتظار الفائض الذي لا يأتي. تتوسع الرغبات كلما توسع الدخل، ثم نقول: ليس عندنا ما نبذله. لا يعني هذا أن نلزم المعسر بما لا يطيق؛ بل أن يراجع القادر ما يسميه حاجة. هناك فرق بين نفقة لازمة، وكماليات اعتدناها حتى صارت في أعيننا أسبق من حق واضح أو معروف نقدر عليه.

ومن يعمل في تجارة أو زراعة يعرف أن المواسم تختلف. قد يربح وقد يخسر، وقد يقل المحصول. لا نستدل بالخسارة وحدها على فساد النية أو غضب الله على صاحبها. كما لا نجعل كثرة المال برهاناً على الاستقامة. كل حال يحتاج إلى طاعته: شكر في السعة، وصدق وصبر في الضيق، وحفظ للحقوق في الحالاتين. لا يتبدل الحلال والحرام بتبدل الأرباح.

وكان صاحب الحديقة يعرف أين يذهب ما يخرج منها. في هذا ما يدعو إلى وضوح التعامل مع المال. إذا اختلطت عليك حقوق الناس بمالك، أو نسيات ما عليك، فليس حسن النية وحده كافياً لتصحيح الحساب. دَوِّنْ ما يحتاج إلى تدوين، وأدِّ ما ثبت، وراجع الخطأ إذا ظهر. هذه أعمال تبدو إدارية عادية، لكنها قد تحفظ للإنسان أمانة يرجو بها رضا الله.

ولا تجعل عطيتك سبباً للإذلال من يأخذها. المال يصلح حاجة، لكن طريقة تقديمه قد تترك في القلب جرحاً. يستطيع المرء أن يعطي في ستر، وأن لا يكثر السؤال عما لا يحتاج إليه،

وأن لا يستخدم الحاجة لكسب طاعة الناس له. من يوقن أن الله هو الذي رزقه يستحي أن يتعاضم على عبد لم يفتح له الباب نفسه.

وقد يكون في رد الثابت إلى الحديقة درس في ألا نأكل قدرة الخير على الاستمرار. الإحسان ليس دائماً إنفاق كل ما في اليد دفعة واحدة، كما أن حفظ الأصل ليس دائماً شحاً. ينظر إلى الواجبات والحقوق والقدرة، ويسأل أهل العلم والخبرة فيما يحتاج إليهما. القصد الصالح يحتاج إلى تدبير يحفظه من الاندفاع ومن البخل معاً.

تخيّل حالاً قريباً، لا قصة ننسبها إلى أحد: شخص لديه دخل محدود، لكنه يعرف ما يلزمه، ويخرج ما يستطيع من معروف دون مباهاة، ويعتني بمصدر رزقه. قد لا يعلم الناس شياً من هذا التوازن، لكنه يعيش كل يوم اختيارات لها معنى. يستطيع أن يجعل سؤال الحلال والحق سابقاً لسؤال المظهر والمنافسة، وهذا مجال حقيقي لتربية اليقين.

لا نعرف اسم صاحب الحديقة من الحديث، لكننا عرفنا ما نحتاج إليه من خبره. ليس انتفاعنا متعلقاً بأن نحفظ اسمه، بل بأن نحسن التصرف فيما رزقنا. نرجو أن يكون لنا نصيب من الإحسان إلى المحتاج، ورعاية من نعول، والأمانة في العمل، وألا يشغلنا انتظار الأعاجيب عن هذه الأبواب القريبة.

مرّ الماء حتى بلغ الحديقة، وكان صاحبها يعمل. فلما عمل نحن
أيضاً في ما نستطيعه، ولتعلق قلوبنا بمن يسوق الرزق
ويبارك فيه. اللهم بارك لنا في الحلال، وأعنا على حقوقه،
واجعل ما أعطينا عوناً على طاعتك، لا سبباً لأن ننسى من
رزقنا أو نتكبر على من يحتاج إلينا.

بعدما تغيرت الحال

قال رسول الله ﷺ:

إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَأَ لِلَّهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ. فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأَعْطِي لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْإِبِلُ - أَوْ قَالَ الْبَقَرُ هُوَ شَرُّكَ فِي ذَلِكَ، إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ الْبَقَرُ - فَأَعْطِي نَاقَةَ عَشْرَاءَ. فَقَالَ يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا، قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ، وَأَعْطِي شَعْرًا حَسَنًا. قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ. قَالَ فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ يُبَارِكُ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي،

فَأَبْصَرُ بِهِ النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ. فَأَعْطَاهُ شِاةً وَالِدًا، فَأَنْتَجَ هَذَانِ، وَوُلِدَ هَذَا، فَكَانَ لَهُذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلَهُذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلَهُذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مَسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ

وَالْجَلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ لَهُ
 إِنَّ الْحَقُّوْقَ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أُعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ
 يَقْذُرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ
 عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى
 الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا،

فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ
 اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ
 وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِي الْجِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَغَ
 الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بَكَ أَسْأَلُكَ بِإِلَازِي رَدَّ عَلَيَّكَ بَصْرَكَ شَاءَ
 أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ
 بَصْرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا
 أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ أُمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنْ مَا
 ابْتُلِيْتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخَطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ.^{١٠٣}

كانت العافية أول ما طلبوه، ثم جاء المال، ثم ظهر الاختلاف
 في الشكر. لا يكفي أن ي تمنى الإنسان النعمة وهو محروم
 منها، أو يعدنفسه أنه سيحسن إذا أعطي. الامتحان يأتي
 حين تصير النعمة مألوفة، وحين يوقف محتاج على الباب،
 وحين يكون في بذل شيء مما في اليد كلفة. ما كان قولاً
 سهلاً في الانتظار يصير اختياريًا حقيقيًا بعد الغنى.

١٠٣. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل،
 رقم ٣٤٦٤؛ عن أبي هريرة. «بدا لله أن يبتليهم»: أراد إظهار ما علمه من حالهم بالاختبار، لا علمًا بعد
 جهل؛ ابن حجر، فتح الباري، ٥/٧٩. «عشراء»: حامل؛ «الحبال»: الأسباب؛ «لا أجهدك»: لا أشق عليك.

وقد حفظ الرجل الذي رد إليه بصره حقيقة ماضيه. لم يخجل من الاعتراف بأنه كان فقيرًا، ولم يحتج إلى قصة يصنع بها لنفسه أصلًا من الغنى لم يكن له. الاعتراف بنعمة الله لم ينقص كرامته، بل دل على شكره. أما صاحب الجحود فلم يكن خطأهما مجرد منع المال؛ أضافا إليه محو الفضل والكذب في نسبته.

وفي هذا ما يلامس قلوبًا تخاف أن يعرف الناس بداياتها. قد يفتح لإنسان في العلم أو الرزق أو المكانة، فيسوءه تذكر وقت احتاج فيه إلى المعونة. ليس واجباً أن ينشر تفاصيل حياته، لكن لا يغير الحقيقة ليتعالى، ولا يحتقر من يمر اليوم بما مر به. لا ينبغي أن يدفعنا انتقالننا من حال إلى حال إلى نسيان ضعفنا المشترك وحاجتنا الدائمة إلى الله.

ومن اليقين أن تعرف أن الله يراك في السعة كما يراك في الضيق، ويعلم أعمالك جميعًا. قد يكثر دعاء المرء عند الحاجة، فإذا زالت ظن أن أيام الاخ تبار ان تهت. لكنها قد تبدأ بصورة أخرى: هل يشكر؟ هل ينفق الحلال؟ هل يحفظ حقوق الناس؟ لا تنحصر العبودية في الصبر على ما نكره، بل تشمل حسن التصرف فيما نحب.

ولا نستخدم القصة للحكم على أصحاب الأمراض أو الفقر. ما وقع لهؤلاء خبر علمناه من رسول الله ﷺ، لا قاعدة نعطي بها تشخي صًا لسرائر الناس. قد يبقى البلاء مع عبد صالح، وقد

يوسع على من يسيء. وظيفتنا أن نأخذ الموعدة لأنفسنا، لا أن نزعم أننا عرفنا من نتيجة دنيوية من رضي الله عنه أو سخط عليه.

ويظهر الشكر في طريقة النظر إلى المحتاج. قد تجد نفسك سرياً إلى اتهامه بالكسل أو سوء التدبير قبل أن تعرف حاله، لأنك تريد أن تريح نفسك من السؤال. وقد توجد حالات تحتاج إلى تحقق وحسن توجيهِه، لكن التثبت غير القسوة. يمكنك أن تعتذر برفق حين لا تقدر، أو تدل على باب نافع، ولا تجعل عجزك عن العطاء ذنباً بإهانة من سأل.

وقد يكون المحتاج أحد أهلك الذين اعتدت وجودهم. لا يلزم أن يكون غريباً حتى تنتبه إلى حقه. ربما كان عونك له نفقةً تلزمك، فلا تسمها منّةً تتفضل بها حين تشاء. راجع الفرق بين الواجب والتطوع، وبين حق الآخر ورغبتك في أن يمدحك. من يعرف أن الله هو المنعم يخف عليه أن يؤدي الحق دون أن يطلب ثمناً عاطفياً له.

والرجل الشاكر لم يقل إنه صنع غناه وحده. هذا لا ينبغي أن يعمل الإنسان ويتعلم ويحسن التدبير، لكنه يعرف أن قدرته وفرصته وتمايم سعيه من فضل الله. تستطيع أن تذكر جهدك بصدق دون أن تنسى من أعانك، وأن تفرح بثمره العمل دون أن تجعلها دليلاً على أنك تستحق فوق الناس جميعاً. الشكر يحفظ الفرح من أن يتحول إلى كبر.

ومن الاخات بارات الدقية أن يبقى أدبك بعد تغير قدرتك. هل تعامل من يخدمك كما كنت تحب أن يعاملك الناس حين كنت أضعف؟ هل يزداد حلمك مع السعة، أم يصير المال وسيلة لفرض غضبك؟ لا نحتاج أن ن فقد النعم حتى نعرف قيمتها. نستطيع أن نذكر، ونسأل الله العون، ونصلح اليوم طريقة عرفنا أنها ت جرح أو ت ظلم.

وليس الشكر أن يخاف الإنسان من كل فرح بنعمة، كأنه لا بد أن يعاقب عليه. يفرح بما أحل الله وي شكره، ويحفظ حدوده، ويخاف التقصير خوفاً يدفع إلى العمل لا إلى سوء الظن. إنما المحذور أن ينسى المنعم أو يستعمل النعمة في معصية. وبين فرح شاكر وغرور جاحد فرق يمكن أن يظهر في فعل صغير عند أول سؤال عن الحق.

ضرب أمامك نعمة واحدة كنت تتمناها ثم صارت جزءاً من يومك. لا يلزم أن تكون مالاً؛ قد تكون عافية أو أهلاً أو علماً. اسأل: كيف أشكرها؟ ومن له حق يتصل بها؟ وما الخطأ الذي أقدر على تركه في استعمالها؟ هذه المحاسبة أقرب إلى نفع القصة من أن نكرر التعجب من جحود الرجلين، ونحن لا ننظر إلى شيء في أنفسنا.

اخترتُ بر الثلاثة بعد أن تبدلت أحوالهم، وبقي الذي ذكر فضل الله على حقيقته لم يرد أن ينساها. نسأله قلباً يعرف النعمة قبل زوالها، وي شكره عليها في السر والعلن، وي رحم من بقي محتاجاً. وما أغنانا عن ادعاء الاستغناء، ونحن لا نملك حفظ شيء من عطايها إلا بعونه.

بركة في نخل جابر

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

أَنَّ أَبَاهُ تُوْفِيَّ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ وَسْقًا لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَاسْتَنْظَرَهُ جَابِرٌ، فَأَبَى أَنْ يُنْظِرَهُ، فَكَلَّمَ جَابِرٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُشْرِفَ لَهُ إِلَيْهِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَلَّمَ الْيَهُودِيَّ لِيَأْخُذَ ثَمَرَنَ خُلِّهِ بِالَّذِي لَهُ فَأَبَى، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّخْلَ، فَمَشَى فِيهَا ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ جُدُّهُ فَأَوْفَ لَهُ الَّذِي لَهُ. فَجَدَّهُ بَعْدَ مَا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَوْفَاهُ ثَلَاثِينَ وَسْقًا، وَفَضَلَتْ لَهُ سَبْعَةُ عَشَرَ وَسْقًا، فَجَاءَ جَابِرٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ بِالَّذِي كَانَ، فَوَجَدَهُ يُصَلِّيَ الْعَصْرَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُ بِبِالْفَضْلِ، فَقَالَ أَخْبِرْ ذَلِكَ ابْنَ الْخَطَّابِ. فَذَهَبَ جَابِرٌ إِلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ لَقَدْ عَلِمْتُ حِينَ مَشَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُبَارِكَنَ فِيهَا. ١٠٤

في القصة فرج جاء مع أداء الحق، لا مع إنكاره. كان الدين حاضرًا، وجابر يطلب المهلة ثم الشفاعة، والنبي ﷺ يكلّم صاحبه، ثم يأمر بالوفاء. لم تصبح حاجة جابر حجة للإسقاط

١٠٤. صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحج والتفليس، باب إذا قاص أو جازفه في الدين تمرًا بتمر أو غيره، رقم ٢٣٩٦؛ عن جابر. «استنظره»: طلب المهلة؛ «جد»: قطع الثمر؛ «الوسق»: مكيال، ستون صاعًا.

مال الآخر من غير رضاه. وهنا يثبت في النفس أصل:
ضيقنا لا يجعل حقوق الناس وهمًا، كما أن رجاء الفرج لا
يعفينا من السعي إلى أدائها.

والبركة التي وقعت من دلئل ما أكرم الله به نبيه ﷺ.
نصدقها كما وردت، ولا نحولها إلى عادة ننسبها إلى كل من مشى
في مزرعة أو دعا عند مال. معرفة من زلة النبوة تحفظ للقيمة
معناها، وتحمي الناس من التعلق بمن يدعون قدرات خاصة
في مضاعفة الأرزاق. الرزق والبركة من الله، ولا يملك إنسان أن
يبيع للناس ضماناً من الغيب.

وكان يقين عمر متعلقاً برسول الله ﷺ وما عرفه من شأنه، لا
بحدس مالي عن محصول الخل. فلا نأخذ كلمته لنسمي
توقعاتنا الاقتصادية وحيًا أو يقيناً شرعياً. يستطيع
التاجر أن يرجح ربحاً بما لديه من خبرة، لكن الرجحان لا
يصير وعداً من الله. وما بين الخبر الصادق والتوقع البشري
مسافة مهمة، تحفظنا من خلط الإيمان بالمغامرة.

إذا أثقلك دين، فقد تحتاج إلى أكثر من التمني أن ينتهي.
تحتاج أن تعرف قدره، وأن تتواصل بصدق مع صاحبه، وأن
تراجع مصروفك، وأن تطلب عوناً مباحاً حين تحتاج. لا
نضع لكل حال علاجاً واحداً، لكن نخاف أن نجعل كلامنا عن
التوكل بديلاً عن هذه الخطوات الممكنة. جابر لم يكتف
المشكلة حتى تفاقمت، بل طلب المعونة في تسويتها.

ومن كان له حق فله أن يطالبه، ومع ذلك لا ينسى فضل الرفق بالمعسر. أمر الله بإنظاره إلى ميسرة، ورغب في الصدقة عليه [البقرة: ٢٨٠]. لا نجعل حكاية رفض الدائن في القصة إلغاء لهذا البيان، ولا نستخدم الرحمة لإجبار صاحب الحق على ما لا يلزمه من إسقاط ماله. تُعرف الأحوال وأحكامها بعلم، ويحفظ العدل مع الإحسان.^{٥٥}

والصدق في شأن المال من آثار اليقين بالحساب. قد يتجنب إنسان مكالمة الدائن لأنه يخجل، ثم يعتاد الغياب، فيتحول الخجل إلى ضرر. وقد يعد بتأريخ يعلم أنه لا يستطيع الوفاء فيه ليتخلص من الحديث. ليست الطمأنة الكاذبة رحمةً بنفسك ولا بصاحبك. قل ما تعلم، وبيّن ما تستطيع، ولا تجعل رغبتك في تأجيل الحرج سبباً لزيادة فقد الثقة. وقد يبتلى إنسان بمسؤوليات تركة أو حقوق لم يرتبها صاحبها قبل موته. هنا نتعلم أن ترك البيانات مضطربة قد يثقل على من بعده. بيان الحقوق وحفظ الوثائق لا ينافي التسليم بقدر الله، بل ييسر أداء الأمانة. ولا يحل اختلاف الورثة أو جهل بعضهم أن تضيع أموال الناس. وما يحتاج إلى اختصاص شرعي أو قضائي يرجع فيه إلى أهله بدل التصرف المتعجل.

وفي شرفاء النبي ﷺ باب للمعونة العملية. قد لا تملك أن تقضي عن صاحبك دينه، لكن تملك أن تصل بينه وبين من ينصفه، أو تعينه على ترتب أمره، أو تشفع شرفاء

^{٥٥} القرآن الكريم، البقرة: ٢٨٠ و ٢٨٢، في إنظار المعسر وتوثيق الديون.

حسنة لا تضيع حقاً. كثير من الضيق يزداد حين يظل صاحبه وحده مع تعقيد لا يعرف كيف يعالجه. كن مؤثماً إن ائتمنتك، ولا تجعل مساعدته سبباً لنشر سره.

وليس مقدار المال وحده هو الذي يحدد طمأنينة صاحبه. قد يملك كثيراً وحقوقه مختلطة، وقد يقل ماله وهو صادق في بذل ما يستطيع. لا نعد أحداً بزوال القلق بمجرد ترتيب الحساب، لكن الصدق والعمل يخرجان المشكلة من إنكارها إلى مواجهتها. وبين أن تعرف ما عليك فتسعى، وأن تخافه حتى تمتنع عن النظر فيه، فرق يستحق أن تبدأ من أجله خطوة.

وإذا فرّج الله عنك، فاحفظ ذكرى ما تعلمته دون أن تبقى أسيراً للخوف. احمده، وأدِّ الحق، ولا ترجع مستخفاً إلى السبب الذي أوقعك في الضيق إن كان خطأ منك. وقد تقع الشدة دون تقصير، فلا نظلم أن فسننا بنسبة كل شيء إلى ذنب خاص لا نعلمه. نتعلم مما يظهر، ونكل ما غاب إلى علم الله، ونطالب منه حسن التدبير.

فرح جابر بوفاء الدين وبما بقي من الثمر، وحمل الخبر إلى رسول الله ﷺ ثم إلى عمر. لم يضيع حق الدائن، ولم تكن البركة كلاماً يتداول بلا أثر؛ شهد جابر وفاءً وفضلاً. ونحن نسأل الله بركة في الحلال، وصدقاً في المعاملة، وعوناً على الديون والحقوق، ونرجو أن يكون طلاب الفرج سبباً لمزيد من الأمانة، لا ذريعة للتخفف منها.

حتى اللقمة

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلِّغْنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلَاثِي مَالِي قَالَ لَا. قَالَ قُلْتُ أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ قَالَ لَا الثُّلَاثُ وَالثُّلَاثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَلَسْتَ تَنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَرْتَ بِهَا حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ.

قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي قَالَ إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً وَلَعَلَّكَ تُخْلَفُ حَتَّى يُنْفَعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هَجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ لَكِنْ الْبَائِسُ سَعْدُ ابْنِ خَوْلَةَ. قَالَ رَثَى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنْ تُؤْفِي بِمَكَّةَ. ١٠٥

١٠٥. صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم ١٦٢٨؛ عن سعد بن أبي وقاص، بلفظ يحيى بن يحيى عن إبراهيم بن سعد. «أشفيت»؛ قاربت؛ «عالة»؛ فقراء؛ «يتكففون»؛ يطلبون بأكفهم؛ «في امرأتك»؛ فمها. سعد بن خولة غيّر سعد راوي الخبر؛ جاء ذكره في آخره. الوصية والهبة لهما أحكامهما، فلا تعمم الواقعة على كل تصرف مالي.

وهنا تظهر حاجة القلب إلى العلم بمراتب الأعمال. قد يحب الإنسان صورةً عظيمة من البذل، ويغفل عن حق معلوم لمن بعده. النية الطيبة لا تجعل كل تصرف في المال صواباً. واليقيين بالثواب لا يعني أن نترك السؤال عن المشروع؛ بل يدعوننا إليه، لأننا نريد أن يكون ما نرجوه عند الله موافقاً لما شرعه، لا لما أثار إعجابنا فقط.

وليس ذكر الغنى في هذا الحديث دعوة إلى أن تصبح الثروة غاية الحياة. المعنى في السياق حفظ الورثة من الحاجة وسؤال الناس. يكتسب الإنسان الحلال، ويؤدي الحقوق، ويحسن إلى أهله، ولا يرى في تدبير ما ينفعهم سوء ظن بالله. الذي أمر بالتوكل هو الذي شرع النفقة والوصية والميراث، فلا يجعل بعضها خصماً لبعض.

ولا نسوّي بين أحكام جميع صور العطاء من هذا الموقف وحده؛ للوصايا والهبات والحقوق تفصيل يرجع فيه إلى العلم. لكن الدرس القريب واضح: لا توزع ما يتصل بحقوق الناس اعتماداً على رغبة عاطفية عابرة. اسأل، وبين حالك كما بينه سعد، واعرف ما لك وما عليك. القرار الذي يبقى أثره بعدك يحتاج إلى أمانة أكثر مما يحتاج إلى استعجال الشرعور بأنك أحسنت.

وتأمل انتقال الحديث إلى اللقمة. هذا فعل صغير في الظاهر، لكنه يدخل في الأجر حين يُبتغى به وجه الله. هنا يعود الإخلاص الذي بدأنا به الطريق؛ يصل إلى عمل يومي لا ينتبه

إليه الناس. لا تحتاج كل طاعة إلى وقت من فصل عن حياتك، فقد تجعل محبتك لأهلك ورفقك بهم عبادةً بالنية الصحيحة وموافقة ما أمر الله به.

ومن آثار اليقين أن لا تحتقر هذا الخير لأن صورته مألوفة. نفقة متكررة، وعناية في البيت، وسؤال عن حاجة، وصبر على مسؤولية؛ كلها قد تثقل إذا رأيناها مجرد التزامات لا معنى لها. وإذا استحضرنّا ابتغاء وجه الله تجدد القصد، ولم نعد نقيس قيمة الفعل بمدى ظهوره. لا يجعل ذلك التعب غير موجود، لكنه يربطه برجاء لا يراه من يحصر العمل في مدح الناس.

وربما تفسد النفقة كلمة نتبعها بها: أنا الذي فعلت، وأنا الذي أنفقت، ولولا لي كان شر أنكم كذا. لا نلغي حق المنفق في التقدير، لكن تحويل الحق إلى إذلال يجرح العلاقة ويحتاج إلى محاسبة. من ابتغى وجه الله لا يريد أن يمحو إنسانية من ينفق عليه. يستطيع أن يبين حدود قدرته، ويطلب التعاون، دون أن يجعل كل معروف ديناً عاطفياً لا ينتهي.

وفي زيارة النبي ﷺ لسعد صورة رعاية لا تنفصل عن التعليم. سمع حاله، وأجاب عن سؤاله، ودعا لأصحابه. قد يحتاج المريض إلى من يسمعه، لا إلى أحكام عامة تلقى عليه دون معرفة ما يخاف. كان عند سعد همٌّ بالمال والورثة والهجرة، فجاءه البنيان فيما سأل. ونحن حين نزور مبتلى ننتفع بهذا الأدب: لا نفترض أن حاجته هي النصيحة التي جهزناها قبل أن نسمعه.

وقد يخاف الإنسان على أهله بعد موته خوفاً يدفعه إلى جمع لا يشرب. خذ من الحديث مشروعية النظر في حاجتهم، ولا تحولها إلى طلب ضمان لا يملكه أحد. تبذل ما تستطيع، وتؤدي ما يلزمك، وتربي وتدعو، ثم تفوض إلى الله ما ليس في يدك. لا يستطيع المال وحده أن يحرس كل مستقبلك، ولا يعفي نقص الضمان من حسن التدبير.

وإذا كنت ممن يقيمون اليوم بنفقات بيت، فجدّد نيّتك في هذا الباب. قد لا يتغير مقدار ما تخرج، لكن يتغير وعيك بمن تتبته رغباته. لا تجعل طلب الأجر ذريعة لأن تمنع الأهل حقوقهم حين لا يشكرونك، ولا تجعل غياب الشكر يقطعك عن الله. يبقّى لهم حق، ويبقى لك أن تسأل العدل والرفق، ويبقى الرجاء في ربك أوسع من ردود الناس.

والذي لا يملك مالاً واسعاً ليس بعيدياً عن معنى الحديث. قد يعطي من القليل ما يلزمه، ويشارك أهله رعايتهم، ويبحث عن رزق حلال، ويحفظ ما في يده من الضياع. لا ترتب مراتب الناس بأرقام نفقاتهم وحدها. الذي يعلم الاستطاعة والنية هو الله، ونرجو فضله في بذل القادر وصبر من ضاق عليه الأمر وسعيه الصادق.

سأل سعد عن ماله، فوجد في الجواب باباً يمتد إلى تفاصيل حياته مع أهله. حتى اللقمة يمكن أن يرجى أجرها. جدّد قصدك وأنّك تؤدي النفقة والعناية اليومية، واسأل الله أن يجعل البيت موضع إحسان، والرزق الحلال عوناً على الشكر.

كي يراه الناس

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا
فَنَآتُ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ. قَالَ
أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ
كَي يَرَاهُ النَّاسُ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي.^{١٠٦}

السبب الذي ذكره البائع قد يفسر البلل، لكنه لا يبيح إخفاءه. هذه نقطة دقيقة في تربية النفس: قد يكون عندك تفسير صحيح لما جرى، ويبقى عليك بعده واجب البيان. لم تتعمد أن ينزل المطر، لكنك تستطيع أن تجعل المش تري يرى ما يش تريه. الفرق بين ما وقع بغير اختيارك وما تفعله بعده يمنع أن تستخدم الظروف عذراً لكل تصرف.

وقال رسول الله ﷺ:

١٠٦. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ «من غشنا فليس منا»، رقم ١٠٢؛ عن أبي هريرة. «صبرة»: كومة؛ «السماء»: المطر.

الْبَيَّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا - أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا -
فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورُكُ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا
مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا. ١٠٨

والمراقبة واليقين يلتقيان هنا في السوق. المراقبة تذكرك أن الله يعلم البطل الذي لا يراه المشتري، واليقين بالحساب يمنع أن يكون غياب اكتشاف الناس نهاية نظرك. تستطيع أن تخفي، لكن هل يجوز أن تأخذ المال على هذا الوجه؟ قد يمر البيع من غير شكوى، ويبقى الفعل محتاجاً إلى توبة ورد حق. نجاح الخداع في الدنيا لا يجعله ناجحاً عند الله.

وليس الغش مقصوداً على الطعام. قد يكون وصفاً لسلعة يخالف حقيقتها، أو صورة توهم بما ليس فيها، أو تقريراً يخفي نقصاً مؤثراً، أو شهادة خبرة غير صحيحة. هذه أمثلة معاصرة على معنى البيان، لا وقائع ننسبها إلى أشخاص. اسأل نفسك في معاملتك: لو عرف الطرف الآخر ما أعرفه، هل بقي رضاه كما هو؟ وما الذي يجب عليّ أن أظهره حتى يكون اختياره على بينة؟

وقد تحاول النفس أن تخفف الخطأ بقولها إن الجميع يفعلون ذلك. لكن عدد من يكتمون لا يغير حق المشتري. ومن اليقين برزق الله أن لا تعتقد أن الكذب هو الطريق الوحيد

١٠٨. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا، رقم ٢٠٧٩؛ عن حكيم بن حزام.

لبقاء عملك. لا نعدك بأن كل صدق سي زيد الربح في اللحظة
 نفسها، فقد يفوتك بيع حين تبين عيباً. لكنك تعرف
 أن فوات مال لا يبيح أخذ غيره بغير حق.
 قال الله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ
 يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ
 أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
 لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ١٠٩

يأتي التذكير بالبعث بعد ذكر من يستوفون لأنفسهم
 وينقصون غيرهم. للصفة تبعة تتجاوز ربحها القريب؛
 ومن يذكر الحساب يتحرى العدل حين يأخذ وحين يعطي.
 والبيان ليس إنزلاً لنفسك ولا إفساداً متعمداً لتجارته.
 تستطيع أن تعرض محاسن ما تبيع بصدق، وتذكر ما
 يحتاج إلى ذكر من عيب أو شرط، وتترك للآخر حقه. الوضوح
 يصون العلاقة من توقعات مصنوعة. لا يلزم أن يعرف المشتري
 كل تفاصيل يومك، لكنه يحتاج إلى الحقيقة التي تؤثر
 في حقه واختياره، لا إلى نصفها المريح لك.

وقد يقع الخطأ دون قصد، ثم يظهر بعد تمام التعامل. هنا
 يبدأ امتحان آخر: هل تبادر إلى التصحيح، أم تنتظر حتى
 يطالبك الآخر؟ من صدق إيمانه بالحساب لا يرى سكوت صاحب

١٠٩. المطففين: ١-٦؛ وانظر تفسير ابن كثير عند الآية ٦، في صلة البخس بالبعث والقيام لرب
 العالمين.

الحق دليلاً على زواله. قد يكون لا يعلم، أو لا يستطيع المطالبة. ابحث عما يلزمك، ورد ما ثبت، ولا تجعل الحرج من الاعتراف أكبر من خوفك من بقاء الظلم.

وللمشترى أيضاً أمانة. لا يحق له أن يختلق عيباً أو ينكر منفعة أخذاً أو يدعي عدم الوصول كذباً ليحصل على مال. البركة التي جاء بها الحديث تتعلق بصدق الطرفين، فلا نقلاب النص إلى وسيلة لحماية طرف من كل تبعة مهما فعل. العدل أوسع من مصلحتنا، والمؤمن يلتزمه حين يكون بائعاً وحين يكون مشترىً.

وفي سؤال النبي ﷺ عن الطعام درس في أن الرقابة النافعة لا تهين العمل، بل تحفظ حقوق الناس. إذا كان لك دور في مراجعة جودة أو أمانة، فأدّه بصدق. لا تمرر ما تعلم فساداً لتريح زميلاً أو تكسب رضاه. ويمكن أن يكون التصحيح رقيقاً من غير تساهل، واضحاً من غير تشهير زائد، وبقدر ما يحتاج إليه حفظ الحق.

وقد تضيق النفس من لزوم البيان لأن المنافسة شديدة. لا نكر هذا الضغط، لكننا نحتاج أن نعرف ما يجوز لنا فعله تحته. حسن عملك، وتعلم، وقلل الهدر، واطلب المشورة، وابحث عن طريق مباح. لا تجعل اليأس من البدائل حكماً بأن الحرام صار حلالاً. الصبر على كلفة الأمانة جزء من المعنى الذي نرجو أن يستقر في القلب.

كان في الصبرة بللٌ مخفي، فصار واجب البيان واضحًا. لعل
لكل واحد منا شريئاً يعرف أنه أخفاه في معاملة، ويستطيع
الآن أن يصلحه. ليس المطلوب أن نخرج من القصة بوصف دقيق
لغش غيبرنا، بل بخطوة صادقة في شرائنا. نسأل الله رزقاً
طيباً، وصدقاً يحفظه، وقابلاً يؤثر سلامة الحق على مكسب لا
يظلمن إليه.

لقد فعلت يا رسول الله

عن كعب بن مالك رضي الله عنه:

أَنَّهُ تَقَاَضَى ابْنُ أَبِي حَذَرٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ،
فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي
بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ فَنَادَى يَا
كَعْبُ. قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا. وَأَوْمَأَ
إِلَيْهِ أَيِ الشَّطْرِ قَالَ لَقَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ قُمْ فَاقْضِهِ.

١٠٧

لم يكن العفو كلامًا عامًّا قِيلَ للمتخاصمين ثم تَرَكَا عَلَى حَالِهِمَا.
كَانَ هُنَاكَ دَيْنٌ مَعْلُومٌ، وَمَقْدَارٌ وُضِعَ بِرِضَا صَاحِبِهِ، وَبَاقٍ طَلَبَ
أَدَاؤُهُ. وَفِي هَذَا عَدْلٌ يَحْفَظُ لِلرَّحْمَةِ مَعْنَاهَا؛ لَا تَتَحَوَّلُ إِلَى إِلْغَاءِ
لِمَسْئُولِيَةِ الْمَدِينِ، وَلَا يَتَحَوَّلُ الْحَقُّ إِلَى رَغْبَةٍ فِي إِطَالَةِ الْخُصُومَةِ
بَعْدَ أَنْ وُجِدَ سَبِيلٌ إِلَى إِنْهَائِهَا.

وَسَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا كَعْبًا فِي قِصَّةِ تَوْبَتِهِ، وَنَرَاهُ هُنَا فِي
مُعَامَلَةٍ مَالِيَةٍ. النَّاسُ لِيَسُوا مَوْقِفًا وَاحِدًا نَحْفَظُهُ عَنْهُمْ،
وَالْإِيمَانُ يَظْهَرُ فِي مَجَالَاتٍ شَتَى. الَّذِي صَدَقَ فِي خَبَرِ تَخْلُفِهِ

١٠٧. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التقاضي والملازمة في المسجد، رقم ٤٥٧؛ عن كعب بن مالك.
«سجف»: ستر، «الشطر»: النصف، «فاقضه»: أد ما بقي من الدين.

عن تَبَوُّكْ له أَيُّ ضَا دِينِ يَطَالِبْ به، ويَمَكُنْ أَن يَتَعَلَّمَ السَّمَا حةَ فِي شَرَانِه. لَا تَجْعَلْ صُورَةً عَظِيمَةً مِنْ سِيرَةِ إِنْسَانٍ سَبَبًا لِنَسْيَانِ أَن حَيَاتِه فِيهَا حَقُوقٌ يَوْمِيَّةٌ وَآخِثِيَّاتٌ مُتَجَدِّدَةٌ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ إِفْتِي بَانِيهِ
تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ. ١١٠

هذه صلة مباشرة بين اليقين والرحمة: من يعرف حاجته إلى مغفرة الله يرجوها ويحسن إلى عباده. لا يضمن الإنسان لنفسه المغفرة بفعل معين من عنده، لكنه يصدق بما ثبت في فضل الإحسان ويعمل رجاءً. وقد يكشف هذا الرجاء مقداراً من القسوة كنزاً بمرره باسم الحقوق، فنراجع ما يجب وما يستحب، ونؤدي لكل واحد منهما حقه.

والسماحة لا تعني أن يتعرض الإنسان للاستغلال بلا حد. قد يكون المدين قادراً يماطل، وقد تكون في التساهل معه مضرة على الآخرين أو على مال تؤتمن عليه. لا نتنازل عن حقوق غيبرنا لنظهر بمظهر الكريم. للعدل أحكامه وللإحسان مواضعه، وما يشكل يسأل عنه. لكن وجود من يسيء لا يبرر أن نعامل كل محتاج كأنه محتال.

وقد ينسى من عليه الدين أن ما أسقط عنه فضل لا حجة للمزيد من التأخير. في قصة كعب جاء الأمر بالقضاء بعد التخفيف. إذا سامحك أحد في جزء، فاشكره، وأد ما بقي، ولا

تجعل سماحته علامةً على سهولة الاستهانة به. الإيمان يربي القلبين معاً؛ قلباً يرحم، وقلباً يحفظ المعروف ولا يحوله إلى من فذللم جديداً.

ومن الطمأنينة أن تنتهي خصومة يمكن إنهاؤها. قد يبقى الإنسان سنواتٍ في نزاع، ليس لأن الحق لا يمكن الوصول إليه، بل لأن كرامته صارت في ظنه متوقفةً على هزيمة الآخر كاملة. لا يلزمه بترك حقه، لكن ندعوه أن يراجع الثمن الذي يدفعه من عمره وأهله، وأن يقبل صلحاً صحيحاً إذا وجدته أصح. ليست كل تسوية هزيمة، ولا كل استمرار شجاعة.

وفي سرعة كعب إلى الموافقة ما يعلم قابلية النفس للخير. قد تسمع نصيحةً صحيحة، فتكثر الحسابات التي تمنعك من العمل بها مع قدرتك. أما حين يلين القلب لرجاء ما عند الله، فقد يختصر تردداً طويلاً. لا يعني ذلك أن تندفع دون علم في أموال الناس، بل أن لا تجعل التعلق بما في اليد يمنعك من إحسان عرفت موضعه وقدرت عليه.

وتحتاج الوساطة إلى عدل كذلك. لا تكن وسيطاً يضغط دائماً على الأرفق لأنه أسهل تنازلاً، ويترك الأشد لأنه يخافه. اسمع الطرفين، واعرف حدود ما يملكانه، ولا تعد أحدهما بما ليس من حقه. النبي ﷺ دل كعباً على الوضع، ثم أمر الآخر بالرضاء؛ لم يكن اللين في جهة واحدة مع إهمال المسؤولية في الجهة الأخرى.

١١٠. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب من أنظر معسراً، رقم ٢٠٧٨؛ عن أبي هريرة. «فتيان»؛ القائمون على معاملات؛ «تجاوزوا»؛ تسامحوا في الاقتضاء.

وقد يكون موضوع الصلح غير المال: كلمة جُرحت بها، أو تقصيرًا في عهد، أو خلافًا في شأن عائلي. لا ننسخ حكم الدين على كل مسألة دون نظر، لكن نستفيد من معنى العدل والرضا وإنهاء الظلم. اسأل: ما الحق الذي أريد حفظه؟ وما المقدار الذي أستطيع العفو عنه دون إفساد؟ وما الذي يلزم الآخر أن يصلحه حتى لا يتكرر الأذى؟

والعفو الذي يختاره صاحبه لا يفرض عليه النسيان الفوري لكل ألم. قد يحتاج إلى وقت حتى تسكن نفسه. يستطيع أن يترك الانتقام وأن يلتزم العدل، وهو ما زال يتألم. لا نجعل الصديق العفو مشروطًا بانطفاء كل شعور في لحظة، ولا نفتح باسم الألم بابًا لظلم جديد. القلب يربى بالعلم والمجاهدة والرجوع إلى الله، لا بالأوامر التي تتجاهل طبعه.

نحتاج جميعًا إلى تجاوز الله عنا، وفي أيدينا أحيانًا فرصة لرحمة إنسان أو رد حق إليه. فلا تمر الفرصة دائمًا تحت أسماء الأعذار. ما الذي تقدر عليه اليوم: أداء مؤخر، أو مهلة مشروعة، أو صلح منصف، أو اعتذار صادق؟ لا نعد أن فسننا بمقام كبير؛ نبدأ بالفعل الذي نعرف أنه خير، ونرجو أن يبارك الله فيه.

وضع كعب بعض حقه، وبقي على المدين أن يقضي. نسأل الله أن يجعلنا أصدق في أداء ما علينا، وأرحم حيث يحسن الإحسان، وألا تستولي الخصومة على قلوبنا حتى تنسينا حاجتنا إلى عفوه.

مال لا يشربع صاحبه

قال حكيم بن حزام رضي الله عنه:

سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بَسَخَاوَةٌ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ كَأَنِّي أَكُلُ وَلَا يَشْرُبُ، أَيْدِ الْعُلَيَّا خَيْرٌ مِنَ أَيْدِ الشُّفَلَى. قَالَ حَكِيمٌ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أُرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فِي أَبِي أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا. فَقَالَ عُمَرُ إِنَّي أَشْهَدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أُعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَنَاءِ فِي أَبِي أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ.

فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوَفِّيَ.^{١١١}

ليست غاية القصة أن يلزم كل إنسان أن يرفض ما يستحقه، أو أن يلوم محتاجاً على طلب عون مباح. عمر صرح بأن المعروض حق حكيم، ولم يصفه بالحرام. نتعلم من الموقف قوة

استجابته وحرصه على تربية نفسه، ونأخذ الأحكام العامة من مجموع النصوص، لا من تحويل اختياري فرد إلى واجب على جميع الناس.

أما المعنى الذي يمس كثيّرًا منا فهو الجوع الذي لا تنهيه الزيادة. قد يحصل المرء على ما كان يتمناه، ثم لا يكاد يفرح حتى ينتقل إلى ما بعده. ليس طلاب تحسين الحال مذمومًا لذاته، لكن التطلع الذي يستولي على القلب قد يجعل العطاء كله قلميًّا لا في عينه. عندئذٍ لا يعود يسأل عما ينفعه، بل عما يزيده على غيره أو يسد شغورًا لا يسده المال.

ومن اليقين أن نعرف أن الرزق بيد الله، وأن كرامتنا ليست في مقدار ما أخذنا من الناس. يطلب الإنسان حقه ويسعى في الحلال، لكنه لا يجعل رضا شخص يملك من فعة أكبر من رضا ربّه. قد تمنعك هذه المعرفة من تملق مذل، أو كذب في وصف حالك، أو منافسة تؤذي من حولك. لا نلغي حاجتنا إلى الأسباب، بل نحرر القلب من أن يعبدها.

ولا يقياس الاستغفار بصورة الصمت وحدها. قد يمتنع إنسان عن السؤال وهو يعرض بحاجته ليلزم الناس، ويسأل آخر بصدق في موضع مشروع. نتحرى الحكم وحقيقّة الفعل والقصد، ونحفظ للمحتاج كرامته، ولا نجعل مظهره وحده حكمًا على قلبه.

١١١. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة، رقم ١٤٧٢؛ عن حكيم بن حزام. «إشراق نفس»: تطلع ولهفة؛ «لا أرزأ»: لا آخذ من مال أحد؛ «الفيء»: المال المعروض عليه بحق. امتناعه اختياري لنفسه لا تحريم لأخذ المستحق.

وكان في عطاء النبي ﷺ لحكيم ثم تعليقه رفع ظاهر. لم يبدأ بإزالة السائل، بل أعطاه، ثم دله على ما يصلح قلبه. قد يحتاج من تعينه إلى مال وإلى نصيحة، فاختر للنصيحة وقتها وطريقتها. لا تجعلها ثمنًا يضطر إلى سماعه منك في كل مرة، ولا تستخدم حاجته ليعترف أمامك بنقصه. صاحب الحاجة له كرامة، كما أن صاحب المال له حق.

وإذا كنت قادرًا فليكن من طموحك أن تعطي لا أن تجمع فقط. ليس المقصود كثرة الصدقات المعلنه، بل أن ترى في رزقك إمكان نفع. قد تعين أهلاً، أو تؤدي حق عامل، أو تدفع حاجة عن فقير. أداء الأجر المستحق ليس صدقة تتفضل بها، لكنه من الأمانة التي ينبغي أن تسبق تطوعاً تحب أن يعرفه الناس عنك.

ولم يصر حكيم موقناً لأن الناس توقفوا عن عرض المال عليه؛ كانوا يعرضون، وكان هو يختر. هذا يذكرنا بأن صلاح القلب لا يعتمد دائماً على اختفاء ما يفتنه. قد يبقى المثير حاضراً، ونتعلم أن نضبط استجابتنا. في هاتيك الإعلانات، وحولك أشياء تتمناها، لكنك تستطيع أن تسأل عن الحاجة والحلال والاستطاعة قبل أن تطلب المزيد.

ومن المفيد أن تعطي بعض النعم وقتاً تعرفها فيه. اشكر بيتاً يسعك، أو قوتاً يكفيك، أو ديناً أديتَه، بدل أن تقيس كل ذلك في اللحظة نفسها بما عند من هو أوسع منك.

ليس هذا إنكاراً لمشكلاتك إن كنت محتاجاً، ولا دعوةً إلى ترك السعي، بل حماية للنظر من أن يعمى عن الوجود وهو يطلب المفقود.

وقد يظن الإنسان أن القناعة تعني إطفاء الطموح. لكن يمكن أن تطمح إلى عمل نافع، وتتعلم وتحسن دخلك، وأنت غير ساخط على الناس ولا مستحل لما حرم الله. الفرق في القصد والطريق: هل تسعى بما أذن الله، وتعرف حدك، أم تباع صدقك وراحتك وحقوق أهلك في سباق لا نهاية له؟ لا يمنع اليقين من العمل، لكنه يعيد إليه ميزانه.

وإذا كنت ممن قد اعتادوا كثرة السؤال فيما لا يحتاجون، فإصلاح ذلك لا يتطلب عهداً شديداً تتلفظ به ثم لا تطيقه. ابدأ بتمييز الحق من الفضول، والحاجة من التطلع. تعلم ما يحل لك، وكف عما لا يحل، واسأل الله غنى النفس. ليس كل ما رفضه حكيم يلزمك أن ترفضه، لكن صدقه في العمل بما تعلمه يدعوك إلى صدق يناسب حالك.

روى حكيم السؤال والعطاء والتصحیح، ثم حفظ عهده. لا ننتفع بالقصة إذا اكتفينا بالإعجاب بامتناعه عن المال؛ نحتاج أن ننظر إلى المال في قلوبنا. ما الذي نؤجله من الطاعة خوفاً عليه؟ وما الذي نفعله من أجل رضا من يملكه؟ وما القدر الذي يكفيك لو هدأت المقارنة؟ هذه أسئلة قد تفتح باب قناعة لم تفتحها زيادة سابقة.

نَسْأَلُ اللَّهَ رِزْقًا حَالًا مَبَارَكًا، وَنَفْسًا تَعْرِفُ كَفَايَتَهَا، وَيَدًا
تَحْسِنُ حَيْثُ تَقْدِرُ، وَقَلْبًا لَا يَزْدَادُ فَقْرَهُ كَلَّمَا زَادَ مَالَهُ. لَيْسَ
الْغِنَى الَّذِي نَرَجُوهُ مَجْرَدُ وَفْرَةٍ فِي الْيَدِ، بَلْ سَلَامَةٌ فِي الطَّرِيقِ
إِلَى الْمَالِ، وَطَمَآنِينَةٌ فِي اسْتِعْمَالِهِ، وَاسْتِعْدَادٌ لِتَرْكِهِ حِينَ
يَنْتَهِي الْعَمَرُ.

كأنك غربي

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَمَنِ كَبِي فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أُمْسِيَتْ فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبَّاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. ١١٢

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطًّا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ، مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ وَقَالَ هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُجِيطٌ بِهِ - أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا. ١١٣

١١٢. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، رقم ٦٤١٦؛ عن ابن عمر. الكلام من «وكان ابن عمر يقول» إلى آخر الخبر من قوله، وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

١١٣. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، رقم ٦٤١٧؛ عن ابن مسعود. «الأعراض»: ما يعرض للإنسان من آفات؛ «نهشه»: أصابه.

ليست الوصية دعوةً إلى احتقار الناس أو ترك عمارة الأرض.
الغريب يأكل ويعمل ويحسن إلى من حوله، وعابر السبيل
يتزود ويعرف طريقه. لكنه لا ينسى أن مقامه مؤقت.
نستطيع أن نبني بيتاً ونتعلم مهنةً ونربي أبناءً، ونحن
نعلم أن هذا كله ليس نهائية وجودنا. الذي يصلح النظر هو أن
تبقى الآخرة حاضرةً في غايات ما نعمل.

وقد تكون الغفلة في كلمة واحدة نكرها: بعد ذلك. أتوب بعد
أن أستريح، وأرد الحق بعد أن تتحسن الظروف، وأصلح
علاقتي بأهلي بعد أن أفرغ. ليست كل مهلة خطأ؛ فقد
يحتاج العمل إلى وقت وترتيب. لكن التأجيل الذي لا موعد له
قد يكون اسمًا لطول الأمل، نجعل فيه ما نقدر عليه اليوم
رهن حياة لا نملكها غدًا.

ومن اليقين بالموت أن نعرف الفرق بين التخطيط والتوهم.
تخطط لأنك مأمور بالسعي، ولا تجزم بأن عمرك سيبلغ جميع
ما خططت له. يمكن أن تبدأ دراسة تمتد سنوات، وتستعد
لحاجات أسرتك، وتكتب مشروعًا طويلاً، وأنت تحافظ اليوم
على التوبة والصلاة والحقوق. لا تحتاج أن تختار بين
المسؤولية عن المستقبل والاستعداد للقاء الله؛ يجتمعان إذا
صح الميزان.

وكلام ابن عمر في الصباح والمساء لا يقصد أن نعيش كل ساعة
مرعوبين من خبر موت. يقصد أن لا نتصرف كأن المهلة
مضمونة. اغتنم ما تستطيع من الخير، واترك الذنب الذي
عرفت قبحه، ولا تؤجل صدقك حتى تأتيك لحظة مثالية.

تذكر النهاية يوقظ العمل، أما الخوف الذي يشلك عن الحياة كلها فيحتاج إلى فهم أرفق ومساندة مناسبة، لا إلى مزيد من القسوة على النفس.

وإذا نظرنا إلى الأمل الممتد خارج المربع الذي رسمه النبي ﷺ، رأينا شيئاً من حياتنا. نرسم لأنفسنا تفاصيل بعيدة، ونستبعد أن يقطعها موت أو مرض أو ظرف لم نحسبه. ليست المشكلة أن نأمل خيراً، بل أن ننسى حدود علمنا. ما أجمل أن يصحب السعي تواضع: سأبذل، وأسأل الله العون، وأعمل اليوم ما يلزمي، ولا أملك ضمان الغد.

وقد تنفع هذه المعرفة في تهدئة خصومة صغيرة تضخمت في أعيننا. ليس كل أمر يحتاج إلى أن ننفق عليه ما بقي من العمر. نستطيع أن نحفظ الحق ونترك المماحكة، وأن نعتذر، وأن لا نجعل كلمة عابرة مركز أماننا. من عرف قصر المقام أعاد لبعض الأشياء حجمها، ولم يعد مستعداً أن يضيع كل ما عنده في أمر لا ينفعه عند الله.

وتنفع في علاقتنا بمن نحب. لا تؤجل كل كلمة طيبة إلى مناسبة، ولا كل زيارة إلى فراغ قد لا يأتي. يمكن أن تتصل اليوم، وتصلح سوء فهم، وتؤدي حاجة. لا نريد أن يدفعنا تذكر الموت إلى تعلق قلق بالإناس، بل إلى حسن عشرتهم ما داموا معنا، مع بقاء القلب متعلقاً بالله الذي لا يموت.

ومن الاستعداد كذلك أن تكون الحقوق واضحة. إن كان لك مال أو عليك دين، فاجعل ما يحتاج إلى البيان معروفاً لأهله. لا تجعل الخوف من ذكر الموت يحول بينك وبين ترتيب

أمانة قد يحملها غيرك ببعءك. الإيمان بالقدر لا يمنع كتابة ما يحفظ الحق؛ هو الذي يدعوننا أن نؤدي السبب الممكن ونحن نعلم أن الغيب لله.

وقد يسأل قارئ: هل معنى هذا أن أنقص فرحي بالدينيا؟ ليس الفرح بالحلال مذمومًا لذاته. افرح واشكر، واستمتع بما أباح الله دون أن تجعله سببًا لإضاعة الحق. الغريب قد يستريح في منزل طيب ويحمد من أكرمه، لكنه لا يتوهم أنه لن يرحل. كذلك نأخذ من النعمة ما أحل الله، ولا نعبد لها أو ننسى من أعطاه.

تحتاج النفس إلى مراجعة عملية هادئة، لا إلى اندفاع يخيفها يومًا ثم يزول. ما الصلاة التي أؤخرها؟ وما الأمانة التي لم أؤدها؟ وما الذنب الذي أملك أن أتركه الآن؟ وما الصلاة التي أستطيع أن أصلحها؟ لا تحمل الأسئالة كلها دفعةً واحدة حتى تعجز، بل ابدأ بالأوجب والأوضح، واستعن بالله فيما يلي ذلك.

ولا تجعل العمر الذي مضى حكمًا بأن ما بقي لا ينفذ. ما دمت حيًا قادرًا على الرجوع، فباب العمل أمامك. قد لا تستطيع رد جميع ما فات، لكن تستطيع أن تتوب وتتعلم وتؤدي ما بقي. اليقين بالنهاية ليس دعوةً إلى اليأس من النفس، بل إلى ألا نضيق إلى الماضي تفريرًا حاصرًا بحجة أنه قد طال.

أخذ النبي ﷺ بمنكب ابن عمر وعلمه كيف ينظر إلى الدنيا.
بقيت الكلمة بعد ذلك تعلم أجيالاً لم تشهد الموقف. لعلنا
نخرج منها اليوم بشيء نفعه، لا بخوف نرويهِ: نعيش
مسؤولين، ونفرح شاكرين، ونخطط متواضعين، ونرجو لقاء
الله وقد صدقنا فيما استطعنا. اللهم أحسن ختامنا، وبارك لنا
فيما بقي من أعمارنا.

الباب التاسع: إلى الحياة التي لا تزل

أعلم أن الله على كل شيء قدير

قال الله تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۖ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾^{١١٤}

لم يسم القرآن الرجل في هذه الآية، وبقيت العبرة واضحةً دون اسمه. حياة تُعاد بعد موت، وطعام يبقى كما هو في المدة نفسها، وعظام يريه الله ما يصنع فيها. الذي خلق الأسباب يملك أن يجريها كما شاء، ولا يعجزه ما يستبعده الإنسان إذا قاس الأمر على ما اعتاد أن يراه. استحالة الشيء على قدرتنا ليست استحالاته على قدرة الله.

وتقف النفس عند قوله بعد البيان: أعلم. لم تعد القرية الخاوية وحدها ما يراه، فقد رأى في نفسه وما حوله آيةً على قدرة الله. ونحن لم نشهد ذلك الموقف، لكننا نؤمن به لوروده

١١٤. البقرة: ٢٥٩. ويظهر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية. لم تعين الآية اسم الرجل ولا القرية، ولا أضيفت التفاصيل المختلفة فيها.

في القرآن، كما نؤمن بالبعث الذي أخبر الله به. اليقين بالغيب ليس ادعاء أننا عايناه ما لم نعاين، بل تصديق صادق بخبر الله ورسوله.

قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ۖ فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ ۖ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.^{١١٥}

هذه المعرفة ليست بعيدة عن تربية القلب. إذا كان بعد الموت بعث وحساب، فالحياة ليست فرصة عابرة نأخذ فيها ما نستطيع ثم ينتهي كل شيء. الظلم له تبعة، والعدل له وزن، والعمل الخفي معلوم. قد لا يرى مظلوم إنصافه في الدنيا، ولا يعرف الناس إحسان محسن، لكن غيب ذلك عن مشاهدتنا لا يجعل الحق ضائعاً عند الله.

ولا يعني الإيمان بالجزاء أن نترك نصرة المظلوم اليوم. الله أمر بالعدل، ومن العمل الذي نحاسب عليه ما نقدر عليه من حفظ الحقوق. لا نقل لمن أصابه ضرر: انتظر الآخرة، لن برر

١١٥. يس: ٧٨-٨٣؛ تمام السياق في إنكار البعث والرد عليه وبيان قدرة الله.

تقصيروننا عن معونته. إنما الإيمان بالآخرة يزيّد مسؤوليتنا؛
نعلم أننا سنسأل عما فعلنا حين استطعنا، وعما تركناه مع
القدرة على خير.

وقد يثير الحديث عن البعث عند إنسان سؤالاً حقيقياً. لا
نحتاج أن نتعامل مع السؤال كعداوة. نقرأ معه دليل القرآن،
ونشرح ما يحتاج إليه، ونفرق بين طلاب الفهم والجدال الذي
لا يريد جواباً. بعض الناس لم يتعلم ما ثبتت الإيمان، ثم
استحيا من السؤال حتى ظن أن حيرته لا تجد من يسمعها.
العلم الرحيم يعينه، ولا يسخر من البداية التي جاء منها.

لكن طلاب الفهم لا يفتضون تعليق كل طاعة حتى تُحل كل
الأسئلة التي يمكن أن يتخيلها المرء. يتعلم ما يشكك عليه من
أهله، ويعمل بما تبين له، ولا يجعل امتداد العلم سبباً للإلغاء
ما عرف. كما أن جهله بكيفية إحياء الخلق ليس علماً بعدم
إمكان الإحياء. من الإنصاف أن نعرف الفرق بين ما لا نحيط
به وبين ما ثبت أنه غير صحيح.

ويحتاج الموقن إلى أن لا يفصل الآخرة عن قراراته الصغيرة.
قد يصدق بالبعث في اعتقاده، ثم ينساه ساعة غضب أو
طمع. هذا من أسباب حاجتنا إلى الذكر والقرآن والمحاسبة.
ليست كل غفلة نفيّاً لأصل الإيمان، لكنها خلل ندعو الله أن
يصلحه، ونجاهد في تقليل أثره. نريد لما نعلمه أن يحضر
حين نختار، لا حين نتكلم فقط.

إذا نويت أن تأخذ ما ليس لك، فاسأل أين ستذهب تبذره.
وإذا أعنت أحدًا ولم يشكر، فتذكر أن نفعه ليس معلقاً
باعترافه وحده. وإذا أصابك ظلم لا تستطيع رفعه الآن، فلا
تضف إليه ظلمًا تفعله في غيرك. اليقين بالحساب يمكن
أن يوقف الفعل الخاطئ عند بدايته، وأن يحفظ للخير
استمراره حين لا يرى صاحبه ثمرة عاجلة.

ولا نحتاج إلى تخيل مشاهد الغيب التي لم يصفها النص
حتى يستقر معناها. نؤمن بما أخبر الله به، ونقف عند حد
العلم. للقرآن والسنة من البيان ما يهدي ويكفي، وأما تفاصيل
نخترعها لإثارة الخوف أو الإعجاب فليست سبيلًا إلى يقين
صحيح. الصدق في الإيمان يشمل الصدق في الكلام عما نؤمن
به.

وتذكر البعث يفتح الرجاء كما يوقظ الخشية. ليست الدنيا
آخر موضع للنعمة أو للعدل، ولا قلة حظ الإنسان منها حكمًا على ما
يظهره عند الله. نرجو رحمته ونعمل، ونخاف تقصيرنا
ونتوب، ولا نوزع من ازل الآخرة بحسب ما نراه من غنى وفقر
أو ظهور وخفاء. الأمر إلى الله العالم بالخلق وأعمالهم ونياتهم.
عاد الرجل بعد مئة عام، ورأى من آيات القدرة ما بيّن له ربه.
ونحن نقرأ خبره في يوم من أيام أعمارنا، ولا نعرف ما بقي
لنا. فلنجعل العلم بالبعث سببًا لعمل حاضر: صلاة نؤديها، أو
حق نرده، أو نتركه، أو نخير نتّمه. من صدق أن الله على كل
شيء قدير لم ييأس من رحمته، ولم يستخف بالوقوف بين
يديه.

وإني لأرجو له الخير

روت أم العلاء رضي الله عنها:

أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ،
فَأَنْزَلَنَاهُ فِي أَبِيَاتِنَا، فَوَجَعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُؤْفِي فِيهِ، فَلَمَّا
تُؤْفِي وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ
رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهِدَاتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ.
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ. فَقُلْتُ بِأَبِي
أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ فَقَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ
الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ
- مَا يَفْعَلُ بِي. قَالَتْ فَوَاللَّهِ لَا أَزْكِي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا. ١١٦

وفي الخبر حدَّث لليقين نفسه: نوقن بما أخبر الله به،
ونرجو لمعين ما لم يأت فيه تعيين. لا تتحول معرفتنا
بصلاح ظاهر المرء إلى علم بسريته وخاتمته، ولا تتحول
محبتنا له إلى شهادة على الغيب.

قد تقف عند عزاء إنسان عرفت برّه، فتجد أهله ينتظرون
كلمة تسندهم. تستطيع أن تقول ما شهدته من إحسانه
بصدق، وأن تدعو له، وأن تعين من ترك خلفه. ليس الرجاء

الذين أقلل مواساةً من عبارة جازمة لا تملك دليلاً لها. وقد حفظ
لنا النبي ﷺ في هذا الموضوع الرجاء، فلم يجعل التثبت
قسوةً على المحزون.^{١١٦}

وهذا الأدب يجري في الجهة الأخرى أيضاً. زلة نراها لا تكشف
لنا كل ما بين صاحبها وبين ربه. نبيّن الخطأ ونحفظ حق
من تضرر، لكننا لا نعين مآل إنسان من مشهد واحد. التفريق
بين الحكم على الفعل، وأحكام الأشخاص التي لها شروط،
والقول في الخاتمة، يحفظ العدل في الثناء والنقد معاً.
وحيث يمدح المرء نفسه، قد يحتاج إلى هذا الحد أكثر من
حاجته إليه في مجلس العزاء. الناس يعرفون من عمله ظاهراً،
وهو يعرف من تقصيره ما لا يعرفون. يشكر حسن ظنهم، ولا
يتخذ ثناءهم شهادة قبول؛ يستغفر ويتابع عمله،
ويترك لله ما لم يكشف له من مصيره.

قالت أم العلاء ما ظنته خيراً، ثم نقلت التصحيح الذي
تعلمته. هكذا ينمو اليقيني: لا بالإصرار على عبارة لأننا
قلناها في لحظة حب، بل بالرجوع إلى ما يثبت. نرجو

١١٦. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، رقم
١٢٤٣؛ عن أم العلاء: أبو السائب: عثمان بن مظعون؛ اليقيني هنا الموت. لفظ «ما يفعل بي» محفوظ
في هذه الرواية؛ بين ابن حجر أنه قيل قبل نزول سورة الفتح، فلا يحمل على نفي ما أعلم به
النبي ﷺ بعد ذلك؛ فتح الباري، شرح الحديث. نفرق بين الرجاء للمعني والشهادة له بغير نص.
١١٦. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، رقم
١٢٤٣؛ عن أم العلاء: أبو السائب: عثمان بن مظعون؛ اليقيني هنا الموت. لفظ «ما يفعل بي» محفوظ
في هذه الرواية؛ بين ابن حجر أنه قيل قبل نزول سورة الفتح، فلا يحمل على نفي ما أعلم به
النبي ﷺ بعد ذلك؛ فتح الباري، شرح الحديث. نفرق بين الرجاء للمعني والشهادة له بغير نص.

لميتنا الرحمة، ونسأل لأنفسنا حسن الخاتمة، ونشتر غل بما
كُفنا به من صلاة وتوبة ووفاء، من غير أن ن نصب أنفسنا
حكاً على من ازل العباد.

ليس بينه وبينه ترجمان

قال النبي ﷺ:

مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَّيُّكُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ.^{١١٧}

نثبت لله الكلام كما جاء به الخبر، على ما يليق بجلاله، دون أن نتخيل له صفةً من صفات المخلوقين أو ننسب إليه ما لم يثبت. وما يعني هنا أن القضية ليست حساباً بعيدياً عن ذواتنا. الخبر يتناول كل واحد منا، ويخرجنا من الاكتفاء بالاتفكير في مصير الناس إلى النظر فيما نقدم نحن.

قد يتقن الإنسان في الدنيا أن يجعل غيظه يشرح عنه ويعتذر له، أو أن يقدم من صورته ما يريد أن يراه الآخرون. لكن الله يعلم حقيقة ما فعل وما قصد. لا ينفعه عنده تترتب حكاية تخفي بعض الوقائع. اليقين بهذا يعلمنا الصدق قبل يوم الحساب؛ لأننا إن أخفينا عن الناس لم نخف عن الله، وإن صدقنا عرف الله صدقنا ولو لم ينصفنا أحد.

قال الله تعالى:

١١٧. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم ٦٥٣٩؛ عن عدي بن حاتم. «شق تمرة»: نصفها.

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ
وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ
أَحَدًا. ١١٨

ما نستهيّن به لا يغيب عن علم الله، وما نرجوه من رحمته
يدعوننا إلى التوبة ورد الحقوق. نستغفر مما أخطأنا فيه،
ونسعى في الإصلاح قبل أن ينقضي وقت العمل.

ومع هذا لم يترك النبي ﷺ سامعيه مع الخوف وحده. دلهم على
عمل، ولو كان شرق تمرّة. ليس كل قارئ يملك أن يخرج مالاً
كثيراً، لكن لا يصح أن يحتقر ما يستطيع من المعروف. إذا
كانت النار قد ذكرت، ثم ذكر هذا القدر من الصدقة سبباً إلى
اتقائها، فلا تجعل صغر العمل في عينك مانعاً من فعله على
وجهه. ١١٧.

وقد تعودت النفس أن تنظر أعمالاً كبيرة: مالاً كثيراً
تصدق به، أو وقتاً واسعاً تتعلم فيه، أو مناسبة تغير
حياتك. يمضي العمر بين هذه الوعود، وفي اليد فرص
صغيرة تتكرر. لا نقول إن الصغير يغني عن كل واجب، بل
نقول: لا تضرع الممكن لأن الكامل الذي رسمته لنفسك لم يأت.
أد ما يجب، وافعل ما تقدر عليه من خير، واسأل الله الزيادة.

١١٨. الكهف: ٤٩؛ وانظر تفسير ابن كثير في إحصاء الأعمال وفي الظلم.
١١٧. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم ٦٥٣٩؛ عن عدي بن حاتم. «شق
تمرّة»: نصفها.

والعمل الذي نرجوه وقايةً ليس مجرد حركة يد، بل صدقة من حلال، بقصد صالح، لا يتبعها أذى للمحتاج. قد تكون قلبية المقدار واسعة النفع إذا جاءت في موضعها، وقد تكثر ويخالطها ما يحتاج إلى إصلاح. نحن لا نقيس القلوب، لكن نراجع أنفسنا: هل أعطي لأن الله يحب الإحسان، أم لأنني أريد سلطة على من يأخذ مني؟

ومن أثر هذا الحديث أن نتوقف عند الكلام أيضاً. قد نمضي في سخريّة أو اتهام لأن المجلس يضحك ويوافق، وننسى أن الموافقة لا تغير حقيقة ما قلنا. إذا انفردت بنفسك بعد المجلس، تستطيع أن تستغفروا وتصلح وتكف. لا تجعل كثرة المشاركين سبباً لأن تؤجل توبتك؛ مسؤوليتك لا تزول لأن الخطأ جرى في جماعة.

وقد يفتح اليقين بالحساب باباً للشجاعة الهادئة. تقول الحق الذي تعرفه حيث يلزمك، وتؤدي الأمانة، ولا تجعل الخوف من الناس سبباً للخيانة. وليس هذا اندفاعاً إلى كل مواجهة دون علم أو تقدير، بل أن يكون رضا الله حاضراً في الميزان. إذا عجزت عن شيء، فليكن عجزاً حقيقياً تحرص معه على ما تستطيع، لا حكاية ترويها لنفسك لتسقط كل مسؤوليّة.

أما من ظلم ولم يستطع بيان حقه، فيعلم أن الله لا يحتاج إلى قوة بيانه حتى يعلم ما وقع له. هذا لا يمنعه من طلب حقه بالوسائل المشروعة، لكنه يطمئنه إلى أن الضعف في

الخصومة لا يجعل الباطل حقاً عند الله. بعض الناس يحسنون
الحجة لأنفسهم، وآخرون تضيق بهم العبارة؛ وعلم الله وعدله لا
يتوقفان على فصاحة فريق منهما.

ونحن حين نربي أبناءنا على الحساب لا نحتاج إلى أن نملأ
يومهم بالتهديد. نعلمهم أن الله يعلم الخير ويحزي عليه، وأن
الخطأ له توبة، وأن حقوق الناس تُرد. الخشية التي نريدها
يقظة على العمل، لا رعبٌ يمنعهم من السؤال أو يدفعهم إلى
إخفاء كل زلة. ليروا في تعليلنا صدقاً ورحمة، كما جاء البيان
النبوي بالإنذار والدلالة على الخير معاً.

وقد يكون شق الثمرة في يومك صدقةً يسيرةً بالفعل،
ويكون معه باب آخر من المعروف دل عليه الشرع. لا نخترع
أجراً محدداً لكل فعل، لكننا نبحث عما نعلم فضله ونحسن
أداءه. يكفي أن نرجو من الله أن يتقبله وينفع به. الإيمان
بالجزاء يحرر العمل من انتظار رد الناس، فيبقى الخير
ممكناً حتى حيث لا تصلنا رسالة شكر.

سيأتي الحساب، ونحن الآن في زمن يستطيع فيه المرء أن
يعمل. لا نعلم متى ينتهي هذا الزمن لنا، لكن نعرف ما في
أيدينا اليوم. فلنقدم شيئاً من الصدق والرحمة ورد الحقوق،
ولنسأل الله أن يسترنا ويعفو عنا. ما أعظم الخبر، وما أقرب
العمل الذي دلنا عليه رسول الله ﷺ؛ فلا يحجبنا التعجب من
الأول عن المبادرة إلى الثاني.

نصف صاع لم يضرع

قال أبو مسعود رضي الله عنه:

لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ إِنَّ اللَّهَ لَعَنِي عَنْ صَدَقَةٍ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخِرُ إِلَّا رِيَاءً. فَزَلَّتْ {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ} الْآيَةَ.^{١١٩}

قال الله تعالى:

{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فِي سَخِرُونَ مِنْهُمْ} سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.^{١٢٠}

هذه القصة تحفظ للقلب مقياساً يحتاجه كثيرون. الناس يرون المبلغ، وقد لا يرون القدرة التي خرج منها. يرون ساعة خدمة، ولا يعرفون مقدار التعب الذي تجاوز صاحبها ليؤديها.

١١٩. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين»، رقم ٤٦٨٨؛ عن أبي مسعود. «نتحامل»: نعمل في الحمل بأجرة. اختصار الآية في آخر الرواية لفظ المصدر، وأثبتت الآية كاملة بعدها مستقلة.

١٢٠. التوبة: ٧٩؛ وانظر تفسير ابن كثير، في ذم لزم المطوعين بالصدقة والسخرية ممن لا يجد إلا جهده.

لا نرتب مراتب العاملين من عندنا، لكننا نعلم أن الله يعلم ما بذلوا وما قصدوا. ما خفي عن المقارنة البشرية لا يخفى عليه.

وقد يمنحك الخجل من القليل أن تفعله. تريد أن تتصدق، ثم ترى أرقامًا كبيرة فتتردد يدك. أو تريد أن تعين في عمل نافع، ثم تستصرغ الوقت الذي تملكه. اسأل أولاً عما تستطيع على وجه صحيح، لا عما يكفي لإعجاب الناس. إن كان خيرًا مشروعًا فلا تحتقره؛ وما وراء الاستطاعة لا يصير واجباً عليك لمجرد أن غيرك يقدرك عليه.

ومن اليقين أن لا تجعل رضا الناس شرطًا لصالح العمل. من يريد الطعن قد يتهمك إن أكثرت، ويسخر منك إن قلت. لن تعالج ذلك بأن تغير كل فعل حتى يستحسنه. عالج نفسك، وتعلم الحكم، واحفظ الحقوق، ثم امض في ما عرفت أنه خير. لا يزول ألم الكلمة بالضرورة، لكن لا تعطها سلطة على عبادة قصدت بها ربك.

وهذا لا يعفي العمل من النقد الصحيح. قد ينبهك إنسان إلى طريقة أضرت بمحتاج، أو إلى حق أغفلته في عطاء، فتنتفع بقوله. الفرق بين بيان خطأ ظاهر يمكن إصلاحه، والطعن في نية لا يعلمها الناقد. لا نحمي أخطاءنا بادعاء الإخلاص، ولا نلغي خير الناس بمجرد سوء الظن بهم. الصدق والعدل يحكمان الجهاتين.

وفي عمل الصحابة في الحمل قبل الصدقة معنى عملي. لم يكن كل من رغب في الخير ينتظر أن يكون غنياً. بذلوا جهداً مباحاً ليجدوا ما يعطون. لا نلزم من لا يستطيع بما لا يستطيع، لكن القصة تسأل القادر على بعض السعي: هل تعذر نفسك قبل أن تنظر فيما يمكن؟ قد يكون الباب مفتوحاً بقدر لم تفكر فيه لأنك كنت تنتظر صورة أكبر.

ولا ينبغي أن نستعمل هذا الخبر للضغط على فقير حتى يعطي من حاجته الواجبة. النبي ﷺ شرع الحقوق، وللفس والأهل حق. الذي لا يجدي بقاء له من الخير ما يقدر عليه، ولا يجوز أن يُخرج ليظهر سخاءً أمام الناس. من يوقن أن الله يعلم الاستطاعة يحفظ للفقير كرامته، ولا يحوله إلى مشهد يثبت به نجاح حملة أو مجلس.

وأحياناً يكون اللمز خفياً فينا، لا نعلنه. نرى معروفاً عند غيبرنا، فنبادر في أنفسنا إلى تفسير يقلل قيمته: أراد مكانة، أو لم يتعب، أو ما قدمه لا يذكر. هنا قبل أن نتكلم نحتاج إلى محاسبة. لماذا لا يفرحنا وقوع الخير؟ وهل نعرف حقاً ما نزعم، أم يضيق صدرنا لأن إنساناً آخر سبقنا إلى باب نحبه لأنفسنا؟

يمكن أن تدعو له بالإخلاص وأن تسأل الله مثله من الخير، دون أن تجزم بباطنه. ليست سلامة القلب غفلةً عن الاحتيا؛ نتحقق حيث يتعلق الأمر بالأموال والحقوق، ونحفظ الأمانة. لكن التحقيق لا يحتاج إلى احتقار، وحسن الظن لا

يبيح تعطيل الضوابط. من العلم أن نضع لكل مقام ما يلائمه، فلا نخلط بين تزكية مجهول والسخرية من معروف ظاهر.

وكانت التهمة بالرياء موجهةً إلى صاحب الصدقة الأكبر، مع أن الرياء مرض نخافه على أنفسنا جميعاً. لا يصح خوفنا منه إننا لاستعماله سلاحاً في وجوه الناس. أولى ما نفعله أن نصلح نياتنا، ونحفظ من العمل ما لا نطلب به مدحاً، ونقبل النصيحة. أما الجزم بأن فلاناً لم يرد إلا الناس، فخبر عن قلب لم يفتح لنا.

ولمن تأذى بسخرية بعد معروف، نقول برفق: لا تحتاج أن تثبت للمستهزئ جميع ما بذلت حتى يكون جهدك معلوماً. الله يعلم. خذ ما ينفعك من تصحيح، واترك ما لا يقوم على علم، ولا ترد السخرية بظلم. ويمكن أن تختار في المرة المقبلة طريقةً أستر وأهدأ، لكن لا تجعل الجرح سبباً لأن تنقطع عن الخير الذي تحبه.

وفي نصف الصاع الذي جاء به أبو عقيل ما يرد قيمة العمل إلى صدقه واستطاعة صاحبه، لا إلى بريقه. لعلنا نكون ممن يحفظون هذا المعنى لغيرهم: نشكر القليل، ولا نقارنه على وجه الإنزال بالكثير، ونفتح باب المشاركة بدل أن نجعل الخير حكراً على القادرين على الظهور الكبير.

لم يضع ذلك الجهد عند الله، وإن سخر منه من سخر. ونحن نرجو
أن يتقبل منا ما نقدر عليه، وأن يطهر قلوبنا من الرياء
والحسد واحتقار الناس. إذا وجدت اليوم باباً صغيّراً من
معروف، فادخله على علم وإخلاص، ولا تنظر حتى يصير
في عيون الناس كبيّراً؛ فإن نظرهم ليس ميزان القبول.

رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين

قال النبي ﷺ:

إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا
يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ
الْمَغْرِبِ، إِنْ تَفَاضَلُ مَا بَيْنَهُمْ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنْ أَزَلُّ
الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،
رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ.^{١٢١}

يجذبنا في سؤالهم أن هم كانوا ينصتون إلى خبر الجنة،
ويفكرون فيما يدل عليه. لم يكن وصفها عندهم حديثاً
جميلاً ثم ينتهي المجلس؛ سألوا عن أهل تلك المنزلة. وجاء
الجواب يرددهم إلى أصل الطريق: الإيمان بالله وتصديق رسله.
هذا هو الأصل الذي نحتاج أن نراه في طلابنا للرفعة، قبل أن
نشرغل أن فسننا بما يملكه الناس أو بما يعرفونه عنا.

قد ينظر إنسان إلى حاله فيجد علمه قليلاً، وماله محدوداً،
واسمه غير معروف، فيظن أن مراتب الخير العالية لا شأن له
بها. لكن هذه المقاييس لا تستوعب ما يعلمه الله من العباد.
تستطيع أن تكون صادقاً فيما تعلم، أميناً فيما تحمل،

١٢١. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٥٦؛ عن أبي
سعيد. «الدري»: المضيء؛ «الغابر»: البعيد أو الباقي في الأفق.

حريصاً على أداء ما فرض الله عليك. ثم تتعلم وتزداد،
وتستعين به على ما عجزت عنه. لا يطلب منك أن تبدأ من
نهاية طريق غيرك.
وقال رسول الله ﷺ:

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا
عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي
أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا. فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ
النَّاسَ. قَالَ إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِائَةٌ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا
سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ،
أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ. ١٣٢

يسأل عبد ضعیف رباً كريماً الفردوس، ويرجو رحمته ويعمل
بطاعته. لا تجعل معرفتك بتقصيرك حاجزاً عن السؤال؛
اجعلها باعثاً على التوبة والاستعانة وحسن الرجاء.

نقول: نؤمن بالله ونصدق المرسلين، ثم نحتاج إلى أن نسأل
أنفسنا برفق عن أثر ذلك. هل نصدق خبر الله حين يخالف
ما اعتدناه من مقاييس الدنيا؟ هل نرد الأمر إلى سنة رسوله
حين تتبين لنا؟ وهل يدفعنا رجاء الآخرة إلى أداء حق
نعرفه، أم يظل الرجاء كلاماً لا يغيّر اختياريّاً؟ هذه الأسئلة لا
تطرح لنقنط، بل لنعرف موضع العمل الذي بين أيدينا.

١٣٢. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٧٩٠؛ عن أبي هريرة، بلفظ يحيى بن صالح عن فليح.

ولا يصح أن نحول الحديث إلى وعد لأنفسنا بمنازل محددة.
نحن نرجو ونسأل، والله يعلم من صدق ومن قصر، وهو أرحم
بنا من أنفسنا. ليس بين الرجاء وبين الادعاء خطوة لازمة؛
تستطيع أن تسأل الفردوس كل يوم وأنت تعرف حاجتك
إلى المغفرة، من غير أن تعتقد أنك أعلى من زلة من جارك أو
ممن يختلف معك في أمر مباح.

وقد تضللنا المقارنة حين نرى بعض عمل الناس ولا نرى
بقيته. نعرف أن فلاناً يكثر من الصدقة، ولا تعرف ما
يحمل من مجاهدة نفسه. وترى إنساناً قليل الكلام، ولا تعلم ما
يؤدي من برٍّ وأمانة. ليس المطلوب أن تتخيل للجميع منازل لا
دليل عليها، وإنما أن تنشغل بما تملكه: إصلاح عملك، وحسن
الظن المنضبط، وترك دعوى الإحاطة بقلوب الآخرين.

ومن صدق الرجاء أن يتسع حبك للخير حتى تحب وصول
غيرك إليه. لا تنقص الجنة إذا هُدي إنسان كنت تنافسه، ولا
يقل فضل الله عليك لأن صاحبك سبقك إلى باب صالح.
تستطيع أن تتعلم منه، وأن تدعوه له، وأن تسأله أن يعينك.
أما الحسد فيحول الحديث عن الرفعة إلى انشغال بمكانتك
بين الناس، مع أن الذي ترجوه أصلاً هو ما عند الله.

وحين يعلم المؤمن أن للآخرة درجات، لا يحتقر عملاً صالحاً يقدّر
عليه. قد يكون أمامك وقت قصير تذكر الله فيه، أو والد
يحتاج إلى خدمة، أو خطأ يمكنك إصلاحه قبل أن يتسع. لا

يلزم أن تنظر مشروعا كبيرا يدهش من حولك. للعمل
اليسير موضعه، وللمداومة قيمتها، والله يعلم ما بذل له وما
صاحب الفعل من إخلاص وصدق.

وفي المقابل، لا تجعل كثرة المستحبات عذرا لتضييع
واجب واضح. من يرجو فضل الله لا يطلبه بطريق يغضبه.
أداء الأمانة، وترك الظلم، وحفظ الصلاة، والصدق في المعاملة،
ليست أعمالا خارج رحلة القلب. بل يظهر فيها ما آمنا به حين
يكون الامتحان قريبا لا يحتاج إلى حديث طويل. وربما كان
الحق الذي تؤخره أول ما ينبغي أن تبدأ به.

يبقى وصف الغرف خبرا عن نعيم حقيقي في الجنة، لا رمزا
لنجاح دنيوي ولا مجرد راحة نفسية. نؤمن بما أخبر به
الرسول ﷺ، ونسأل الله فضله، ولا نزع الإحاطة بكيفية ذلك
النعيم. وما نجهله من تفاصيله لا يمنعا أن نرجوه؛ بل
يكفينا صدق من أخبر، وعلمنا بأن ما عند الله خير وأبقى
من كل ما نشاهده هنا.

إذا رفعت يديك تسأل الفردوس، فاذكر أنك تسأل واسع
الفضل. لا يمنحك ماضٍ تتوب منه أن ترجو، ولا يخدعك عمل
صالح عن حاجة قلبك إلى الإخلاص. أقبل على ما تستطيع
اليوم، وتعلم ما تجهل، وأحب للناس الهداية. لعل يقينا
يثبت في قلبك يجعل رجاء الجنة حاضرا في قرار صغير،
ثم يفتح الله لك به أبوابا من الطاعة لم تكن تعرفها.

أغلى من حمر النعم

روى عمرو بن تغلب رضي الله عنه:

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِمَالٍ أَوْ سَبِيٍّ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى رَجُلًا وَتَرَكَ رَجُلًا فَابْغَاهُ أَنَّ الَّذِي تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللَّهُ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأكُلُّ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغَنَى وَالْخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ. فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ إِلَيَّ بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمَرُ النَّعَمِ. ١٣٣

يعيد هذا الموقف ترتيب نظرتنا إلى العطاء. ليست كل زيادة ظاهرة دليلاً على أن صاحبها أعلى من زلة، ولا كل ترك دليلاً على المهانة. في هذه الحادثة بيّن النبي ﷺ سبب تصرفه، فعرفنا ما دل عليه الخبر. أما تفاسيل أقدارنا فلا نملك أن نجعل لها التفسير نفسه من عندنا؛ لأن قول لكل من حُرِم شيء إنّه حُرِم لأنه أفضل، وإنّما يمنع المقارنة السريعة من أن تصبح حكماً على محبة الله للناس.

وفي قلب عمرو خير شهد به الرسول ﷺ، وليس هذا باباً لنشهد نحن لأنفسنا. قد يحسن الإنسان احتمال أمر، ثم يحتاج إلى مجاهدة في أمر آخر. ما عندنا من رضا وصبر

فضل ن سأل الله دوامه، لا رخصة نحتقر بها من ظهر عليه
التألم. الذي عرف ضعف بعض أصحابه أعطاهم، ولم يجعل
حاجتهم فرصة لإذلالهم؛ ففي الموقف علم بأحوال الناس
ورحمة بهم معاً.

ربما وجدت نفسك تنظر نصيباً من تقدير أو مال أو
اهتمام، ثم ناله غيرك. يقع في النفس شيء من الحزن، وقد
يبدأ السؤال: لماذا هو لا أنا؟ لا يلزم أن تعاقب نفسك لمجرد
شعور طرأ، لكن لا تدعه يتحول إلى حسد أو ظلم. اسأل الله من
فضله، وانظر في حقك بالعدل، ولا تجعل ما أخذ غيرك
سبباً لفساد ما بينك وبين ربك.

قد يكون لك حق لم يؤدّ، فتطالبه من غير خيانة ولا اعتداء.
وقد يكون الأمر تفضلاً لا يلزم صاحبه أن يسوّي فيه على
الوجه الذي تتوقعه. وقد تكون الصورة ناقصة فتحتاج إلى
سؤال هادئ. اليقيني لا يفرض جواباً واحداً قبل الفهم، لكنه
يحفظ ميزاناً ثابتاً: لا نرضي الغضب بمعصية، ولا
نشر تري راحة عابرة بكلمة نعلم كذبها أو بتهمة لا نملك
دليلاً لها.

قال الحسن البصري:

١٢٣. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد، رقم ٩٢٣؛ عن عمرو
بن تغلب. «حمر النعم»: أنفس الإبل؛ «الهلج»: شدة الجزع.

صدق رسول الله ﷺ باليقيين طالبات الجنة وباليقيين هرب
من النار وباليقيين أديت الفرائض وباليقيين صبر على
الحق وفي معافاة الله خير كثير قد والله رأيي ناهم
يتقاربون في العافية إذا نزل البلاء تفارقوا^{١٢٤}

لليقيين أشر في طلب الخير وأداء الواجب والصبر عليه. نرجو
أن يصحب ما نعرفه عملنا اليومي، ونسأل الله العافية والعون
على ما نلقى.

وقد يصلح لك هذا الميزان حين لا تعرف مقدار تقدمك. بدل
أن تفتش عن شعور قوي كل ساعة، انظر إلى حق كنت
تضيع ثم بدأت تحفظه، أو كلمة كنت تستسهلها ثم صرت
تثبت منها، أو عبادة كنت تؤجلها ثم انتظمت فيها. لا
تجعل هذه الأعمال شهادة لنفسك بالقبول، لكن احمده الله على
ما أعانك عليه، واسأله أن يصلح باطنك كما أصلحت بعض
ظاهرك.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا
وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ﴾. [السجدة: ٢٤]. جمعت الآية الصبر
واليقين، وربطتهما بالهداية بأمر الله. ليست الإمامة هنا مجرد
تصدر، ولا كثرة من يثنون على المتكلم؛ بل علم بالحق،
وصبر عليه، ودعوة إليه. ومن شاء أن ينفذ غيظه احتاج إلى
هذه المعاني قبل حاجته إلى الظهور.^{١٢٥}

١٢٤. ابن أبي الدنيا، اليقين، الخبر ١٣؛ قول الحسن كاملاً من «صدق رسول الله» إلى «تفارقوا»، بعد
الخبر المرسل في السياق، من طريق أبي أسامة عن جرير بن حازم عنه. هذا كلام الحسن، وليس حديثاً
مرفوعاً، ولا يصح به الخبر المرسل الذي سبقه.

وفي الأسرة والعمل يمكن أن يثمر هذا الخير من غير ألقاب.
يسمع منك ولدك كلمة صادقة حين كان الكذب أسهل، ويرى زميلك
أنك لا تخون إذا غاب الرقيب، ويعرف قريبك أنك لا تقطع
المعروف عند أول خلاف. لست مضطراً أن تعلن لهم أنك تعي ش
معنى اليقين. يكفي أن تجاهد نفسك لله، وأن يظهر من ذلك
ما يظهر في حسن معاملتك وأداء ما عليك.

وإذا أحببت أن تبقى لك مكانة في نفوس الناس، فلا
تجعل هذه المحبة هي التي تقود عملك. قد يحبونك على
صواب، وقد يرضون عنك حين تجاملهم في خطأ. الذي نرجوه
خير لا ينجلب بقلب الثناء؛ قصد صالح، وصدق في الخلوة،
وعمل لمقى الله به. وما جعل في القلب من غنى لا يستغني
به العبد عن ربه، وإنما يستغني به عن أن تكون مدحة
الناس شرطاً لطاعته.

فرح عمرو بما سمع من رسول الله ﷺ، ونحن نفرح بما يدلنا
عليه هذا الخبر من عناية بالقلب. لا نملك لأنفسنا شهادته،
لكن نملك أن نسأل الله الخير الذي منحه، وأن نجاهد على
أسبابه المشروعة. اللهم اجعل في قلوبنا إيماناً يثمر صدقاً،
ويقيناً يعين على الصبر، وغنى لا نتنازل معه عن الحق
لننال ما في أيدي الناس.

حتى يأتيك اليقين

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٣٦﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٣٧﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. ١٣٦

وقال سالم في تفسير اليقين في الآية: «الموت». ١٣٦
تبقى العبادة إلى آخر العمر، ويؤدي المكاف ما شرع له بحسب استطاعته. لا يصل المرء إلى معرفة تسقط عنه ما أمره الله به؛ بل يسأل العون على الطاعة في قوته وضعفه.
يأتي الأمر بالعبادة في سياق ضيق الصدر من أذى الناس. نرجع إلى الله ونحن نلقى ما يشق علينا، ونحفظ للصلاة والذكر مكانهما في أيامنا؛ فما زلنا نحتاج إلى عون ق بل الفرج وبعده.

عن عائشة رضي الله عنها:

١٣٦. الدرر: ٩٧-٩٩. ابن أبي الدنيا، اليقين، الخبر ١٩: تفسير سالم «اليقين» بالموت، من طريق وكيع عن سفيان عن طارق عنه. وينظر ابن كثير في تفسير الآية ٩٩ واستمرار العبادة إلى الوفاة.

١٣٦. الدرر: ٩٧-٩٩. ابن أبي الدنيا، اليقين، الخبر ١٩: تفسير سالم «اليقين» بالموت، من طريق وكيع عن سفيان عن طارق عنه. وينظر ابن كثير في تفسير الآية ٩٩ واستمرار العبادة إلى الوفاة.

أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ
فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ
مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا
شَكُورًا. فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ،
فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ. ١٣٧

للطاعة صور تناسب القدرة. نتعلم حكم عبادتنا في الصحة
والمرض، ونحفظ ما نقدر عليه، ونسأل الله أن يعيننا على
الشكر. تغيّر القوة يدعوننا إلى حسن اتباع الرخصة المشروعة،
وألّا نترك الممكن لأن صورة سابقة من العمل أصبحت أشق
عليّنا.

تتغيّر حياة الإنسان كثيّرًا. يكون شابًا واسع الوقت، ثم
تشغله مسؤوليات؛ ويكون صحيًّا، ثم يضعف؛ ويكون
قريبًا من مجلس يعينه، ثم ينتقل إلى مكان آخر. من الخطأ
أن يربط صلاته بالله بصورة واحدة من الحياة. إذا تغيّرت
ظروفك، فابحث عن الطاعة التي تستطيعها فيها، واسأل
أهل العلم عما أشكل من أحكامك. لا تؤجل العبودية إلى عودة زمن
قد لا يعود.

وربما خفف عنك سبب كان يعينك، فاحتجت إلى ترتيب
جديد. كنت تحفظ مع صديق، ثم انشغل؛ أو تذهب إلى
المسجد مع قريب، ثم سافر؛ أو تقوم في وقت معين، ثم

١٣٧. صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح، باب «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما
تأخر» وتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيماً»، رقم ٤٨٣٧؛ عن عائشة.

تغير عملك. لا يعني هذا أن الخير انتهى، بل أن عليك أن تتعنتي بما بقي ممكناً. لست مضطراً أن تجمع كل ما كنت تفعله في يوم واحد، لكن احفظ الفرائض، واجعل لك من الخير ما تداوم عليه.

والدوام لا يكون بالمشقة وحدها. في الشكر والمحبة والرجاء ما يقرب الطاعة إلى القلب. تأمل نعمة هداك الله إليها، وخطأ ستره عليك حتى تتوب منه، ووقتاً ما زال في يدك تصلح فيه ما فات. قد تدخل إلى الصلاة مثقلاً، ثم يكون أعظم ما تملكه فيها أنك حضرت تستعين بربك. لا تحتقر هذا الإقبال لأنه لم يصحبه الشعور الذي تمنيت.

ولا تجعل طول الطريق سبباً لتسوية الخطوة الحاضرة. من يقول: سأصلح قلبي حين أفرغ، قد ينظر زمناً لا تخلو فيه الحياة من شراغل. تستطيع أن تصدق الآن في كلمة، وأن تحفظ لسانك الآن عن ظلم، وأن تصلي الصلاة الحاضرة في وقتها. هذه ليست بدائل عن العلم والتربية الطويلة، لكنها الموضوع الذي يبدأ منه الانتفاع بما علمت.

وقد يقع تقصير بعد انتظام، فلا تجعل ذلك حكماً بأن كل ما سبق لم يكن نافعاً. تب إلى الله، وأصلح السبب الذي تعرفه، وعد إلى العمل. نحن لا نسير في طريق نزول منه الحاجة إلى التوبة، ولا نملك وعداً بأن نفوسنا لن تضعف مرة أخرى. لكننا نعرف رباً يغفر لمن تاب، ونعرف واجباً نرجع إليه، فلا نحول خطأ يوم إلى انقطاع سنين.

وفي آخر العمر تبقى أبواب خير تناسب حال صاحبها. قد يعجز عن حركة كان يقوى عليها، ويبقى قادراً على ذكر ودعاء ونصيحة صادقة وإصلاح بين قريبين. ويحتاج من حوله إلى أن يعينوه من غير أن يشعروا أنه صار بلا قيمة. لا تنحصر العبودية فيما يراه الناس من النشاط، والله يعلم من صدق القلب ما لا تدل عليه قوة الأبدان وحدها.

وتعلمنا هذه الآية أن نرى يقيّننا عوناً على استمرار العمل، لا شهادة انتهت منه. من ازداد معرفة بربه ازداد فهمًا لحاجته إليه. ومن عرف الآخرة لم يجعل ما بقي من عمره وقتاً ضائعاً لأنه كبر أو قلّ أثره بين الناس. ليست قيمة اليوم في غرابة أحداثه، بل فيما ييسره الله فيه من خير صادق، ولو لم يكتب عنه خبر يتناقله أحد.

حتى أتيتك اليقين: حتى تنتهي هذه الحياة التي تستطيع فيها أن تتوب وتعمل. لا نقرأها لنفزع من كل ساعة، بل لنحسن صحبة ما بقي لنا من الوقت. نعبد الله في القوة والضعف، ونشكره في العافية، ونستعين به في البلاء، ونرجو أن يكون آخر أمرنا إيماناً وعملاً صالحاً. ومن علم أنه سيلاقي ربّه أحب أن يلقاه وقد كان يرجع إليه، لا أن ينظر النهاية ليبدأ الرجوع.

ثَبَّتْ قُلُوبِي عَلَى دِينِكَ

قال شهر بن حوشب:

قُلْتُ لَأُمِّ سَلَمَةَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ قَالَتْ كَانَ أَكْثَرَ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبِي عَلَى دِينِكَ. قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَأَكْثَرَ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبِي عَلَى دِينِكَ قَالَ يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ.^{١٢٨}

وقال رسول الله ﷺ:

إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اللَّهُمَّ مُصَرِّفِ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ.^{١٢٩}

قد يظن المرء أن طلاب الثبات لا يَناسب إلا من ضعف إيمانه ضعفًا ظاهرًا، وأن من اعتاد الطاعة قد اطمأن على نفسه. لكن الدعاء النبوي يعلمنا حاجة أوسع. المؤمن يتعلم ويعمل، ثم

١٢٨. جامع الترمذي، كتاب الدعوات، باب غير مسمى في الموضوع، رقم ٣٥٢٢؛ عن شهر بن حوشب عن أم سلمة. قال الترمذي: حديث حسن.

١٢٩. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كي ف شراء، رقم ٢٦٥٥؛ عن عبد الله بن عمرو بن العاص. نؤمن بما ثبت من صفات الله على ما يليق به، دون تشبيهه بخلق.

يسأل الله أن يحفظ عليه الخير. لا ينسب استقامته إلى ذكائه وحده، ولا يجعل زمناً أحسن فيه العبادة ضماناً لا يتغير. الافتقار إلى الله ليس شكاً في كرمه، بل معرفة بفضله هدايته.

وفي الوقت نفسه لا يعني هذا أن يعي ش الإنسان مذعوراً من قلبه. الذي نسأله الثبات هو الذي هدانا، والذي نرجو مغفرته هو الذي أمرنا بالتوبة. نجمع الخوف من التقصير إلى حسن الرجاء، ونؤدي ما نعرف من الطاعة. ليست العناية بالقلب تفتي شاً متصلاً عن علامة هلاك، ولا إعادة للعبادة كلما مر خاطر لم يختره صاحبها.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾. [آل عمران: ٨]. في الدعاء اعتراف بهداية سبقت، وسؤال لحفظها، ورجاء لرحمة يمنحها الوهاب. لا يبتدئ السائل من إنكار ما عنده من الخير، بل يشكر نعمة يعرفها ويخشى تضرييها، ويسأل المزيد منها.^{١٣٠}

ومن صدق هذا السؤال أن تختار ما يعين عليه. لا تدخل بإرادتك باباً تعرف أنه يجرّك إلى معصية، ثم تعامل الدعاء كأنه يعفيك من إغلاقه. أبعد ما تستطيع من أسباب الفتنة، وصاحب من ينصحك، وتعلم ما تحتاج إليه. وإذا غلبتك نفسك، فلا تتخذ التقصير سبباً لترك الدعاء؛ بل ارجع به إلى ربك، واستعن به على فعل ما كنت تؤجله.

١٣٠. آل عمران: ٨. الدعاء من كلام الراسخين في العلم في سياق الآيات؛ وانظر تفسير ابن كثير.

وقد يأتى اختبارات الثبات في شيء لا يشبه ما توقعته. تستعد لشدة كبيرة، ثم يضعف صدقك عند كلمة مدح. أو تتحدث عن الصبر، ثم يؤذيك نجاح صاحبك. أو تحسن العبادة في خلوة، ثم تسيء إلى من يخدمك. ليس المقصود أن نظل نتهم أنفسنا، بل أن نعرف أن إصلاح القلب يتصل بأخلاقنا كلها، وأن حاجتنا إلى الهداية تتجدد حيث تتجدد اختياراتنا.

وحين يسأل المؤمن الثبات لأهله، فليجعل معاملته لهم مما يعين عليه. رفق يسمعون معه النصيحة، وقدوة لا تناقض الكلام، وعدل لا يفرهم من صاحبه. لا تملك قلوبهم، لكن تملك أن تؤدي ما عليك من محبة صادقة ودعاء ونصح. وتستطيع أن تعترف بخطئك أمامهم؛ فلا يصير الدين في أعينهم غطاءً لتعاليك أو وسيلة لإسكات شكواهم.

وقد تحتاج أن ت إلى من يعينك. ليس في أن تقول لصاحب أمي: ذكّرني، أو علّمني، أو ساعدني على ترك عادة، ما يعيبك. نحن لا نستقل بإصلاح نفوسنا عن فضل الله، وقد يجعل من فضله رفقة صالحة وكلمة نافعة. لا تبحث عن إنسان يضمن لك سلامة قلبك؛ ابحث عمن يدلك على الحق برفق، ويترك لك مسؤولية العمل به، ولا يستغل ضعفك لي تحكم فيك.

ودعاء الثبات يرافق أيام العافية كما يرافق الشدة. اسأل الله وأنت مسرور أن تكون فرحتك في طاعته، وأنت قادر أن تصرف قدرتك في الحق، وأنت غاضب أن يحفظ لسانك

ويذك من الاعتداء. لا تنظر أن تتعقد الأمور ثم تذكر حاجتك إليه. في لحظات الحياة المعتادة يتربى القلب على الرجوع، قبل أن تأتي اللحظة التي تشتد فيها حاجته إلى ما تعلم.

ويطمئن المؤمن إلى أن الله لا يخفى عليه ما يجاهد به نفسه. قد لا يرى الناس تركك ذنباً تيسر لك، ولا يعرفون حقاً أديته وقد شق عليك، ولا يسمعون دعاءك في الليل. لا تحتاج إلى أن تخببرهم ليصير العمل موجوداً. يكفي أن تتجهد في صدقه، وأن تسأل الله قبوله، وأن لا يحمك خفاؤه على احتقاره أو البحث له عن جمهور.

إذا سألت الله الثبات، فاسأله سؤال عبد يعرف حاجته. نرجو الثبات لنا ولمن نحب، ونسأل الهداية لمن أخطأ، ونرد الحقوق. اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا، ولا تجعل معرفتنا حجة علينا، وارزقنا يقيناً يزيدهنا قرباً منك وصدقاً في عبادتك وحسن رجاء في رحمتك، حتى نلقاك وأنت راض عنا.

تدريبات اليقين ومتابعتة

قد يكون أقرب ما تن تفعل به من هذا الكتاب قراراً صغيراً يتغير غداً. تختر الصدق حين يسهل التبرير، أو تؤدي حقاً كنت تؤخره، أو تجمع بين الدعاء والسعي، أو تقول في ما لا تعلم: لا أدري. هذه الصفحات تعينك على تحويل المعاني التي قرأتها إلى ممارسات محددة، ومراجعة ما وقع منها بصدق ورفق.

البرنامج تنظيماً تربوي مقترح لثلاثين يوماً، لا عبادة ذات عدد مخصوص ولا وعداً بتحول القلب في مدة محددة. يجوز توزيع أيامه على وقت أطول بحسب القدرة. لا تتطلب متابعة الأوراق إظهار عملك الخفي أو أسرارك، ولا ينبغي أن تزامم فرضاً أو حقاً واجباً. الأمثلة اليومية تطبيقات تعليمية، وليست أخباراً عن أشخاص بأعيانهم.

خصص نحو عشرين إلى ثلاثين دقيقة موزعة في يومك: قراءة قصيرة عند البداية، وتطبيقات في موقف حقيقي، ومراجعة موجزة مساءً. بعض التطبيقات ينجز ضمن عملك المعتاد، مثل أداء أمانة أو بيان عيب في معاملة. اختر وقتاً مرناً يناسبك، واكتب ملاحظاتك في هذه الصفحات أو في دفتر خاص. لا تعد قراءة كل الفصول المحال إليها إن كنت قد فهمتها؛ ارجع إلى ما تحتاجه منها.

في كل ورقة ثلاثة مواضع للتسجيل، ثم سؤال مراجعة. اكتب جواباً محدداً: أرسلت التصحيح، أو رددت الأمانة، أو طلبت البيان. تجنب الأوصاف التي لا يمكنك التحقق منها، مثل صار قلبي كامل اليقيني. لا تحتاج إلى تسجيل كل خاطر؛ تكفي واقعة واحدة ذات صلة بمهمة اليوم.

كيف أتابع وأقيم؟

استخدم حالات التنفيذ: «تم»، و«جزئي»، و«لم يبدأ»، و«غير مناسب لحالي». إن اخترت الحالة الأخيرة، اكتب بديلاً نافعاً. ويمكنك حساب عدد التطبيقات المكتملة في المراجعة الأسبوعية لتعرف انتظام العمل؛ هذا العدد يصف تنفيذ الخطة وحده، ولا يقيس الإيمان أو الإخلاص أو محبة الله للعبد، ولا يشهد بقبول عمل.

انظر في ثلاثة أمور: وضوح المهمة، وتنفيذها، وما يحتاج إلى إصلاح من أثرها. قد تنفذ فعلاً ثم تكتشف أنه لم يناسب حاجة صاحبه؛ المراجعة الصادقة تعينك على تحسينه. وقد تتعذر المهمة بسبب خارج قدرتك؛ سجل العائق واختر الممكن، ولا تساو بين العجز والتفريط. المراجعات في الأيام السابع والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين تجمع الخبرة وتعديل الخطة.

قبل البدء

اختر موقفاً من حياتك أنت، واحفظ خصوصية من معك. لا تستخدم البرنامج للحكم على يقيين الزوج أو الولد أو الزميل، ولا تطالب منهم كشف أسرارهم. يمكن أن تتعاون مع صاحب أمين في هدف معلن، كتعلم مسألة أو أداء حق، مع بقاء الأعمال الخاصة بين العبد وربّه.

المعاني الشرعية وأصولها مبنية في فصول الكتاب. أما تنزيل حكم على واقعة مالية أو أسرية أو صحية فتراعى فيه تفاصيلها ويرجع إلى أهله. وإذا كان الضيق أو تكرار الأفكار يعطل حياتك، فاطلب المساعدة المناسبة؛ هذه متابعة تربوية وليست تشخيصاً أو علاجاً. ابدأ بما تستطيع، واسأل الله العلم النافع والعمل الصالح والثبات.

اليوم ١ — من أين أبدأ؟

للرجوع: الفصلان ١ و ٣.

قد تنهي كتاباً وتبقى المشكلة التي بدأت به كما هي: تعرف المعنى، ولا تجد له موعداً في يومك. ابدأ بموقف واحد يكرر في حياتك، مثل استعجال جواب أو تأخير أمانة. صف ما تفعله فعلاً، دون أن تصف قلبك بالصالح أو الفساد. هذه نقطة البداية التي ستقارن بها عملك آخر الشهر.

تطبيقات اليوم: اكتب موقفاً وقع خلال الأسبوع، ثم اختر تصرفاً صغيرواً يمكن تغغيره اليوم. حدد وقتاً له وسبباً يعينك عليه. إن اخترت تأخير الأمانة، فاجمع بياناتها وحدد طريقة ردها؛ وإن اخترت التسرع، فاجعل مراجعة الخبر تسبق مشاركتة. نفذ خطوة واحدة قبل المساء، ولو بقي الشعور الذي يزعجك.

موضوع التسجيل	ملاحظات
الموقف المتكرر	
التصرف الذي أريد تغغيره	
الخطوة وموعدها	

مراجعة المساء: هل وصفت فعلاً قابلاً للتغغير، أم اكتفيت بعبارة عامة مثل أريد يقيناً أقوى؟

عند التعثر: إن تعذر اختيار موقف، ابدأ بواجب تؤخره كثيراً، واسأل ما العائق المباشر أمامه.

حالة التنفيذ: تم () / جزئياً () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٢ — ما أعلمه وما أتوقعه

للرجوع: الفصلان ١ و ١٣.

قد تقول في نفسك: لو كان دعائي صادقاً لحدث ما أن تظره هذا الأسبوع. في العبارة رجاء تحول إلى شرط. افصل اليوم بين خبر ثابت تؤمن به، ونتيجة تتمناها، وشيء لا تعلمه. لا يحتاج الرجاء إلى موعد تضعه من عندك كي يكون صادقاً.

تطبيع اليوم: اختر أمراً تنتظره. اكتب ثلاث جمل: ما ثبت لي بدليله، وما أرجوه، وما لا أعلمه. راجع الفصل قبل نسبة وعد إلى الله. استبدل الجزم بنتيجة شخصية بعبارة صادقة: أسأل الله الخير وأسعى إليه. ثم اعمل في السبب المتاح بدل تكرار التوقع. احتفظ بهذه الورقة لتعود إليها في اليوم الرابع عشر.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	خبر ثابت ودليله
.....	رجاء شخصي
.....	أمر لا أعلمه

مراجعة المساء: هل نسبت إلى الله وعداً بنتيجة أو موعد لم يثبت؟

عند التعثر: إذا لم تعرف دليل جملة، ضعها في خانة السؤال حتى تتعلم؛ لا تستبدل الجهل بجزم جديدي.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٣ — آية تصحب القرار

للرجوع: الفصل ٢.

كثرة المرور على الكلمات قد تخفي عنا حاجتنا إلى فهمها. اختر آية كاملة من الآيات المذكورة في الكتاب، واقرأ سياقها وفائدتها. ابحث عن صلاتها بتصرف قريبي، لا عن عبارة تزخرف بها دفترك. ثم دع المعنى يصحبك في موقف واحد.

تطبيقي اليوم: خصص عشر دقائق للقراءة الهادئة. اكتب معنى الآية ببلغتك مع التصريح بأنه فهمك، وراجع الشرح قبل اعتماده. اختر عملاً تؤديه اليوم استجابة لمعنى واضح فيها، كحفظ حق أو اجتناب ظلم. عند المساء دوّن ما فعلته، ولا تجعل عدم حضور التأثير سبباً لإعادة التمرين مراراً.

موضوع التسجيل	ملاحظات
الآية وموضعها	
المعنى الذي فهمته	
القرار الذي تأثر بها	

مراجعة المساء: هل اتصل التطبيق بدلالة الآية، أم حملت عليها فكرة لا تتناولها؟

عند التعثر: إن أشكل المعنى، اجعل عمل اليوم سؤال أهل العلم، واختر آية أخرى واضحة للتطبيق.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٤ — سؤال واحد واضح

للرجوع: الفصلان ٥ و٤٦.

السؤال المحدد يفتح باباً للتعلم. أما جمع عشر قضايا في عبارة واحدة فقد يزيده الحيرة. اختر مسألة علمية حقيقيّة، وافصلها عن مجرد الخاطر المتكرر الذي لا يضيف سؤالاً جديداً. هدف اليوم أن تحسن عرض ما تجهله، وأن تعرف من يحسن بيانه.

تطبيقات اليوم: اكتب السؤال في ثلاثة أسطر: ما المسألة، وما الذي فهمته، وأين موضع الإشكال. ابحث عن جواب موثق عند عالم معروف بالعلم والأمانة، أو أرسل السؤال إلى جهة مناسبة. سجل ما فهمته وما بقي، ثم أغلق وقت البحث. لا تجعل الاستقصاء بلا نهاية بديلاً عن عملك وواجباتك.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	السؤال المحدد
.....	مصدر الجواب
.....	ما فهمته وما بقي

مراجعة المساء: هل تغير فهمي بشيء محدد، أم تنقلت بين إجابات دون قراءة واحدة كاملة؟

عند التعثر: إن كان الخاطري يعيد نفسه بعد وضوح الجواب، فلا تجعل الدفتر محكمة لإيمانك؛ عد إلى العمل المعتاد.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٥ — موعد للسبب المتاح

للرجوع: الفصلان ١٠ و ١٢.

التوكل حاضر حين تسعى وتساءل الله العون. اختر حاجة تشغلك
ويمكنك فيها اتخاذ سبب مشروع: إن جاز طلب، أو تعلم مهارة، أو
ترتيب موعد. لا تقيس صدق الاعتماد بسرعة النتيجة؛ انظر إلى
أمانك في الفعل الذي تقدر عليه.

تطبيقات اليوم: حدد السبب، والوقت اللازم له، والمعلومة التي
تنقصك. ابدأ بالجزء الذي يمكنك إنجازه في عشرين دقيقة، ثم
اطلب المعلومة من مصدرها. مثال تطبيقي: بدل متابعة القلق
بشأن العمل، راجع طلباً واحداً وأكمل بياناته وأرسله في وقته. دُون
ما أنجزت وما صار خارج قدرتك.

موضوع التسجيل	ملاحظات
السبب المشروع	
الوقت المحدد	
المنجز والمتبقي	

مراجعة المساء: هل أخذت بسبب نافع، أم اخترت حركة كثيرة لا
تقربني من المطلوب؟

عند التعثر: إذا كان السبب متعذراً، اختر بدلياً واقعياً أو اطلب
مساعدة؛ لا تختلق قدرة ليست عندك.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٦ — عمل خفي محفوظ

للرجوع: الفصلان ١٦ و ٢٤.

قد يرغب المرء في علامة يراها الناس على تغيّره. جرّب اليوم عملاً لا يحتاج إلى إعلان: خدمة، أو رد حق، أو دعاء، أو صدقة تقدر عليها. اختر ما يناسب حالك، ولا تحول الخفاء إلى قصة جديدة تحرص على أن يسمّعها الآخرون.

تطبيقات اليوم: حدد عملاً نافعاً ثم أدّه. اكتب في الدفتر نوعه بكلمة مختصرة إن احتجت إلى المتابعة، دون تفاصيل تكشف المستفيد. إذا عرضت رغبة في الحديث عنه، تأنّ وأسأل عن المصلحة الحقيقية. لا يلزم إخفاء عمل لا تتم مصلحته إلا بالإظهار، ولا الكذب حين يسألك من له حق في المعرفة.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	العمل الممكن
.....	سبب اختياره
.....	هل أتممته؟

مراجعة المساء: هل أعنت إنساناً أو أديت حقاً، أم شغلّت نفسي بصورة الخفاء وحدها؟

عند التعثر: إذا فات العمل، هيئ وسيلته الآن واختر موعداً قريباً؛ لا تضاعف الأعمال عقوبة لنفسك.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٧ — مراجعة الأسبوع الأول

للرجوع: الفصول ٦-١ بحسب الحاجة.

افتح أوراق الأيام الماضية، وابحث عن أفعال حدثت. ربما بقي القلق لكنك أديت واجباً كنت تؤجله؛ هذا تقدم في السلوك يستحق الشكر. وربما امتلأت الصفحات ولم تتغير خطوة؛ عندي تحتاج إلى تبسيط الخطوة، لا إلى أوصاف قاسية للنفس.

تطبيقات اليوم: اجمع عدد التطبيقات المكتملة والجزئية والتي لم تبدأ. اختر مثلاً لكل سبب تكرر: غموض المهمة، أو وقت غير مناسب، أو عائق حقيقي. احتفظ بعبادة واحدة نجحت، وعدل مهمة واحدة لم تنجح. ارجع إلى ورقة اليوم الأول، واكتب فرقاً يمكن وصفه في جملة، ثم اشكر الله واسأله العون.

موضوع التسجيل	ملاحظات
تطبيقات نجح وسببه	
عائق متكرر	
تعديل الأسبوع القادم	

مراجعة المساء: أي تغيير واحد سي جعل العمل أيسر وأصدق خلال الأسبوع المقبل؟

عند التعثر: إن لم تكتب شيئاً طوال الأسبوع، اختر تطبيقات اليوم الخامس وحده وابدأ منه؛ لا تعوض الأوراق دفعة واحدة.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٨ — أمانة صغيرة في وقتها

للرجوع: الفصلان ٣٠ و ٣١.

تظهر صلاة اليقين بالحساب في حقوق قريبة: كتاب مستعار، أو مبلغ، أو عمل وعدت به. اختر أمانة واضحة، وافحص ما يلزمك بشأنها. لا تنظر أن تكون كبيرة في نظر الناس كي تؤديها؛ صاحب الحق قد يضرر من تأخير تراه يسيئاً.

تطابق اليوم: راجع أمانة واحدة وحدد صاحبها ومقدارها وموعدها. أدها إن قدرت، أو تواصل معه بصدق بشأن التأخير وخطة الوفاء. لا تعد بما تعلم أنك لا تستطيع. إذا كان في الحق نزاع أو التباس، اجمع المعلومات واطلب بياناً مناسباً بديل حسمه لمصلحتك وحدك.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	الأمانة وصاحبها
.....	الإجراء اليوم
.....	موعد الوفاء أو المتابعة

مراجعة المساء: هل حفظت حق صاحبه كما أحب أن يحفظ حقى؟

عند التعثر: إذا تعذر الوصول إلى صاحب الحق، سجّل ما تعرفه واتخذ خطوة للبحث عنه، واستفتت فيما يلزم عند استمرار التعذر.

حالة التنفيذ: تم () / جزئى () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٩ — الصدق حين يكاف

للرجوع: الفصل ٢٧.

يسهل الثناء على الصدق ما دام لا يغيّر صورتنا عند أحد. تمرن اليوم في موضع يخلصك: اعتراف بتأخير، أو تصحيح معلومة، أو بيان حد القدرة. تجنب الاعتراف الاستعراضي بما ستره الله؛ المقصود أداء الحق وترك الكذب، مع حفظ الستر المشروع.

تطبيق اليوم: اختر موقفاً تتوقع أن تميل فيه إلى تبرير غير صحيح. حضر جواباً قصيراً صادقاً، ثم قل ما يلزم دون مبالغة أو اتهام لغيرك. مثال تطبيقي: لم أنجز الجزء المتفق عليه، وسأرسل ما أتممته في الموعد المحدد. أصلح أثر التقصير بعمل، ثم دون الفرق بين الخوف المتوقع وما وقع فعلاً.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	موضع الضغط
.....	العبارة الصادقة
.....	إصلاح الأثر

مراجعة المساء: هل تحملت مسؤولية فعلي أم نقلتها إلى شخص غائب؟

عند التعثر: إذا وقعت في الكذب، صحح ما ترتب عليه بقدر الحاجة، وتب إلى الله، ولا تجعل الخطأ سبباً لليأس.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٠ — إحسان لا ينظر الثناء

للرجوع: الفصلان ٢٩ و ٦٨.

اختر باب نفع صغيّرًا تستطيع الاستمرار فيه. قد يكون بذل مال، أو وقت، أو خبرة، أو تسهيل حاجة. لا تقارن قدرتك بما يبذله غيورك؛ ابحث عن صدق الانتفاع بما في يدك، مع تقديم ما يجب عليك.

تطبيقات اليوم: حدد المستفيد والحاجة الفعلية قبل أن تختار نوع العطاء. أسأله بكرامة عند الحاجة، ثم قدم ما يناسبه. إن كان مألًا فليكن مما تملك بذله، وإن كان وقتًا فلا يضيع به واجب. بعد العمل، اكتب هل لقي العطاء حاجة حقيقية، وما الذي ستغيره في المرة المقبلة.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	الحاجة التي رأيته
.....	العطاء المناسب
.....	نتيجة يمكن ملاحظتها

مراجعة المساء: هل أعطيت ما يحتاجه الآخر، أم ما يريحي التخلص منه؟

عند التعثر: إذا لم تقدر على البذل اليوم، دل على باب نفع أو هيئ وسيلة له؛ لا تستدن لتنافس غيورك في صدقة نافلة.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١١ — قرار مع بقاء المجهول

للرجوع: الفصل ٥١.

قد تؤخر قرارًا مباحًا لأنك تريد ضمان النتيجة. راجع ما يلزم من معرفة واستشارة واستخارة، ثم ميز بين نقص معلومة مؤثرة وبين ان تظار ضمان لا يملكه الناس. بعض التردد يعالج بسؤال إضافي، وبعضه يعالج باتخاذ القرار بعد بذل الوسع.

تطبيقات اليوم: اختر قرارًا محدود الأثر، واكتب خيارين واقعيين ومصلحة كل منهما وتكلفتها. اسأل من يعرف مجاله، واقرأ حديث الاستخارة في الفصل إذا احتجت إليه. حدد موعدًا للقرار. لا تجعل حلمًا أو مصادفة شرطًا، ولا تدخل التزامًا ماليًا أو أسريًا كبيدًا اعتماذًا على هذا الجدول وحده.

موضوع التسجيل	ملاحظات
الخياران	
المعلومة الناقصة	
موعد القرار	

مراجعة المساء: هل انتهت جمع المعلومات اللازمة، أم بقي أمر مؤثر ينبغي سؤاله؟

عند التعثر: إذا بقي نقص حقيقي، عدل الموعد بسبب محدد؛ وإن زال، اتخذ الخطوة ولا تعد المقارنة بلا معلومة جديدة.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٢ — شكر النعمة بالفعل

للرجوع: الفصلان ٥٧ و٥٨.

اختر نعمة اعتدت وجودها حتى قل انتبهاك إليها: وقت، أو قدرة، أو رزق، أو صحبة. سمّها واحمد الله عليها، ثم انظر كيف تحفظها وتنتفع بها في خير. لا تجعل الشكر مقارنة بمن حرم منها، ولا حجة لانتقاص شكوى المتألم.

تطابق اليوم: اكتب من فقرة محددة تيسرت لك بهذه النعمة. اختر طريقة مناسبة لحفظها أو أداء حق متعلق بها: صيانة أداة ينتفع بها أهل البيت، أو شكر من أحسن إليك، أو تخصيص وقت لبر. نفذ العمل، وقل الحمد لله بقلب يسأل المزيد من الطاعة، لا بوعده لنفسه أن النعمة لن تتغير.

موضوع التسجيل	ملاحظات
النعمة	
حفظها أو وجه حفظها	
عمل الشكر اليوم	

مراجعة المساء: هل انتقل انتبهاك إلى النعمة إلى فعل نافع؟

عند التعثر: إذا شغلك ما فقدت، لا تنكر حزنك؛ اختر نعمة قريبة باقية، ولو كانت يداً تعينك أو علماً تهتدي به.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٣ — عدل في المعاملة

للرجوع: الفصل ٦١.

في البيع والعمل والتعليم فرص صغيرة للصدق: بيان عيب، أو توضيح تكلفة، أو نسبة جهد إلى صاحبه. اختر معاملة واحدة وانظر إليها من جهة الطرف الآخر. ما المعلومة التي تحب أن تعرفها لو كنت مكانه؟

تطبيقات اليوم: راجع عرضاً أو اتفاقاً أو مهمة قبل إتمامها. بيّن المعلومة المؤثرة بوضوح، ولا تدفنّها في كلام طويل. مثال تطبيقي: عند بيع جهاز مستعمل، اذكر العيب المعروف قبل الاتفاق. وفي العمل، انسب الجزء الذي أنجزه زميلك إليه. دوّن التصحيح الذي أدخلته، وما بقي يحتاج إلى توضيح.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	المعاملة
.....	معلومة يجب بيانها
.....	التصحيح المنفذ

مراجعة المساء: هل يستطيع الطرف الآخر اتخاذ قراره على صورة صادقة؟

عند التعثر: إذا اكتشفت نقصاً بعد تمام المعاملة، بادر إلى البيان وإصلاح الحق وفق حكمه، ولا تكتف بالندم المكتوب.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٤ — مراجعة الرجاء والسعي

للرجوع: الفصلان ١٣ و ٢١.

مر أسبوعان، وقد لا تكون النتيجة التي تنتظرها قد وقعت. ارجع إلى ورقة اليوم الثاني. هل بقي رجاءك دعاءً وسعيًا، أم عاد شرطًا ترضعه على ما سيكون؟ راجع لغتك وفعلك معًا؛ فقد تصح العبارة ويبقى السبب مهملاً.

تطبيقات اليوم: اكتب شيئاً أنجزته في الأسبَاب، وشيئاً تعلمت أنك لا تملكه. عدل توقعاً ثبت أنه غير واقعي. راجع حقوق الأيام الماضية: هل أديت ما وعدت به؟ اختر خطوة واحدة للأسبوع المقبل، واحتفظ بوقت للدعاء دون اشتراط صورة الإجابة.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	ما فعلته
.....	ما لا أملكه
.....	ما سأعدله

مراجعة المساء: هل أعاملت آخر النتيجة كأنه دليل على بطلان كل ما بذلت؟

عند التعثر: إذا اشتد الحزن، اطلب مواساة ومساعدة مناسبة، واكتف اليوم بواجب قربي؛ لا تجعل التدريب امتحاناً لقوة الاحتمال.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٥ — رفق عند الخوف

للرجوع: الفصلان ٩ و ١٧.

قد تعرف الصواب وتخاف الإقدام عليه. سمّ الخوف في عبارة محددة، ثم ابحث عن خطوة آمنة ممكنة. ليس كل ما تخشاه وهمًا، وليس كل خوف سببًا لترك الحق. يحتاج الموقف إلى فهم، وقد يحتاج إلى مشورة وخطة حماية.

تطبيقات اليوم: اختر موقفًا يوميًا محدودًا، مثل طلب توضيح أو تصحيح خطأ. اكتب ما تخشاه، وما يؤديه من واقع، وما الخطوة الأقل ضررًا. استعن بشخص أمين عند الحاجة. نفذ ما تقدر عليه دون تعريض نفسك أو غيرك للخطر؛ القضايا التي تتضمن تهديدًا أو عنفًا تحتاج إلى جهات مختصة.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	الخوف المحدد
.....	المعلومة الواقعية
.....	الخطوة الآمنة

مراجعة المساء: هل اتخذت إجراء نافعًا أم اكتفيت بلوم نفسي لأنّها خافت؟

عند التعثر: إذا تعذر الفعل الآمن، اجعل مهمتك طلب المساعدة المناسبة. تأجيل خطوة مؤذية قد يكون أحكم من الاندفاع إليها.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٦ — وقت الحزن

للرجوع: الفصلان ١١ و ١٤.

إذا كنت حزيناً، فلا تستخدم الدفتر لإنكار ما تجده. اكتب ما تحتاج إليه اليوم: دعاء، أو راحة، أو صحبة، أو مساعدة في واجب. وإذا كنت في عافية، تعلم كيف تتواسي دون أن تختصر ألم الآخرين في موعظة سريعة.

تطبيقات اليوم: اختر عملاً واحداً يحفظ يومك: أداء واجب، أو قبول مساعدة، أو اتصال بشخص تترتاح إلى أمانته. وللمواساة، استمع أولاً ثم اسأل عن حاجة يمكن خدمتها. لا تعد بزوال الألم في موعد. سجل ما خفف العبء عملياً، وما لا يزال يحتاج إلى عون.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	الحاجة الحاضرة
.....	العون المناسب
.....	خطوة اليوم

مراجعة المساء: هل أفسحت مجالاً للرحمة، أم جعلت الحزن تهمة في حق نفسي أو غيري؟

عند التعثر: إذا عطل الضيق حياتك أو اشتد عليك، فاطلب مساعدة مختصة؛ هذه الأوراق للتربية والمتابعة وليست بديلاً عن العلاج.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٧ — دعاء تصدبه طاعة

للرجوع: الفصلان ٣٩ و ٥٠.

أحضر في دعائك حاجتك إلى الله، واختر معه عملاً مشروغاً يتعلق بما تسأل. من يسأل إصلاح علاقة يستطيع أن يترك ظلماً فيهما، ومن يسأل العلم يستطيع أن يتعلم. يبقى الدعاء عبادة ورجاء، ولا يصبح عقدًا يضمن للعبد نتيحة بعينها.

تطبيقي اليوم: اكتب حاجتك بصدق دون تكلف صياغة طويلة. ادع الله، ثم حدد فعلاً تقدر عليه يخدم الخير الذي ترجو. إذا كنت تسأل صلاح ولد، اختر استماعاً هادئاً وعدلاً في المعاملة. سجل الفعل وحده، ولا تراقب المصادفات بحثاً عن علامة تجيب بها عن الغيب.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	ما أسأل الله
.....	الفعل الممكن
.....	ما أنجزته

مراجعة المساء: هل فعلت ما أقدر عليه، أم ان تظرت تغيّر غيري أولاً؟

عند التعثر: إذا كان المطلوب خارج قدرتك، يبقى الدعاء، واختر واجباً حاضراً تؤديه؛ لا تختلق علاقة سببية لم تثبت.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٨ — حق الأهل والبدن

للرجوع: الفصلان ٥٣ و٥٤.

قد تتحمس لعبادة نافلة أو عمل نافع حتى تضعف عن حقوق أخرى. راجع يوماً واحداً كما وقع فعلاً. كم أعطيت أهلك، وكم أعطيت جسمك من راحة مناسبة، وما الواجب الذي تأخر؟ ابحث عن توازن تستطيع حفظه.

تطبيقات اليوم: احذف التزاماً زائداً أو قلل مدته إذا كان يزعجك واجباً. اتفق مع أهلك على وقت خدمة واضح، ورتب نومك بحسب حاجتك وظروفك. مثال تطبيقي: قدم قضاء حاجة لازمة قبل مجلس اختياري يمكنك سماعه لاحقاً. اكتب التغاير وأثره دون مقارنة يومك بيوم شخص تختلف مسؤولياته.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	حق تأخر
.....	التزام أراجعه
.....	ترتبي أنسب

مراجعة المساء: هل تحسن توزيع الوقت، أم نقلت التقصير من باب إلى آخر؟

عند التعثر: إذا تنازعت واجبات لا تعرف ترتبي بها، اسأل عن حكمها بحسب صورتها؛ لا تجعل الجدول فتوى عامة.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ١٩ — رفق في طالب الحق

للرجوع: الفصل ٦٢.

لك أن تطالب بحقك، وقد يتاح لك إحسان تتبرع به. قبل المطالبة افهم المبلغ أو الالتزام وحال الطرف الآخر، وميز بين ما تعلمه وما تظنه. الرفق لا يقيتضي إسقاط الحق، والتمسك به لا يبيح الإهانة.

تطابق اليوم: حضر رسالة واضحة تتضمن الحق والموعود وطلاب الرد، ثم اقرأها من جهة متلقيها. احذف التهمة التي لا دليل عليها. إن اخترت إمهالاً أو تنازلاً فليكن عن حق تملك التصرف فيه، بلا ضغط ولا إضاعة لحق من تعول. سجل الاتفاق ببدقة إن حصل.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	الحق المحدد
.....	الطالب الواضح
.....	الجواب أو المتابعة

مراجعة المساء: هل حفظت العدل في العبارة والإجراء؟

عند التعثر: إذا كان التواصل يعرضك للأذى أو يضاعف النزاع، استخدم وسيطاً موثوقاً أو طريقتاً نظامياً مناسباً.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٢٠ — فرح بخير غيرك

للرجوع: الفصلان ٦٣ و ٧٠.

قد ينجح قريب أو زميل فتضيق نفسك قبل أن تختار موقفها. لا تجعل الشعور العابر حكمًا نهائيًا عليك، ولا تسمح له أن يصير بخسًا لحق غيرك. تمرن على فعل عادل يوافق ما ترجوه من الخير.

تطبيق اليوم: سمّ الخير الذي ناله الآخر دون إنقاصه بتعليق. هنئه بصدق إن ناسبت الحال، وادع له، ثم انظر إلى عملك أنت: ما الخطوة التي تستطيع تحسّينها؟ لا تنقل أسرارها ولا تبحث عن عيب يوازن نجاحه. دوّن فعلًا نافعًا بدل تسجيل عدد مرات المقارنة.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	خير ناله غيري
.....	الفعل العادل
.....	خطوة تخص عملي

مراجعة المساء: هل تعاملت مع نجاحه على أنه نقصان من رزقي أو قيمتي؟

عند التعثر: إذا لم تستطع التهنئة الآن بصدق، احفظ لسانك من الأذى وابدأ بالدعاء والعمل النافع.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()
خطوتي التالية:

اليوم ٢١ — مراجعة العمل تحت الضغط

للرجوع: الأيام ١٥-٢٠ من البرنامج.

راجع الأيام التي صاحبها خوف أو حزن أو مقارنة أو خلاف. لا تقارن مقدار الألم؛ قارن ما فعلته حين حضر. أين حفظت حقاً؟ وأين احتجت إلى مساعدة؟ ما الاستجابة التي يمكن تهيئتها قبل الموقف المقبل؟

تطبيقات اليوم: اختر موقفين: واحداً أحسنت فيه وآخر تعثرت فيه. اكتب السبب العملي لكل منهما. هيئ عبارة أو وسيلة أو موعداً يساعدك في المرة القادمة. مثال تطبيقي: إن زاد النزاع بسبب رسالة غاضبة، فاجعل مراجعة الرسالة تسبق إرسالها. ارجع إلى حق بقي معلقاً وحدد طريقة إصلاحه.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	موقف أحسنت فيه
.....	تعثر وسببه
.....	استعداد للمرة القادمة

مراجعة المساء: هل أتعلم من الواقعة، أم أعيد محاكمتها دون إجراء؟
عند التعثر: اختر تعثراً واحداً للإصلاح. معالجة كل شيء مرة واحدة قد تحول المراجعة إلى عبء يعطل البداية.
 حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()
 خطواتي التالية:

اليوم ٢٢ — أمانة نقل الخبر

للرجوع: الفصلان ٤٤ و ٤٥.

يصل إليك خبر مؤثر فتريد نشره قبل التثبت. تدرب على إبطاء هذه الخطوة. السؤال الأول عن صحة النسبة و سياق الكلام، ثم عن الحاجة إلى نقله. لا يصير الخبر صحيحاً لأن معناه أعجبك أو لأن ناقله معروف بالصالح.

تطابق اليوم: اختر خبراً كنت ستشاركه. افتح مصدره واقرأ ما قبله وما بعده، وميز النص الأصلي من تعليق الناقل. إن لم تصل إلى ما يثبت النسبة فلا تنشره جازماً. إن سبق منك نشر خطأ، صححه لمن وصلهم بقدر ما تستطيع، مع حفظ أعراض الناس.

موضوع التسجيل	ملاحظات
الخبر ومصدره	
نتيجة التثبت	
قرار النشر أو التصحيح	

مراجعة المساء: هل قرأت أصلاً محدداً أم كررت نقلًا يتداوله الناس؟
عند التعثر: إذا تعذر التحقق، يكفي ترك المشاركة. لا يلزم وصف الخبر بالكذب لمجرد أنك لم تعرف مصدره.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٢٣ — قول لا أدري

للرجوع: الفصل ٤٦.

قد يخشى المرء أن تنقص مكانته إذا لم يجب. اختر اليوم أن تحفظ حد معرفتك. تستطيع أن تكون نافعاً ببيان ما تعلمه، وبإحالة ما لا تعلمه إلى أهله، دون ملء الفراغ بظن تقدمه في صورة يقين.

تطبيق اليوم: إذا سئلت عما لا تعرف، قل ذلك بوضوح. حدد إن كان يمكنك البحث أو الإحالة، ولا تعد بالاجواب إن لم تنتهي له. مثال تطبيقي: أعرف أصل المسألة، لكن هذه الصورة تحتاج إلى سؤال متخصص. بعد المجلس، دون هل كنت أميئاً في التمييز بين المعلومة والرأي والتخمين.

موضوع التسجيل	ملاحظات
موضوع السؤال	
حد معرفتي	
الإحالة أو البحث	

مراجعة المساء: هل زدت في الجواب ما لا أعلم خوفاً على صورتني؟
عند التعثر: إذا تبين أن جواباً سابقاً تجاوز علمك، صححه بهدوء، واذكر حد ما ثبت لك دون تبديد طويل.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()
 خطواتي التالية:

اليوم ٢٤ — إنصاف في الحوار

للرجوع: الفصل ٤٧.

اختر خلافاً يومياً يمكن مناقشته بأمان. قبل عرض رأيك، حاول أن تفهم ما يقصده صاحبك. لا يلزم من الإنصاف أن توافق، لكنه يمنعك من الانتصار على صورة لم يقلها. وللحق مكانة أكبر من بقاء عبارتك الأولى بلا تعديل.

تطابق اليوم: اطلب توضيح نقطة واحدة، ثم لخص فهمك واسأله هل أصبت. اذكر ما اتفقتما عليه قبل موضع الخلاف. إذا ظهر لك خطأ في كلامك فصحه صراحة. أوقف الحوار إذا صار تجريئاً، وحدد وقتاً أو طريقاً أنسب إن احتجتما إلى استكمالهما.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	دعوى الطرف الآخر
.....	ما تحقق لي
.....	تصحيح أو اتفاق

مراجعة المساء: هل استطعت عرض قوله كما يرضى هو أن يفهم، أم نسبته إلى نية خفية؟

عند التعثر: إذا لم تتضح المسألة، اتركها سؤالاً مفتوحاً للبحث. إنهاء المجلس بلا غلبة لا يضرى الحق.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()
خطوتي التالية:

اليوم ٢٥ — توبة تصلح أثرًا

للرجوع: الفصلان ٢٦ و ٢٨.

اختر تقصيرًا تعلمه من نفسك ولا تحتاج إلى كشفه للناس. تب إلى الله، وانظر هل بقي حق لغيرك أو سبب يعيدك إلى الخطأ. هدف اليوم أن تقترب من العودة بإصلاح ممكن، وأن يبقَى الرجاء باعثًا على العمل.

تطبيقات اليوم: أوقف السبب الذي تقدر على إيقافه، ورد الحق أو ابدأ طريق رده بحسب حكمه. إن كنت تؤذي شخصًا بلسانك، فكف عن الأذى وأصلح ما أفسدت بما لا يزيد الضرر. إذا أشكت طريقك الاعتذار أو رد الحق، اسأل قبل التصرف. احتفظ بتفاصيلك الخاصة لنفسك.

موضوع التسجيل	ملاحظات
سبب أوقفه	
حق أصلحه	
عون أحتاج إليه	

مراجعة المساء: هل تغير سبب عملي، أم اقتصرت على وعد عام بألا أعود؟

عند التعثر: إذا تكرر الخطأ، جدد التوبة وعدل السبب. لا تحول تكراره إلى عذر للاستمرار أو إلى حكم بانغلاق باب الرجوع.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٢٦ — استعداد هادي للحساب

للرجوع: الفصلان ٦٤ و٦٧.

تذكر الآخرة يعين على حسن العمل في اليوم الذي تملكه. اختر أمراً مؤجلاً يستحق الإنجاز، ولا تنشغل بمحاولة توقع الأجل. قد يكون الاستعداد ترتب حق، أو أداء واجب، أو ترك خصومة لا خير في استمرارها.

تطبيقي اليوم: راجع التزاماتك واكتب ما قد يضيع على غيرك إن غبت. نظم معلومة لازمة يستطيع أهلها الوصول إليها بأمان، أو أوف بوعد قريب، أو استفتت في دين والتباس مالي. لا تعرض ببياناتك الخاصة في دفتر مشترك. اجعل آخر المهمة دعاءً وحسن رجاء، ثم عد إلى حياتك وعملك.

موضوع التسجيل	ملاحظات
حق أخشى ضياعه	
إجراء يحفظه	
من يحتاج معرفته	

مراجعة المساء: هل أثمر التذكر إصلاحاً هادئاً أم عطلني عن واجب حاضر؟

عند التعثر: إذا غلبك القلق، اختصر المهمة إلى حق واضح، واطلب عوناً مناسباً بدل الاسترسال في تصور الاحتمالات.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٢٧ — رجاء يوسع النفع

للرجوع: الفصل ٦٩.

حين ترجو ما عند الله، يسع قلبك أن يحب الخير لغيره. اختر شخصًا تستطيع إعانتته على باب نافع دون تحكم فيه. قد تكون الإعانة تعليم مهارة، أو تسهيل وصوله إلى علم، أو مشاركة مورد تحتاج إليه مهمته.

تطبيقي اليوم: اسأل عن حاجته ولا تفترضها. قدم مساعدة محددة بحدود واضحة، واترك له حرية قبولها. مثال تطبيقي: راجع مع زميل فقرة لم يفهمها، ثم دعه يجرب بنفسه بدل أن تنجز عنه كل العمل. راقب هل زادت قدرته أم زاد اعتياده عليك.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	الشخص والحاجة
.....	مساعدة محددة
.....	أثرها وحدودها

مراجعة المساء: هل أحببت نفعه ولو لم يرتبط باسمي؟

عند التعثر: إذا رفض المساعدة، احترم اختياريه. يمكنك الدعاء له والبحث عن باب آخر، دون تحويل الإحسان إلى مطالبة بالطاعة.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٢٨ — مراجعة العادات الباقية

للرجوع: الأيام ٨-٢٧ من البرنامج.

لم تعد البداية مجرد فكرة. أمامك أوراق تبين ما استطعت فعله وما احتاج إلى تعديله. اختر عادة نافعة تصلح للبقاء في أسبوع مزدحم، لا في يوم مثالي وحده. القليل المحدد أسهل متابعة من قائمة واسعة لا تجد مكاناً في الحياة.

تطبيقات اليوم: اختر ثلاث ممارسات من البرنامج: واحدة للعلم، وأخرى لحق الناس، وثالثة للدعاء أو عمل خاص. حدد لكل منها وقتاً معتاداً وحداً أدنى ممكناً. احذف ما يكرر الغرض نفسه. جرّب الحد الأدنى اليوم، وتأكد أنه لا يزاحم واجباً ولا يحملك نفايات لا تقدر عليها.

ملاحظات	موضوع التسجيل
.....	الممارسة الباقية
.....	وقتها المعتاد
.....	حدها الأدنى

مراجعة المساء: هل أستطيع مواصلة هذه الخطة في أسبوع عادي؟
عند التعثر: إذا كثرت التعثرات، قلل عدد الممارسات قبل أن تزيد المدة. جودة الاستمرار أنفع من جمال الخطة على الورق.
 حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()
 خطواتي التالية:

اليوم ٢٩ — خطة العودة بعد الفتنور

للرجوع: الفصلان ٧١ و٧٢.

قد يطرأ سفر أو مرض أو ضغط عمل فتتغير عادتك. هيئ طريقي العودة قبل أن يقع الانقطاع. لا تجعل يوماً فائتاً سبباً لتأجيل شهر، ولا تربط الرجوع بشعور كامل. ابحث عن فعل ممكن يحفظ صلاتك بما تعلمت.

تطبيع اليوم: اكتب علامة عملية تنبئك إلى الانقطاع، مثل تأجيل المهمة ثلاث مرات. حدد أصغر خطوة للعودة وشخصاً أميناً تستعين بتذكيره إن أحببت. اختر دعاءً من الفصل الثاني والسبعين تقرأه في موضعه كاملاً. جرب اليوم صورة مختصرة من عادتك الباقية.

موضوع التسجيل	ملاحظات
علامة الانقطاع	
أول خطوة للعودة	
عون متاح	

مراجعة المساء: هل خطتي تعينني على الرجوع أم تعاقبني بما يزيده فوراً؟

عند التعثر: لا تجمع المتروك كله في يوم واحد. ابدأ بالواجب الحاضر، ثم عد إلى المقدار الممكن من الخير.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

اليوم ٣٠ — ما الذي تغير؟

للرجوع: الفصل الأول وخاتمة الكتاب.

عد إلى موقف البداية وقارن الأفعال. ربما صرت أصدق في وعد، أو أوضح في سؤال، أو أسرع في رد حق. سمّ هذا التغير واشكر الله عليه، واترك الحكم على السرائر والقبول له. وقد يظهر أن جانباً بقي كما هو؛ اجعله مهمة الشهر المقبل.

تطبيقات اليوم: راجع عدد التطبيقات المكتملة والجزئية والتي لم تبدأ، ثم اختر شاهدين واقعيين على ما تغير. اكتب عائقاً بقي، وخطوة واحدة لمعالجته، وموعد مراجعة بعد أسبوعين. احتفظ بالأوراق الخاصة في مكان آمن. اخترتم بالدعاء، ثم نفذ اليوم عملاً من الخطة الباقية؛ فالمتابعة تبدأ من الحياة التي تعود إليها.

ملاحظات	موضع التسجيل
.....	شاهد على التغير
.....	عائق باق
.....	خطوة وموعد مراجعة

مراجعة المساء: ما العمل الذي سأحفظه حين أغلق هذا الدفتر؟

عند التعثر: إذا لم تتغير شيئاً واضحاً، اختر موقفاً أضيّق ومهمة أبسط واستعن بمن يعينك. انتهاء الشهر ليس حكماً على نهاية الطريق.

حالة التنفيذ: تم () / جزئي () / لم يبدأ () / بديل مناسب ()

خطوتي التالية:

خاتمة

قد تنتهي القراءة، ويبقى أمامنا يوم عادي: صلاة نتهيأ لها، وعمل نؤديه، وأهل نعود إليهم، وخبر ننتظره. في هذا اليوم نفسه نحتاج إلى اليقين. لا نحتاج إليه في ساعة الخوف وحدها، ولا حين نسمع قصة عظيمة ثم نتمنى لو كنا من أهلها؛ نحتاج إليه حين نختر ما نقول وما نفعل، وحين لا يرانا أحد، وحين يكون اتباع الحق أقل راحةً من مجاملة النفس. نرجو أن يزداد علمنا بالله حتى يكون له أثر في طاعتنا، وأن يزداد تصديقاً بخبره حتى لا يصير الغيب في حياتنا كلمة بعيدة. نعلم أن لنا رباً يسمع دعائنا، ويعلم سرنا، ويقبل توبة من تاب، ولا يظلم أحداً. ونعلم أن لنا يوماً نلقاه فيه، وأن هذه الحياة، على ما فيها من نعم ومشاق، ليست آخر ما وعد به عباده.

وليس معنى ذلك أن نعرف غدنا. قد يبقى خبر تنتظره مجهولاً، وقد يطول أمر دعوت فيه، وقد تضيق قدرتك عن إصلاح ما تحب. لكن جهلنا بالآفاق لا يرد ما علمناه من صدق الله ورحمته وحكمته. نتعلم أن نفرق بين ما وعد به الوحي وما تمنته نفوسنا؛ فنثبت على الأول، ونسأل الله الأخير في الثاني، ولا ننسب إليه وعداً لم يقبله.

ولعل في هذا الفرق رحمةً كبيرة. لا نحتاج إلى أن تدافع عن توقعاتك كأنها جزء من الإيمان، ولا إلى أن تخبر الناس بأن ما ترجوه سيقع في موعد بعينه. تستطيع أن تقول بصدق:

أدعو الله وأرجوه، وأسعى فيما أقدر عليه، ولا أعلم ماذا سيكون.
هذا ليس إغلاقاً للأمل، بل تحريراً له من شرط لم يجعل الله
رحمته محصورة فيه.

وإذا وجدت في نفسك حزنًا، فلا تعجل فتظن أن طريق
اليقين قد أغلق دونك. لقد حزن من هو خير منا، وبكى، وشكا
إلى الله. الذي نطلبه أن يعيننا إيماننا على الصبر، ويحفظنا
من التسخط والظلم واليأس. وقد نحتاج مع الدعاء إلى مواساة،
أو مشورة، أو علاج، أو يد تساعدنا في أمر شاق. لا نتعالى على
حاجاتنا، ولا نتهم من يطلب العون في وقت ضعفه.

وإذا كنت في عافية، فاحمد الله عليها، وسله دوامها في خير.
ليست الشدة غايةً نطلبها لنثبت لأنفسنا قدرنا، ولا الألم
شرطًا لكل قرب. في السعة عبودية الشكر، وفي القدرة
عبودية العدل، وفي الوقت عبودية حفظه فيما ينفع. قد
يكون أعظم امتحان في يوم مريح أن تؤدي حقًا كان يمكن أن
تؤجله، أو تشكر نعمة اعتدت وجودها حتى نسيها فضلها.

وربما كان أول ما نحتاج إلى إصلاح ليس أمرًا بعيْدًا عن يدك.
رسالة ظلمت فيها إنسانًا، أو مالا آخر رده، أو عادة تشغلك عن
صلاة، أو خصومة يملك الصدق أن يخففها. لا تنتظر أن
يمتلئ قلبك بشعور كامل ثم تبدأ. استعن بالله، وتعلم
الحكم الذي تحتاج إليه، وخذ خطوة صحيحة. من العمل ما
يعينك على صدق ما ترجو، كما أن العلم يهديك إلى العمل الذي
ينفع.

ولا تحول هذه الخطوة إلى مناسبة لتزكية النفس. نحن أحوج إلى القبول من الثناء، وإلى إصلاح النية من شرحها للناس. قد يخفى العمل الصالح فلا يعرفه قريب ولا صديق، لكنه لا يخفى على الله. ولعل خير ما نحفظ به بعض أعمالنا أن نترك لها خفاءها، إلا حيث تكون مصلحة شرعية في إظهارها؛ فلا يصير الحديث عنها هو الذي يمنحها قيمة في نفوسنا.

وحيث نتعلم معنى نافعا، انقله برحمة. لا تقلق قلباً حتى يسمع منك نصيحة، ولا تجعل ما قرأت وسيلة لتوزيع المراتب على من حولك. نحن لا نعرف جميع ما يعانيه الناس، ولا نحيط بسرائرهم. تستطيع أن تدلهم على نص صحيح، وأن تعينهم على عمل صالح، وأن تدعو لهم، وأن تقبل منهم كلمة تصلح بها نفسك كذلك. الخير الذي لا يصاحبه تواضع قد يفسد صاحبه ما يرجو به نفع غيره.

قد تضعف بعد إقبال، أو تعود إلى خطأ كنت تظن أنك تجاوزته. لا تحسن الظن بخطئك، وأحسن الرجاء بباب التوبة. اعترف بما وقع، ورد ما يلزم من الحقوق، وابحث عن السبب الذي يعينك على تركه، ثم امض في الطاعة. لا ينفع أن نجمل التقصير، ولا ينفع أن نجعله قدراً نهائياً لا يمكن إصلاحه. ما دام في العمر بقية، ففيه عمل نرجو أن نلقى الله به على حال أحسن.

ومن الخير أن يكون لك نصيب من الوحي لا تنقطع عنه؛ تقرأ لتفهم، وتساءل لتتعلم، وتعمل بما علمت. ليست العبرة بكثير صفحات تمر عليها عيناك ثم لا تمس قراراً من

قراراتك. ربما وقفت عند آية قصيرة، فرأيت فيها حقاً
ضريعته، فكان وفاؤك به أنفع لقلبك من معرفة واسعة لم
تصحبها استجابة. ونسأل الله أن يزيدينا علماً نافعاً، لا علماً
يطيّل حجتنا على أنفسنا.

يبقى سؤال إبراهيم عليه السلام عن زيادة الطمأنينة قريباً
من حاجتنا إلى الهدى. لم يكن إيمان الخليل موضع إنكار، بل
كان سؤاله طلباً لما يزيّد الطمأنينة، كما مر في أول الكتاب.
ونحن نسأل ربنا فهماً صحيحاً لما أنزل، وتصديقاً يرسخ
بالعلم، وصدقاً لا تفسده رغبة عاجلة، ورجاءاً لا ينقطع إذا
تأخر ما أحببنا.

اللهم أصلح قلوبنا، واغفر تقصيرنا، وزدنا إيماناً و يقيناً.
أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واجعل ما علمتنا
نافعاً لنا وللمن حولنا. احفظ علينا ديننا في الرخاء والشدة،
وألف بين قلوبنا على الحق، وارزقنا حسن العمل وحسن
الختام. ولنا ولوالدينا ولكل من أعان على خير أو دل عليه،
نسألك المغفرة والرحمة والقبول. أنت ربنا، وإليك رجوعنا،
ومنك نرجو صلاح ما بين أيدينا وما ينتظرنا.

فهرس الآيات

- الفاتحة: ١-٧ — الفصل ٥٥ — ص 274
- البقرة: ٤ — الفصل ٧ — ص 37
- البقرة: ١٥٦ — الفصل ١٤ — ص 75
- البقرة: ٢١٦ — الفصل ٥١ — ص 258
- البقرة: ٢٥٩ — الفصل ٦٥ — ص 321
- البقرة: ٢٦٠ — الفصل ١ — ص 13
- البقرة: ٢٨٠، ٢٨٢ — الفصل ٣٠ — ص 159
- آل عمران: ٨ — الفصل ٧٢ — ص 349
- آل عمران: ٩٢ — الفصل ٢٩ — ص 154
- آل عمران: ١٤٤ — الفصل ١٥ — ص 79
- آل عمران: ١٧٣-١٧٥ — الفصل ١٨ — ص 94
- النساء: ٤٠ — الفصل ٢٤ — ص 124
- المائدة: ٩٠-٩٣ — الفصل ٢٦ — ص 135
- الأعراف: ١١٣-١٢٦ — الفصل ٣٤ — ص 179
- التوبة: ٧٩ — الفصل ٦٨ — ص 332
- التوبة: ١١٧-١١٩ — الفصل ٢٧ — ص 140
- يوسف: ١٦-١٨، ٨٠-٨٧ — الفصل ١١ — ص 57
- يوسف: ٢٣-٥٧ — الفصل ٣٨ — ص 199
- إبراهيم: ٣٧ — الفصل ١٠ — ص 50
- الحجر: ٩٧-٩٩ — الفصل ٧١ — ص 345

- الكهف: ٢٦-٩ — الفصل ٣٦ — ص 188
- الكهف: ٤٩ — الفصل ٦٧ — ص 328
- الكهف: ٨٢-٦٠ — الفصل ٢١ — ص 106
- مريم: ١١-٢ — الفصل ٥٠ — ص 254
- طه: ٧٦-٦٥ — الفصل ٣٤ — ص 179
- الأنبياء: ٧٠-٥١ — الفصل ١٨ — ص 94
- الأنبياء: ٨٣-٨٤ — الفصل ٤٠ — ص 208
- الأنبياء: ٨٧-٨٨ — الفصل ٣٩ — ص 205
- النور: ٢٢ — الفصل ٢٨ — ص 151
- الفرقان: ٥٨ — الفصل ١٥ — ص 79
- الشعراء: ٦٨-٥٢ — الفصل ٩ — ص 46
- الشعراء: ٨٠ — الفصل ٥٥ — ص 274
- القصص: ٤-١٣ — الفصل ١٧ — ص 90
- السجدة: ٢٤ — الفصل ٧٠ — ص 341
- الأحزاب: ٣٦ — الفصل ٨ — ص 41
- يس: ٧٨-٨٣ — الفصل ٦٥ — ص 321
- الصافات: ١٣٩-١٤٨ — الفصل ٣٩ — ص 205
- ص: ٤١-٤٤ — الفصل ٤٠ — ص 208
- الزمر: ٥٣-٥٤ — الفصل ٢٠ — ص 103
- الحجرات: ١٥ — الفصل ٢٥ — ص 129
- الطور: ٣٥-٣٧ — الفصل ٢ — ص 17
- الواقعة: ٩٥ — الفصل ٤ — ص 25

- المجادلة: ١-٤ — الفصل ١٩ — ص 99
- التحريم: ١١ — الفصل ٣٥ — ص 184
- المطففين: ١-٦ — الفصل ٦١ — ص 301
- البروج: ٤-١١ — الفصل ٣٧ — ص 193
- التكاثر: ٥-٨ — الفصل ٤ — ص 25

فهرس الأحاديث والأخبار

- نحن أحق بالشرك من إبراهيم (أبو هريرة) — فصل ١ — ص 13
- كاد قلبني أن يطيّر: سماع الطور (جبير بن مطعم) — فصل ٢ — ص 17
- خبر حنظلة ومجالس الذكر (حنظلة) — فصل ٣ — ص 21
- ذاك صريح الإيمان (أبو هريرة) — فصل ٥ — ص 29
- آمنت بالله؛ والاستعاذة والانتهاء (أبو هريرة) — فصل ٥ — ص 29
- سؤال العفو والعافية (أبو بكر) — فصل ٦ — ص 33
- ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا (ابن عمر) — فصل ٦ — ص 33
- إنها جنان، وإنه في الفردوس الأعلى (أنس) — فصل ٧ — ص 37
- استدارة أهل قباء إلى القبلة (ابن عمر) — فصل ٨ — ص 41
- خبر هاجر وزمزم (ابن عباس) — فصل ١٠ — ص 50
- النهي عن القدوم على أرض الطاعون والخروج فرارًا (عبد الرحمن بن عوف) — فصل ١٢ — ص 61
- خبر صلح الحديبية (المسور بن مخرمة ومروان) — فصل ١٣ — ص 65
- اللهم أجزني في مصيبتني (أم سلمة) — فصل ١٤ — ص 75
- وفاة النبي ﷺ وموقف أبي بكر (روايات البخاري) — فصل ١٥ — ص 79
- حسبنا الله ونعم الوكيل: خبر إبراهيم (ابن عباس، موقوف) — فصل ١٨ — ص 94
- سماع شكوى المجادلة (عائشة) — فصل ١٩ — ص 99

- لله أرحم بعباده من هذه بولدها (عمر) — فصل ٢٠ — ص 103
- موسى والخضر في سورة الكهف — فصل ٢١ — ص 106
- أسئلة هرقل لأبي سفيان (ابن عباس عن أبي سفيان) — فصل ٢٢ — ص 111
- أنت الحق ووعدك الحق (ابن عباس) — فصل ٢٣ — ص 119
- مبيت ابن عباس عند ميمونة (ابن عباس) — فصل ٢٣ — ص 119
- من كان يقيم المسجد (أبو هريرة) — فصل ٢٤ — ص 124
- يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه (أبو هريرة) — فصل ٢٥ — ص 129
- تحريم الخمر وإراقها (أنس) — فصل ٢٦ — ص 135
- توبة كعب بن مالك (كعب بن مالك) — فصل ٢٧ — ص 140
- الإفك ونفقة أبي بكر على مسطح (عائشة) — فصل ٢٨ — ص 151
- صدقة أبي طلحة ببيرحاء (أنس) — فصل ٢٩ — ص 154
- صدقة زينب على زوجها وأيتامها (زينب امرأة ابن مسعود) — فصل ٢٩ — ص 154
- الرجل من بني إسرائيل والألف دينار (أبو هريرة) — فصل ٣٠ — ص 159
- خصومة الحضرمي والكندي (وائل بن حجر) — فصل ٣١ — ص 164
- إنما أنا بشر: القضاء بحسب الحجة (أم سلمة) — فصل ٣١ — ص 164
- احفظ الله يحفظك (ابن عباس) — فصل ٣٢ — ص 169

• الإي مان بالقدر: خبر ابن الديلمي (أبيّ وابن مسعود وحذيفة وزيد)
— فصل ٣٢ — ص 169

• ولكنكم تستعجلون (خ باب) — فصل ٣٣ — ص 175

• الغلام والراهب والملك (صهي ب) — فصل ٣٧ — ص 193

• لا غنى لي عن بركتك (أبو هريرة) — فصل ٤٠ — ص 208

• مصعب وكفنه (خ باب) — فصل ٤١ — ص 213

• الرقية وحديث السبعين ألفاً (ابن عباس) — فصل ٤٢ — ص 217

• الرقية المشروعة (عوف بن مالك) — فصل ٤٢ — ص 217

• أويس القرني وبره بأمه (عمر، من رواية أسير) — فصل ٤٣ — ص 222

• الصدقة عن الأم التي ماتت فجأة (عائشة) — فصل ٤٥ — ص 231

• سؤال بلال عن أرجى عمله (أبو هريرة) — فصل ٤٩ — ص 251

• دعاء الاستخارة (جابر) — فصل ٥١ — ص 258

• فمن رغب عن سنتي فليس مني (أنس) — فصل ٥٢ — ص 263

• حقوق البدن والأهل والرخصة في الصوم (عبد الله بن عمرو) — فصل ٥٣ — ص 267

• صدق سلمان (أبو جحيفة) — فصل ٥٤ — ص 271

• وما يدريك أنها رقية؟ (أبو سعيد) — فصل ٥٥ — ص 274

• ذهب أهل الدثور بالأجور (أبو ذر) — فصل ٥٦ — ص 278

• ذكر الله دبر الصلاة (أبو هريرة) — فصل ٥٦ — ص 278

• اسق حديقة فلان (أبو هريرة) — فصل ٥٧ — ص 283

• الأبصر والأقرع والأعمى (أبو هريرة) — فصل ٥٨ — ص 288

• وفاء دين والد جابر (جابر) — فصل ٥٩ — ص 293

• الثالث، والثلاث كثير؛ والنفقة على الأهل (سعد بن أبي وقاص) —
فصل ٦٠ — ص 297

• من غش فلميس مني (أبو هريرة) — فصل ٦١ — ص 301

• صدق المتبايعين وبركة البيع (حكيم بن حزام) — فصل ٦١ — ص
301

• ضع الشطر: تخفيف الدين (كعب بن مالك) — فصل ٦٢ — ص 306

• تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا (أبو هريرة) — فصل ٦٢ — ص
306

• إن هذا المال خضرة حلوة (حكيم بن حزام) — فصل ٦٣ — ص 310

• كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل (ابن عمر) — فصل ٦٤ —
ص 315

• رسم المربع والخطوط: الأجل والأمل (ابن مسعود) — فصل ٦٤ — ص
315

• وإنني لأرجو له الخير (أم العلاء) — فصل ٦٦ — ص 325

• ليس بينه وبينه وترجمان (عدي بن حاتم) — فصل ٦٧ — ص
328

• نصف صاع أبي عقيل (أبو مسعود) — فصل ٦٨ — ص 332

• رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (أبو سعيد) — فصل ٦٩ — ص
337

• إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس (أبو هريرة) — فصل ٦٩ — ص 337

• العطاء والغنى الذي في القلوب (عمرو بن تغلب) — فصل ٧٠ — ص
341

• أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا (عائشة) — فصل ٧١ — ص 345

• يا مقلب القلوب ثبت قلبني على دينك (أم سلمة) — فصل ٧٢ — ص
349

• اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك (عبد الله بن عمرو) —
فصل ٧٢ — ص 349

فهرس الآثار وأقوال العلماء

- أبو بكر الصديق: خطبته يوم الوفاة — فصل ١٥ — ص 79
- ابن عمر: اغتنام الصحة والوقت — فصل ٦٤ — ص 315
- سالم بن عبد الله: اليقين في الحجر بمعنى الموت — فصل ٧١ — ص 345
- الحسن البصري: أثر اليقين في الفرائض والصبر — فصل ٧٠ — ص 341
- سعيد بن جبير وحسين بن عبد الرحمن: التثبت في الرقية — فصل ٤٢ — ص 217
- ابن سيرين: العلم دين والسؤال عن الإسناد — فصل ٤٤ — ص 227
- ابن المبارك وسفيان: العبادة لا تستلزم ضبط الرواية — فصل ٤٤ — ص 227
- ابن المبارك والطارقاني: نقد الخبر المنقطع — فصل ٤٥ — ص 231
- مالك بن أنس وابن هرمز: قول لا أدري — فصل ٤٦ — ص 235
- الشافعي: طاب الحق في الحوار — فصل ٤٧ — ص 239
- أحمد بن حنبل: طاب الدليل في المحنة — فصل ٤٨ — ص 243
- ابن تيمية: زيادة الإيمان ومراتب اليقين — فصل ٣ — ص 21، فصل ٤ — ص 25، فصل ٢٣ — ص 119
- ابن القيم: اليقين والتوكل وشهادته في شريحه — فصل ٤ — ص 25، فصل ١٦ — ص 84، فصل ١٨ — ص 94
- ابن رجب: وصية ابن عباس والأخذ بالأسباب — فصل ١٠ — ص 50، فصل ١٢ — ص 61، فصل ٣٢ — ص 169

فهرس المعاني والموضوعات

- الإيما ببالغيب ومراتب اليقين — فصل ١ — ص 13، فصل ٤ —
ص 25، فصل ٧ — ص 37، فصل ٦٥ — ص 321، فصل ٦٩ — ص 337
- معرفة الله وأسمائه وصفاته — فصل ١٧ — ص 90، فصل ١٩ — ص
99، فصل ٢٠ — ص 103، فصل ٢٣ — ص 119، فصل ٧٢ — ص 349
- القرآن وزيادة الإيما ب — فصل ٢ — ص 17، فصل ٣ — ص 21، فصل
٨ — ص 41، فصل ٢٣ — ص 119
- السؤال النافع والشربهة والوسواس — فصل ١ — ص 13، فصل ٥ —
ص 29، فصل ٤٢ — ص 217، فصل ٤٤ — ص 227، فصل ٤٦ — ص
235
- التوكل والأسباب — فصل ٩ — ص 46، فصل ١٠ — ص 50، فصل ١٢ —
ص 61، فصل ٣٠ — ص 159، فصل ٣٨ — ص 199، فصل ٥١ —
ص 258، فصل ٥٥ — ص 274، فصل ٥٧ — ص 283
- الخوف والحزن مع الإيما ب — فصل ٩ — ص 46، فصل ١١ — ص 57،
فصل ١٤ — ص 75، فصل ١٧ — ص 90، فصل ٤٠ — ص 208
- الدعاء والعافية والثبات — فصل ٦ — ص 33، فصل ١٤ — ص 75،
فصل ٣٩ — ص 205، فصل ٤٠ — ص 208، فصل ٥٠ — ص 254،
فصل ٥١ — ص 258، فصل ٧٢ — ص 349
- الوعد الإلهي وتوقعات الإنسان — فصل ١٣ — ص 65، فصل ١٤ — ص
75، فصل ٢١ — ص 106، فصل ٥٠ — ص 254، فصل ٦٥ — ص 321
- التوبة والصدق — فصل ٢٥ — ص 129، فصل ٢٦ — ص 135، فصل
٢٧ — ص 140، فصل ٢٨ — ص 151
- العفو وأداء الحقوق — فصل ٢٨ — ص 151، فصل ٣١ — ص 164،
فصل ٥٤ — ص 271، فصل ٦٢ — ص 306

- الصبر على الأذى والثبات على الحق — فصل ٣٣ — ص 175، فصل ٣٤ — ص 179، فصل ٣٥ — ص 184، فصل ٣٦ — ص 188، فصل ٣٧ — ص 193، فصل ٣٨ — ص 199، فصل ٤٨ — ص 243
- إخفاء العمل وصلاح النية — فصل ١٦ — ص 84، فصل ٢٤ — ص 124، فصل ٤٢ — ص 217، فصل ٤٧ — ص 239، فصل ٤٩ — ص 251، فصل ٧٠ — ص 341
- النقد العلمي وأمانة النقل — فصل ٤٤ — ص 227، فصل ٤٥ — ص 231، فصل ٤٦ — ص 235، فصل ٤٧ — ص 239، فصل ٤٨ — ص 243
- اتباع السنة ورفع الحرج — فصل ٨ — ص 41، فصل ٣٢ — ص 169، فصل ٤٩ — ص 251، فصل ٥٢ — ص 263، فصل ٥٣ — ص 267، فصل ٥٤ — ص 271، فصل ٧١ — ص 345
- الرزق والعمل والصدقة — فصل ٢٩ — ص 154، فصل ٣٠ — ص 159، فصل ٥٦ — ص 278، فصل ٥٧ — ص 283، فصل ٥٨ — ص 288، فصل ٥٩ — ص 293، فصل ٦٠ — ص 297، فصل ٦١ — ص 301، فصل ٦٢ — ص 306، فصل ٦٣ — ص 310، فصل ٦٨ — ص 332
- الغنى والشكر وفتنة المقارنة — فصل ٢٠ — ص 103، فصل ٢٩ — ص 154، فصل ٤١ — ص 213، فصل ٥٦ — ص 278، فصل ٥٨ — ص 288، فصل ٦٣ — ص 310، فصل ٧٠ — ص 341
- الأسرة والبر والرفق — فصل ١٧ — ص 90، فصل ٢٩ — ص 154، فصل ٣٥ — ص 184، فصل ٤٣ — ص 222، فصل ٤٥ — ص 231، فصل ٥٠ — ص 254، فصل ٥٣ — ص 267، فصل ٥٤ — ص 271، فصل ٦٠ — ص 297، فصل ٧٢ — ص 349
- الموت والبعث والحساب — فصل ٧ — ص 37، فصل ١٥ — ص 79، فصل ٦٤ — ص 315، فصل ٦٥ — ص 321، فصل ٦٦ — ص 325، فصل ٦٧ — ص 328، فصل ٧١ — ص 345

• الجنة والرجاء — فصل ٧ — ص 37، فصل ٢٠ — ص 103، فصل ٣٧ —
ص 193، فصل ٦٦ — ص 325، فصل ٦٩ — ص 337، فصل ٧٠ —
ص 341

• الاستمرار في العمل ومجاهدة النفس — فصل ٣ — ص 21، فصل ٦ —
ص 33، فصل ٣٢ — ص 169، فصل ٤٩ — ص 251، فصل ٥٣ —
ص 267، فصل ٦٤ — ص 315، فصل ٧١ — ص 345، فصل ٧٢ — ص
349

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع المسند الصحيح. الإحالات بأرقام الأحاديث، مع تسمية الكتاب أو موضوع الحديث عند الحاجة.

مسلم بن الحجاج. المسند الصحيح. ويشمل الإحالة إلى المقدمة في أخبار نقد الرواية والتثبت في العلم.

أبو داود، سليمان بن الأشعث. السنن. حديث ابن الديلمي في الإيमान بالقدر، رقم ٤٦٩٩.

الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع. أبواب الدعوات والقدر، ومنها أحاديث سؤال العافية، ووصية ابن عباس، وسؤال الثبات.

ابن ماجه، محمد بن يزيد. السنن. حديث عائشة في سماع الله شكوى المجادلة، وحديث أبي بكر في اليقين والعافية.

ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد. اليقين. ولا سيما الأخبار ١، ١٣، ١٩؛ مع تمييز كلام الحسن البصري من المرسل الذي تقدمه في الخبر ١٣.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. الإحالة إلى السورة والآية؛ ومنها البقرة: ٢٥٩-٢٦٠، والأنعام، والأنفال، ويوسف، والحجر، والكهف، ومريم، والأنبياء، والشعراء، والقصاص، والسجدة، والزمر، والفتح، والحجرات، والتكاثر.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. شرح الأحاديث ٣٤٦٤ و ٤٥٣٧ و ١٢٤٣، في المعاني التي أحيل إليها.

الزوي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى. مواضع زيادة الإيمان واستحضار العلم في المجلد السابع، ومراتب اليقين، ٦٤٥/١٠-٦٤٦.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. مدارج السالكين. منزلة اليقين: حقيقتة ومراتبه وصلاته بالتوكل؛ والإحالات إلى عنوان المنزلة والمبحث.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الوابل الصيب من الكلم الطيب. الفائدة الرابعة والثلاثون من فوائد الذكر، وفيها شهادته في حال شريكه ابن تيمية وأثر مجالسته.

ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد. جامع العلوم والحكم. شرح الحديث التاسع عشر: وصية ابن عباس، وشرح الحديث التاسع والأربعين: حديث التوكل ورزق الطير.

الذهبي، محمد بن أحمد. سير أعلام النبلاء. تراجم مالك بن أنس في المجلد الثامن، ومحمد بن إدريس الشافعي في العاشر، وأحمد بن حنبل في الحادي عشر. تحدد الإحالات موضع الخبر المستخدم داخل كل ترجمة.

خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1438هـ/2017م، 1/169، 179: معنى اليقين ومراتبه.